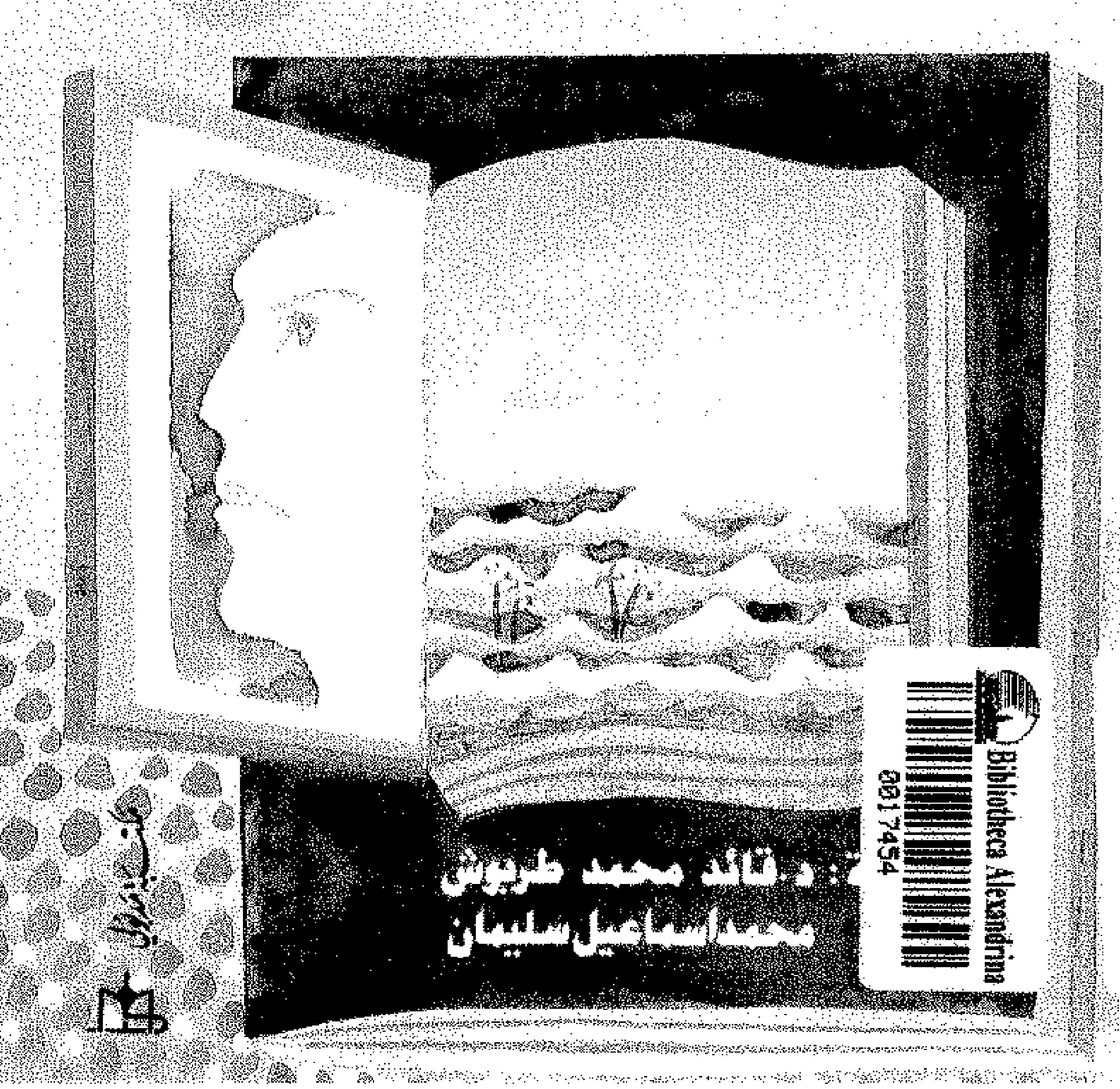
مذكرات دبلوماسي في اليمن

ج. انكارين



جـ . انكارين

مذكـرات دبلوماسى فى اليمن

ترجمة : د. قائد محمد طربوش
محمد اسماعيل سليمان

مكتبة مدبولى

الطبعة الاولى ١٩٩٣

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة

الإهـداء

إلى المهندس منصور على بن عبد الله الذي غاب قبل الأوان . .

قائد

تصدير

هذا المؤلف الذى نقدمه للقراء الكرام يصدر فى الاتحاد السوفيتى السابق عن اليمن . كتبه جـ . استاخوف باسم مستعار « انكارين » .

وكان استاخوف رئيس الجانب السوفيتى فى المحادثات اليمنية السوفيتية بصنعاء ، التى تكللت بتوقيع اتفاقية صنعاء بين اليمن والاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر عام ١٩٢٨ ، وكانت أول اتفاقية بين دولة عربية وبين الاتحاد السوفيتى تم بموجبها التبادل الدبلوماسى بينهما (١) .

لهذا الكتاب أهمية تكمن فى أن مؤلفه كان شاهد عيان للأحداث الساخنة التى حدثت فى صنعاء فى صيف وخريف ذلك العام .. المتمثل بالتهديد الانجليزى للجزء المستقل عن اليمن من أجل أن يتخلى عن بعض المناطق المحاذية لمستعمرته عدن وسلطنه ، لحج آنذاك من جهة ، واحتدام الصراع بين الدول الأوربية على شبه جزيرة العرب عموماً ، واليمن على وجه الخصوص من جهة ثانية .

يشير المؤلف إلى محاولة الحكومة والجزء المستقل من اليمن استعادت الأراضى المحتلة آنذاك وبداية المشاكل اليمنية ـ السعودية حول عسير وانتفاضة الزرانيق وتداخل العلاقات اليمنية الإيطالية والانجليزية اليمنية . لقد وصف هذا الديلزيكى انطباعاته عن اليمن وحكى عن لقاءاته بالمسؤلين اليمنيين ومشاهداته لأحوال الناس وتوقعاته للأوضاع انذاك منها تلك التى ثبت صحتها ومنها التى لم تثبت . ورغم أن المؤلف قد أشاد بالامام يحيى لكنه قد تطرق إلى العزلة التى فرضها على الجزء المستقل من اليمن وتمركز السلطات كلها بيد الامام نفسه .

لقد كتب المؤلف كتابه هذا وأصدره فى وقت كان فيه كثير من اليمنيين والعرب والأجانب يعقدون الآمال على أن يقوم الامام يحيى بالاصلاح فى المجالات المختلفة، غير أن الامام يحيى قد خيب آمال الجميع فى ذلك لقد كتب هذه المؤلف فى وقت لم تكن فيه قد تكونت حركة المعارضة

---

(١) والاتفاقية التى وقعت بين اليمن والاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر ١٩٢٨ .. اعترف الاتحاد السوفيتى بموجبها باستقلال اليمن .. والتزم الطرفان الساميان بتبادل البضائع التجارية . وعلى أساس هذه الاتفاقية فتحت ممثلتان تجاريتان للإتحاد السوفيتى فى صنعاء والحديدة

وكانت هذه الاتفاقية أول إتفاقية تعقدها حكومة الاتحاد السوفيتى مع دولة عربية ، وان كان قد سبق أن كان للاتحاد السوفيتى قنصلية فى جدة منذ عام ١٩٢٤ غير أن تلك القنصلية قد قامت على أساس تبادل المذكرات ذات الاعتراف المتبادل بين حكومتى الاتحاد السوفيتى ونجد والحجاز دون التوقيع على إقامة علاقات دبلوماسية بينهما

الصفحة

المحتويات

الباب الأول : ـ هرج ما قبل الرحيل ـ أوديسا ـ اسطنبول في المنظار . ٩

الباب الثاني : ـ على أمواج بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ـ رجال التفتيش ـ بورسعيد . ١٩

الباب الثالث : ـ الاختناق في البحر الأحمر ـ الشعب ـ الحيتان ـ البوابة إلى مكة ـ المضاربة بالحج ـ وهابيو نجد في النضال ضد الامبريالية . ٢٩

الباب الرابع : ـ من « نيته » إلى « توبولسك » أول سنوات اليمن ـ على رصيف الحديدة ـ ها هي اليمن . ٣٩

الباب الخامس : بجمع على حاجز الأمواج ـ الزخرفة العربية والجمارك ـ سيف الإسلام والبلاشفة الوافدون ـ الجاسوس المفضوح ـ رحلة سعيدة « توبولسك » . ٤٩

الباب السادس : ـ في الأزقة الخانقة بالحديدة ـ السوق ـ الهنود ـ السفن القديمة ـ الصناعة ـ رأس المال الأجنبي . ٥٩

الباب السابع : ليلة ضائعة في تهامة ـ على سيارة إلى باجل ـ الفئران الطائرة ـ الرهينة ـ جيكوب . ٦٩

الباب الثامن : ـ نحو الاقطاعية ـ بقايا الأحباش ـ قوقاز في « العربية » ـ البغال والخيول . ٨٣

الباب التاسع : ـ جبال شبه جزيرة العرب ـ البن ـ المدرجات ـ الحصون ـ المشائخ الاقطاعيون ـ مناخة ـ القات ـ الجواسيس . ٩٥

الباب العاشر : ـ من مضيق إلى مضيق ـ محقق التركي الشاكي و« شخص » في الحديدة ـ الجراد والاعلام الحمراء ـ المنجم ـ نتائج الرحلة . ١٠٩

الباب الحادي عشر . ـ « الامام مستاء » ـ في عهد الأتراك أم الآن ؟ ـ الطبقات ١٢١

المعارضة اليمنية لنظام حكم الامام يحيى من جهة . كما أن الكاتب قد وضع تحت تأثير المفهوم القائل بأن إستقلال شعوب الشرق أحد مقومات انهيار النظام الرأسمالي العالمي من جهة ثانية . الأمر الذي جعله يشيد بالإمام يحيى أحياناً بصفته قائد الاستقلال .

وعلاوة على ما تقدم فإن الكتاب موجه إلى القارىء السوفييتي في تلك الفترة من الزمن بما يوافق الوجه السائد في الكتابة انذاك . وكان شأن هذا الكتاب شأن الكتب التي يؤلفها كتابها لقرائهم في بلدانهم بالدرجة الأولى وهي الأغلبية الساحقة من المؤلفات التي يكتبها الرحالة والدبلوماسيون والمستشرقون عن البلدان الأجنبية .

ومن هذا المنطلق كتب هذا الكتاب للقارىء السوفييتي في بداية الثلاثينات حتى هذا القرن بما يوافق توجه الكاتب السياسي والاتجاه الأيدلوجي لكاتبه ، الأمر الذي جعله يسترسل في الحديث بروح رومانسية وأحلام مفرطة أحياناً . زد على ذلك أن المؤلف عاش لفترة قصيرة في اليمن وسط ضيق من المسؤلين الحكوميين كما أستسق معلوماته من مشاهدته في رحلته من الحديدة إلى صنعاء والعكس ، وحتى مترجميه الذين رافقوه في مهمته الدبلوماسية ، لذا فإنه قد كان يجانبه الصواب في تقييمه لبعض الاحداث لم نشأ أن نعلق عليها ليسر معرفتها من قبل القارىء الفطن ، وكان جهل الكثير من الرحالة والدبلوماسيين الأجانب بما فيهم مؤلف هذا الكتاب بجوهر الدين الإسلامي الحنيف قد جعله يخلط بين بعض الممارسات التي لا تنتمي إلى الدين في اليمن وبين الدين الإسلامي نفسه . لقد كان هذا الخلط تقليد دأب عليه قصيرو النظر آنذاك . أثبتت الحياة خطر هذه الأفكار وسطحيتها .

بيد أن بعض النواقص الموجودة في الكتاب لا تقلل من أهمية وإستفادة الباحثين المتخصصين بالتاريخ اليمني المعاصر منه وتحليل ما أورده من أراء وأنطباعات عن الأحداث وشخصيات ذلك الزمن .

لقد ترجمنا هذا الكتاب بعد أكثر من نصف قرن من صدوره باللغة الروسية . وفي وقت كانت اليمن مجزأة إلى جمهوريتين . واليوم وبعد أن تحققت الوحدة اليمنية أغلى أحلام الشعب اليمني فإننا نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة إلى الكتب المترجمة عن اليمن خاصة وشبه جزيرة العرب عامة .

وفي الأخير لابد من الإشارة إلى أننا ترجمنا هذا الكتاب بتصرف وحذفنا منه فقرتين من صفحتي ٢٠ ، ٢١ وعدلنا بعض الجمل دون أن يكون ذلك على حساب جوهر معانيها في صفحات أخرى ، لأنها في نظرنا لا تليق بالنشر باللغة العربية .

والله ولي التوفيق .. قائد محمد طربوش .. ٢٩ / ٤ / ١٩٩٢ ..

الصفحة

الاجتماعية فى اليمن ـ وادى صنعاء والخيمة البيضاء بصنعاء ـ النسور فى القانورات .

الباب الثاني عشر : الانطباعات الأولى عن صنعاء ـ شقشقة الآبار ـ « ابن الامام » ـ القاضي راغب ـ الدعاية الإيطالية ـ بانتظار الغارات الانكليزية ـ الاستقبال الرسمي للإمام . ١٣٧

الباب الثالث عشر : ـ جهاز الدولة اليمني ـ القضاة ، المشائخ ، الديوان ـ الأجهزة الإدارية والإرشادية : ـ الامام ـ الوزير الأول ـ سيوف الاسلام ـ الزنانيق المتمردة ـ محتفيو اليمن . ١٥٢

الباب الرابع عشر : ـ في أيام الغارات الانجليزية ـ العملاء ـ اضرب وأهرب ـ ثلاث صيغ . ١٦٥

الباب الخامس عشر : ـ محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسي ـ الإمام يستغيث ـ النذور والرشاوات ـ انهيار الحسابات الانجليزية والصفعة الأمريكية . ١٧٥

الباب السادس عشر : الأيام الأخيرة بصنعاء ـ أحجار على الطحلب ونساء حجرية ـ اليهود ـ رحلة خطرة . ١٨٧

الباب السابع عشر : سمفونية العاصمة « الأبدية » ـ وتأثر العوالم الأخرى ـ طريق العودة ـ وحي صحيفة الحائط ـ رائحة الوطن « فى اسطنبول ـ الفنار الأوديسي . ١٩٩

الباب الأول

* إلى اليمن
* هرج ما قبل الرحيل
* اوديسا
* اسطنبول من المنظار

إلى اليمن

العاصفة تهب ، كلنا مأخوذين بسورتها ، تقذف بنا ، الى اينما شاء البصر . تعودنا على هذا ، وعجيب حين يخرج المرء من هذه الموجة محافظا على تماسكه النفسي بغير ادراك ، ان يقع فى بيئة غريبة ، وبعيدا من حيث طبيعة المسافة ، وان يجلس فى آلة الزمن ، فى قطار ، باخرة ، زورق شراعى ، او يركب بغلا ، سيارة او طائرة ، ويبتعد آلاف الكيلومترات الى الامام ، ويرجع مئات القرون الى الخلف ، وينظر الى كل ما عاشه وتعود عليه وكأنه ينظر من خلال منظار زجاجى فى الميدان .

لقد حدث كل شيء من غير توقع وبسرعة ، وكانت أمسية ما فى النادى . اجتماع ، وأحاديث في العنبر . ويقال لك فجأة : " أنت ذاهب الى اليمن " ، ويكون الايضاح قصيرا ، وكل ما تعرفه ان ذلك سيتم قريبا ، يومان للاستعداد ، ويومان لجلبة ما قبل الرحيل ... وتبتعد كل الأمور الخاصة وغير الخاصة ، حيث لا ينبغى التفكير فيها .

كان محدثى الاول ، الذى اخبرته عن مجرى الامور مرتابا . " اليمن ، اى معنى يمتلك ذلك " قال مدمدما . انا اعرف – انه ليس وحده مرتابا فقط ، وانما هناك آخرون كثيرون . " اليمن – قبائل متوحشة ... ربما مستعمرة لأحد ما ، يقول آخرون . المرتابون كثيرون أعرف أنهم كثيرون ، أعرف أنه ليس فى قضية اليمن فقط ، بل وحتى في القضايا الإسلامية والحاسمة فى حياة وطننا وخط حزبنا ، وحين رحلت الى اليمن لم يكن مفهوم اليمين الانتهازى واضحا كما هو الآن ، لكن هذه الانتهازية قد بدأت تعبر عن نفسها فى قضية وحيدة حتى فى قضية الرحلة الى اليمن .

– اليمن ... أى معنى يمتلك ذلك ... اخرج الى الشارع . لبست موسكو قبل عيد اول مايو حلة بهيجة من الأضواء الكهربائية . وبدأت أشعر كيف تبتعد قليلا قليلا ، وفى البعد ترتسم أشكال مجهولة وغامضة عن بلدان جديدة .

تلف الحشود بالاعلام واللافتات ، والصفوف المنتظمة فى الأزقة ، تنورفى مكانها لكى تجد نفسها بعد بضع ساعات من التجول فى نقطة الانطلاق كي تندمج فى صفوف جديدة وتقترب مع الجانب الآخر .

اتحدث مع رفيق يعرف التيبت ، ماذا هناك ؟

ـ بلد جبلي ، وحشة وقسوة . بقايا نظام الأقومة ، والرهبان هم الطبقة السائدة ، ومالكو الأراضي ، والتجار والمحاربون في نفس الوقت ، والانجليز عدوهم الخارجي الآن .

أخمن ، يعني ، مرحلة ما في غياهب العصور الوسطى . بلد تجمد في المرحلة الاقطاعية ، محروم من أي امكانية للتطور بحكم سوء أوضاعها الداخلية والضغط الخارجي .

وهناك في اليمن ! يبدو كأنه يشبه ذلك : الملك هو الامام البابا الإسلامي بالمقياس المحلي ـ اضطهد الترك اليمن سابقاً (واضطهد الصينيون التيبت) والآن الضغط الانجليزي ـ والحقيقة إنه لا يوجد في البلدان المسلمة لا رهبان ولا كنائس ، إنما النضال ضد الامبريالية ممثلة ببريطانيا هنا (في التيبت) وهناك في اليمن ـ نضال أيضاً . كما سنرى .

لماذا يبدو وجها موسليني وتشمبرلان عابسين ، وقد ملأت فزاعتهما الضخمة ؟ . ولماذا يبعث على الغثيان سماع الأحاديث التي تبث من الراديو ومن سيارات النقل الدعائية المارة ؟ .

هل لأن الكلمات ليست كافية ، ولما لا يصنع صباغ اللوحات ، التي يمكن أن تعكس عظمة عصرنا ولو بقدر ضئيل ، عظمة تلك الظاهرة التي يعبر عنها بكلمة واحدة " « الثورة » .

الا أنه ، حين تكون موجوداً هنا في داخلها وتشكل جزءاً لا يتجزأ منها لن تشعر ولن تفهم هذه العظمة بكل كمالها ، وعندما تكون طائراً في منطاد غالباً ما تشعر بالغثيان ، أو ترى غبار الحجرة ، تنسى أثناء الطيران احياناً أننا نحن والمنطاد في الفضاء الواسع النقي ونطير في الفضاء المزوق بثبات . ومن المفيد أحيانا أن تبتعد مؤقتا ، وتنظر لما حولك من بعيد لكي تشعر بالقوة كلها وتحيط بشمولية ، وجبروت وعظمة وطنك وحكمك .

... نمر في الساحة الحمراء ... يبث مكبر الصوت التحية من المنصة .

اتحدث مع الرفيق المسؤول عن سفري ، مستوضحاً بعض الإجراءات العملية التي يجب إجرائها قبل السفر ، أين أذهب ، ومع من أتحدث ، وما هي القضايا الأكثر أهمية التي يجب استيضاحها وفجأة ومن غير توقع يضيف محدثي بسخرية

ـ على كل جميع هذه الأشياء التافهة ، الشيء الرئيسي ، أن تزاحم وتزاحم وتزاحم (كان يقصد إجراء الاف الشكليات البيروقراطية الصغيرة المتعلقة بالسفر) ـ هذا أصعب شيء لأنه بدون ذلك سيكون الرحيل مستحيلا ، مهما كانت أهمية هذه الرحلة .

وقد زاحمت . وخلال يومين أو ثلاثة أيام مررت على كل ما يخطر على البال من اقسام وفروع الأقسام ومكاتب وإدارات ... الخ ... الخ . وفي اليوم لأخير فقط وعلى عجل ، وبغير

انتظام تبادلت الأراء مع البعض حول بعض الأشياء . هذا ليس مهما ' وهل يستحق الآن أن يتذكر المرء صغائر العيوب النواقص هذه بعد مرور بعض السنوات ، سأقول فقط ، انى لم أتمكن من بحث كثير من القضايا الهامة ، كان كل ذلك محجوب بركام من المشاغل الأكثر أهمية ، التأشيرة ، التذكرة ، الجواز ، التقارير ، الأوراق . وبحر بكامله من القضايا التى يغرق بها ، والشيء المهم الذى كان لابد من البدء به .

لكن « الأمور الجيدة ، تكون نهايتها جيدة » كما يقول المثل ، وان لم يكن صائباً كلياً ، ولا يخل به بعض التعديل وإعادة النظر .

هرج ما قبل الرحيل

يوم الرحيل : يكون نصيب الأسد من الأعمال فى هذا اليوم ، دائماً ، ننهى آخر الأعمال حتى قبل الركوب ، تمر على آخر مؤسسة فنصل إلى المحطة قبل خمس دقائق من تحرك القطار .

أوديسا الأم ... تستقبل بالمفاجآت دائماً ، وما أن وصل قطارنا إليها ، حتى أشعرنا بأن باخرتنا لم يبدأ بشحنها بعد وإنها ستتحرك بعد بضعة أيام فقط ، ولهذا نستطيع الراحة والتمتع بمناظر أوديسا .

لكن لا رغبة فى التمتع ، تجول الأفكار بعيدا ، تبدو أوديسا محطة مؤقتة ليس إلا ، اضطررنا ببدء التوقف فيها من غير توقع ، وهنا كانت بداية تعرفنا على شبه جزيرة العرب ، على كل حال . وكان أول من قابلنا بهرج من سكان أوديسا هم أبناؤها قالو لا شيء فى ذهابنا إلى شبه جزيرة العرب > لأن أوديسا مليئة بالعرب ، زد على ذلك ، يجب التفكير بوجود مضاربين ومهرب واحد مقابل كل أوديسى ، وعندما مررنا على وكيل المجلس الشعبى للشئون الخارجية ، اتضح إنه قد غادر إلى المدينة المنورة » لا أقل ولا أكثر .

هكذا كان الرد على سؤلنا المستغرب ، متى وعلى أية باخرة مسافر إلى « المدينة المنورة » (*) ، نعلم إنه غادر قبل نصف ساعة على الترامواى ، لأن المقصود « بالمدينة المنورة » (*) معهد الطب لا أكثر حيث يعمل فيه هذا الوكيل بجهد كبير ، ولكى تكتمل معلوماتنا عن شبه جزيرة العرب ، تعرفنا على قلعة ضخمة ذات طابع عربى فى ضواحى المدينة أيضاً ، لقد حبست المئات من النساء اللواتى إختطفن بالقوة فى هذه القلعة ثم تم بيعهن إلى تركيا

(*) لقد تلاعب المؤلف بالفاظ هنا حيث يقصد « بالمدينة المنورة » اختصار الكلمات المكونة لمعهد الطب .

السلطانية في الظلام ، لقد كن مادة دخل من الدرجة الثانية للتصدير الرأسمالي . ومن القلعة تتراحى الاعلانات الصارخة بيشيتريست المدرجة في مقاطع اعلانات المسرحيات الكلاسيكية المعروضة ، يظهر أحد الصحافيين ذي الخصائص الأمريكية الحقة ، أثناء مناورات الجيش الأحمر وقد تسلل إلى مقر القيادة العامة باحتيال غير مبال بالصعاب ، فارسل البرقيات إلى جريدته متفوقاً على زملاء مهنته في العاصمة ، لا تخطرني الآن كل معالم ومشاهد أوديسا ، كما لا أضمن اطلاقاً صحة ما ذكرته أعلاه ، وربما كان ذلك في جزء كبير منه ثمرة ابداع الخيال الأوديسي .

وأخيراً ، تصبح الباخرة معدة للشحن ، ويوم التحرك محدد ، لكنه يتضح فجأة عشية ذلك اليوم أن (هذه حادثة عديمة الوجود في واقعنا) ، يفترض أن تتحرك الباخرة بدون تأخر وحتى قبل الموعد المحدد بيوم وليلة ، ثم تبدأ جلبة وحشية ، مهاترات وقذف شتائم ، وصراخ ، وبرقيات التهديد الخ ... الخ . حتى وصل الأمر إلى الاستغاثة بهيئات المركز ، ترفض الإدارة شحن البضائع الموجودة على الرصيف ، بشجاعة تستحق الاعجاب ، وبعد سلسلة من المهاترات ، ومن الرفض والأوامر وكومة من البرقيات فقط كان ممكن لوكلاء الأسطول التجارى السوفياتي أن ينهوا عملية الشحن كيفما اتفق بعد أن بحت أصواتهم وانهكت قواهم ، وقد اختلطت البضائع ببعضها البعض ، حتى إنه لم يتسنى شحن أكثر من خمسة وسبعين بالمائة من البضائع المعدة للشحن ، لماذا كل هذه الجلبة ؟ وصلت برقية من القسطنطينية في اليوم الأخير تطلب سرعة الوصول بحزم ، وذلك لأن ما يقارب ستمائة من الحجاج ينتظرون باخرتنا هناك ، وفي حالة تأخرها سيستقلون بواخر أجنبية .

وبالطبع ، تنظف الباخرة حتى مطلع الفجر ، وتوقع الأوراق الأخيرة على عجل ، وأخيراً يرفع السلم ، تسكب الشمس أشعتها على ميناء أوديسا ، وتتحرك الباخرة ببطء وينصرف الجميع إلي حجرهم منهكي القوة ، ولا يختفي ذلك النورس الطائر وراء السفينة لمدة طويلة عن الخلفية الزرقاء لكوة الغرفة .

وهكذا ، نبحر فاتحين بلداً جديداً ـ اليمن للتجارة السوفياتية ـ حيث لم تمر ولا سفينة واحدة ، وحيث لم تطأ أرضها قدم سوفياتية قط ، بل ولا قدم من روسيا القديمة (*) . لم تكن

(*) يظهر أن المؤلف لم يكن على علم برحلة سكالوفسكي في أعوام (١٨٦٩ – ١٨٧٢) وإبحاره في البحر الأحمر وزيارته لموانئه وجزيرة بريم وعدن ورحالة روس آخرون في القرن التاسع عشر . (مزيد من الاطلاع راجع بيلوغرافيا اليمن في الاستشراق السوفياتي ـ د. قائد محمد طربوش ـ مطبعة دار السلام ـ دمشق ـ ١٩٨٥) .

حمولتنا كبيرة ويعد أبعاد ما لم يتسنى شحنه من البضائع ، تكونت حمولة الباخرة من سبعين طنا من الدقيق ، ستين طنا من السكر ، أربعة وخمسين صندوقاً من الصابون ، كبريت ، مواعين وأواني ، وأشياء صغيرة أخرى ، كانت الحمولة الأساسية متجهة إلى الموانيء الجنوبية في فارس ، إلى جدة ـ الميناء الرئيسي للحجاز ـ نقلت الباخرة ما يقارب مائة حاج ، هم في الأساس من الإيرانيين المارين ترانزيت ، وثمانية من تتار استراخان .

واسم الباخرة « تيودور نيتقا » (وقد سميت باسم المراسل الديبلوماسي الذي استشهد في لاتفيا) وقد كان اسمها سابقاً « تغير » ، لقد كانت الباخرة تقوم برحلات بين كامشاتكا وفلادي فاستوك . كانت الباخرة معدة للرحلات القطبية ، لهذا كانت التدفئة البخارية تعمل آلياً بدون توقف ، مدفئة بذلك جميع زوايا الباخرة بغض النظر عن درجة الحرارة خارجها ، ولا توجد فيها لا مراوح ولا حمامات مياه عذبة ، لقد كانت الباخرة على استعداد قطبي كامل ، وكانها ذاهبة لاكتشاف منطقة القطب المتجمد الشمالي ، في حين أن الباخرة قد توجهت في رحلة استوائية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسي ، إلى أكثر المناطق حرارة ، وفي أكثر أوقات السنة قيظا » .

وعلى كل ، لم نشعر بالحر في البحر الأسود ، إذ مازال الجو بارداً ، وقد كان مراً الاضطجاع في الحجرات المدفأة من الموقد دائما ، ولا توجد ضرورة للحمام البارد أو المياه المعدنية ، وكنا ما نزال نأخذ راحتنا من ضجيج ما قبل السفر .

اما أولئك الحجاج ، فقد كانوا ممتلئين بروح الإيمان القوي ، يصلون خمس مرات في اليوم ، كانوا يقفون على السجاجيد يولون وجوههم نحو الجنوب ، صوب مكة ، يعدون أغذيتهم على قدور الفحم ، وكأنصاف عميان يتسكعون على الباخرة ، وكان الكثيرون منهم يخرجون من محيط قراهم لأول مرة ، ولأول مرة يرون البحر .

ليلاً ، نصل إلى البوسفور ، تبدو باخرتنا كأنها مرسى بحكم وجود الحجاج على ظهرها ، والنزول إلى الشاطيء محرم على الجميع ، وليس للباخرة هناك من أعمال في اسطنبول ، وكان من الممكن المضي قدما بدون تأخر ، لكنه من المفترض أن يكون هناك ستمائة من الحجاج الذين ذكرتهم البرقية ، توقفنا في بيوك ديريه وهو موقع حجر صحي في مدخل البوسفور .

تضج سلسلة المرساة ـ ويصل الطبيب التركي إلى الميناء ، وان كان ليس بمقدوره ان يقول شيئا عما إذا كان هناك ركاب الباخرة ـ وكان من الواضح أن باخرتنا تبعث بعض الحيرة وعدم الفهم .

وقفنا حتى الصباح ، نسمع عبر المذياع الأنغام التركية ، التى حلت محل إذاعة موسكو الخافتة ، هذه الإذاعة تنبئنا بأننا ابتعدنا عن الوطن ، وبأننا خلفنا وراءنا الاعلام ، اللافتات ، الشعارات ، الأحاديث عن الاشتراكية لمئات الكيلو مترات ، وخلفنا المصانع التى تبنى والجرارات التى تزحف فى عموم الوطن ، لا تتحدث إذاعة اسطنبول عن الاشتراكية والثورة العالمية ، إنما تتحدث بالأنغام الحلقية ، بالأنغام الشعبية ، التى تختلط بأصوات موسيقى الفوكستر (*) ، تذكرنا بأن الامبراطورية العثمانية القديمة ، الممجدة لله ، والمانعة للفرح ، لم يعد لها وجود ، ان أصوات الأنغام الشعبية فى اسطنبول تنبىء بأن حياة القرون الوسطى ، وتسلط الفقهاء ، والظلم باسم الدين ، صار من حكم الماضى وتنقرض مع كل يوم .

أوديســـا

ظهر ممثل الأسطول التجارى السوفياتى على ظهر الباخرة ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، مما يعنى عدم وجود حجاج هناك ، ولهذا فعلينا أن نبحر قدماً ، لقد سافر آخر الحجاج قبل ثلاثة أيام ، أى قبل ذلك الاستعجال والاضطراب بلا سبب فى أوديسا .

لماذا إذن كل تلك العجلة والاضطراب ؟ ولماذا خلط البضائع وعدم شحن كل الحمولة ، ولماذا المهاترات والاتصالات و . . . الخ ـ الخ . ولماذا بقينا هنا طول الليل ولم نمضى قدما ؟ لم يلتزم أحد بالجواب على كل هذه الأسئلة فى الباخرة ، اسمع فقط الرد العابس لأحد البحارة ، الذى كان يقرأ الجريدة الجديدة المبثوثة عبر الراديو ، ويعلن عن بداية عملية المنجم » .

لا يزالون يتحدثون ـ المنجم . . .

نبدأ فى التحرك ، يدفعنا تيار البوسفور إلى الامام بقوة ، رغم هدوئه وزرقته الظاهرة ، نرى الروابى الخضراء ، هذه هى اسطنبول ، السور القديم ، المنارات ، أشجار السرو والمنازل ، نرى ستائر النوافذ المفتوحة ، ومنها تطل وجوه النساء السمروات ، التى لايخفيها الحجاب أو الخمائر الشراشف ، نرى على الساحل أشباح نساء فى ثياب أوروبية ، نرى فى المرفأ أصحاب القوارب بقبعاتهم بدلا من الطربوش التقليدى الأحمر ، نميز الكتابة بالاتينية على اليافطات ، ولا نجد أثرا للكتابة العربية المزخرفة والمنمقة .

(*) ـ الفوكستر : رقصة أمريكية ثنائية ظهرت فى العشرينات وكانت مشهورة آنذاك

لكن ليس هناك وقت للامعان في النظر ، ومثل مصاب بالطاعون تمر باخرتنا تحت علم الحجر الصحي الأصفر مسرعة بقرب القرن الذهبي المتعرج ، وبسرعة نلمح الرصيف النصف الفارغ ، قصر السلطان وحديقته ، يذكرنا بأشر خليفة منفى ، ذلك السلطان الذى ظل فى منصبه عام الا اسبوع واحد ، وهو الآن يتسكع فى أحد مصايف أوروبا ، تنتصب القباب الخرقاء لكنيسة « أيا صوفيا » المشوهة ، وترتفع مآذن مسجد سليمان بحدة إلى أعلى .

نحن نعرف أنه لا تدور فى أماكنها أفواج المعاقين والبائسين والحجاج قرب هذه المساجد كسالف الزمان ، أولئك الحجاج ، الذين يقومون بالتطهر تحت حنفيات المياه ، نحن نعرف أنه حتى أيام الأعياد تجتمع بالكاد تحت الأقبية المظلمة بضع عشرات قليلة من العجزة والهرمين أو بعض السياح الفارغين والمتعطلين ، الذين يتطلعون إلى حلقة مثبتة فى عامود ، يزعم بأن حصان السلطان الذى فتح العاصمة البيزنطية المتفسخة فى عام ١٤٦٢ م قد كان مربوطا بها ، نتفرج على المساجد الباهرة الألوان وندرك بوضوح بأنها مع قصور المرمر ليست سوى شظايا وبقايا السفينة العثمانية التى حطمتها عاصفة الثورة ، نحن ندرك بأن العاصفة لم تنتهى ، وقد هب أعصارها الأول ليس إلا ، هذا الاعصار الذى حطم أسس الاقطاعية والنظام الاستعمارى فى آسيا الصغرى ، مخلياً بذلك المكان لقيام دولة قومية (لم تزل برجوازية بعد) مستقلة ، نحن ندرك بأن الاعصار التالى لن يكون خلف الجبال ، وما الثورة القومية السابقة سوى فاتحة انتصار عمالى مظفر ، ونعلم أيضاً أن الاعصار الهادر الأول قد كان صدى لأيام أكتوبر ، والتى بدونها كانت الامبريالية الروسية قد داستها بأعقابها . ولربما كان صليب الطمع منتصباً الآن على كنيسة « أياصوفيا » . ولهذا عندما تلقى نظرة خاطفة على تقاسيم ومعالم شواطىء تركيا الجديدة ، تتمثل لك بكل قوة ووضوح ، كيف أنه وأنت بعيد جسدياً عن أعماق فوهة البركان الثورى ، تشعر وأنت على بعد أكثر من خمسمائة كيلو متر من شواطىء الوطن ، ترى بصيص ولمعان وهج ثورة أكتوبر ، التى اشعلها عمال بتروجراد (لينين جراد حاليا) وموسكو هذه الشعلة التي لم تبلغ ذروتها بعد ، وان كانت قد أدركت أن تشتعل النار فى ركام مخلفات الماضى ، مجددة للشرق محيطة ومفككة دعائم وأركان القدرة الامبريالية المهتزة ...

اسطنبول من المنظار

لكن لا وقت للتفكير ، أبحرت باخرتنا بعيداً وصارت فى الخلف قباب كنيسة « أيا صوفيا » وآخر ضواحى اسطنبول المترامية الأطراف يدى كولى » ، « سان شيفانو » ، أبحرت باخرتنا

على السطح الرخامي للبحر المنقوش قليلاً ، وبدأت تهب أشباح « جزر برنتس » على اليسار - مصيف برجوازية اسطنبول ، وهو المكان حلم الرئيس ولسن أن يعقد فيه صلح وهدنة بين البلاشفة والبينيكيين (*) ، وتحت غطاء هذا الصلح الخيالى يتم إعطاء فرصة للبيض بتجميع قواهم وجعل جنوب روسيا القديمة مستعمرة للامبريالية ، ولتذهب أشباح تاريخ الماضى إلى الشيطان ، هيا إلى الامام .

يقترب اليوم من نهايته . . .

للمرة الأولى نراقب غروب الشمس فى البحر ، ويبد مدخل الدردنيل بعيدا ، نظيفاً ، مكتملاً بقرص الشمس ، الذى يتحول تدريجيا إلى شكل معين يتقلطح وكأنه تحت ضربات مطرقة خفية ، ويصير هذا المعين دقيقاً ويأخذ شكل قطعة مستطيلة ، مقلمة وحارة ، هناك يخترقه سلك صارية سوداء ، لباخرة حراسة بعيدة تتمايل على الأمواج ، ها هى قد صارت اسطوانة صغيرة متوهجة ، نقطة صغيرة من نار ، تغيب من السطح الأحمر المتلألىء فى البحر المتوهج .

نعبر الدردنيل فى الظلام ، ثم نستيقظ فى الصباح قرب جزر تينيدوس ؛ وفى الخليج الصغير تنتصب صوارى باخرة غارقة تحت الماء ، هى واحدة من شواهد الحرب ، المبعثرة فى كل البحار ، مثل هياكل الحيوانات الهالكة فى البرارى .

* * *

(*) الدينيكون : هم أحد القوى المناوئة للثورة الروسية .

الباب الثانى

* على أمواج بحر إيجه
* والبحر الأبيض المتوسط
* رجال التفتيش
* بور سعيد

على أمواج بحر إيجه

يتغير الطقس ، والصيف يسرع ملاقياً ، مازلنا ننام في الحجرات ، وإذا كانت النوافذ مفتوحة دائما ، يصير التفكير مفزعاً بما سيكون بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ونتعود على حياة الجماعة المبحرة قليلاً قيلاً .

وحتى هنا لا مهرب من الشكوى من سوء الإدارة التبيير ، الأخطاء ، وعدم الاهتمام ، روح الاستهتار ، والمخالفات ، يشكو البحارة من تعقيد وتشوش عقد العمل الجماعي ، المليء بالتلاعب والحيل التمويهية ، وعلى العكس من ذلك تشكو هيئة القيادة وتتذمر من عدم تخويلها السلطة ، من التعسف والجور الناتج من خلط الصلاحيات والاختصاصات للأقسام المختلفة « للمثلث » . لكن الجميع يسب بصوت واحد مكتب أوديسا للأسطول التجاري السوفياتي بسبب البيروقراطية ، سوء الإدارة ، التشوش في العمل ، والجهل بمعرفة العمل البحري ، وما كان علينا إلا أن نشعر ولو بجزء من هذه الحقيقة ، وذلك لأننا قد أدركنا أن نجرب بأنفسنا مدى ثقل وبلبلة وخلل أوديسا ، وبالكاد لم تفشل رحلتنا .

لكن أفكارنا كانت تسبح بعيداً ، نغمض أعيننا غريزيا ، نحاول أن لا نشغل بالنا ، بالثمالة المذكرة بالبلبلة الإدارية ، الأفكار بعيدة ـ هناك ، القضية في اليمن ، حيث تعود مركبنا السوفياتي أمواج البحار والثورة لأول مرة ـ نقعد نطالع قواعد اللغة العربية ، ونقرأ الكتب الأجنبية عن شبه جزيرة العرب ، ونشعر مسبقاً بذلك الارتياح المرتبط بذلك التصور المثالي ، الذي كوناه عن طريق الكتب والأحاديث ، ونقارنه بذلك التصور المحدد والملموس عن ذلك البلد الذي ستأتي رؤيته .

تنزلق الباخرة بمحاذاة الجزر المخضرة في بحر إيجة ، تلك الجزر التي كانت مراكز ثقافة قديمة من سالف الزمان ، وهذه الجزر الآن نصف منسية ، تخاطفتها مختلف القوى الكبيرة والصغيرة أجزاءاً ، وأقساماً ، نشاهد تضاريس الجزر الخضراء ميتلينا ، هيوس ، رودس ، ومجموعة أخرى كانت مشهورة في القدم ، تلك الجزر التي لا يعرف أسماؤها الآن حتى قبطان الباخرة ، ويقرأ أسماؤها بصعوبة على الخرائط البحرية القديمة .

لم يمض أسبوع بعد على أبحارنا ، الغذاء جيد (احتياطي أوديسا) والمياه العذبة متوفرة ، ولا يشعر المرء بقيظ الشمس إلا بجانب الموقد ، ينام الحجاج بهدوء في عنبر

السفينة ، على أرضيات خشبية معدة خاصة لهذا الغرض ، وفى الصباح فقط يزحفون إلى الخارج ، وفى الفجر تحدث مشاهد مرعبة ، فى أعماق العنبر عشرات الايرانيين الوقورين ذوى اللحى القصية ، والعمائم البيضاء على رؤوسهم يستمعون إلى الامام بعيون مغرورقة ، يروي الامام بصوت متهدج باكي للمستمعين تواريخ معروفة حتى فى أدق تفاصيلها عن تاريخ ومعاناة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وحول حياة صهرالرسول بشكل خاص ، ورغم أن الراوى قد كرر وأعاد تكرار هذا التاريخ مئات المرات ، ينصت إليه المستمعون مئات المرات ، ومع ذلك يرون أنه لزاماً عليهم ، البكاء والتشيع بصوت مرتفع ، أو يخرجون مناديلهم ويضعونها على عيونهم مصدرين أنات عميقة على الأقل .

والبحر الأبيض المتوسط

نخرج إلى البحر الأبيض المتوسط ، نترك فى الوراء شال رودس ، آخر جزر الأرخبيل فى هذا الطريق تحس نسمات سواحل أفريقيا ، يرتفع زئبق ميزان الحرارة إلى أعلى ، وقد بسط قماش، شراع السفينة الواسع فوق برج القبطان وفوق سطح السفينة ، يصف البحارة القدامى قيظ وحر البحر الأحمر .

نشعر بالملل فى عرض البحر ، وبرامج الراديو الغنائية توقفت ـ تفريغ ـ يوضح عامل الراديو ـ ولنتأكد من صحة ما يقوله ، ويكفينا قناعة ، من أن البرقيات الموجهة إلى الاتحاد السوفياتى تصل بنفس التعريفة الداخلية ـ سبعة كوبيكات على الكلمة الواحدة ـ (وهذا سعر رخيص مقارنة بمرتبات الخارج) .

تسير الأمور في مجاريها ، كل صباح ـ مثل موكب أسطورى ـ كأنه نبتون ، يظهر رئيس النوتية نصف العارى ، والغليون بين شفتيه ، وطرف الخرطوم الضخم الذى يلف الباخرة كلها بين يديه ، يتبعه خمسة أو ستة من مساعديه ، بمكانسهم يكنسون الماء السائل على سطح السفينة ، يوجه رئيس النوتية تيار الماء القوى فى كل الاتجاهات ، وجهة رصيفنا باستمرار ، ويصير جامداً فى تلك اللحظة ، التي يكون فيها سيل الماء ، وكأنما صدفة ، قد غطى المسافر المذهول من رأسه حتى اخمص قدميه .

أجراس الباخرة تقرع ، يتبدل المناوبون ، يحاول القبطان ومعاونوه تحديد اتجاه الشمس بواسطة الآلة السدسية وينقبون فى التقاويم والجداول ، محاولين تحديد وقوع الباخرة ، يركض البحار المناوب بانتظام بين مؤخرة السفينة وبرج القبطان مخبراكم من الأميال سجل عداد سرعة السفينة ، ينتعش مجلس السفينة والخلية الحزبية ، تبدأ الاجتماعات ، التقارير ،

الجلسات مع الإدارة ، تهتاج الجماعة بشكل جماعي أو كل حدة ، ساخطة على تشوش الاتفاق الجماعي ، يتناقش البحارة حول ظروف الابحار ، ويحلمون بالمشتروات من بورسعيد ، والحجاج قلقون ، هل سيصلون إلى جدة في ٢٤ مايو ، آخر فترة ، حتى لا يتأخرون عن بداية الحج في مكة ، تختفي الأبقار والدجاج تحت سكين الطباخ ، ويصبح أكثر بخلا وحسبانا ، منقصا جراية الغذاء ، يصير النهار أقصر والليل أطول والشمس أكثر علوا وحرارة وتصير أنسام أفريقيا أقوى .

وبعد خمسة أيام في الطريق من استنبول ، ها هو يرتسم بعد الظهر من بعد خط الأرض الأغبر الخالي من الجمال ، تبدو العومات الحمراء المتمايلة على الأمواج والتي ترمز إلى مدخل قناة السويس ، يخلو الساحل الأفريقي من التأثير ، ففي حين أن سواحل آسيا الصغرى تبدو للعين قبل أكثر من عشر ساعات من رمي السفينة مراسيها ، فإن سواحل شمال أفريقيا لا تبدو قبل بضع ساعات من المرفأ .

ومع هذا ، حين ترى الخط الأول المبهم ، تتوارد تصورات الصبا المستوحاة من روايات جول فيرن فنطازيا هاجارد وبينوا ، فتتصور الصحارى ، الواحات ، القوافل ، رياح السموم ، الأسود ، النيل ، الفراعنة ، أبا الهول ، الأهرام ، المومياء ، غابات النخيل ، البشر السمر الغامضين ، القرود بأنواعها اللامحدودة ، وهناك في مكان بعيد في الجنوب البارد عواصف الصراع البطولي ضد المارد الانجليزى (*) .

نحن نعلم بالتأكيد ، إنه لا يمثل الآن « القبطان ابن الخمسة عشر عاما » (**) ، الذي كان يمكن أن يذهب بمركبه إلى سواحل أفريقيا بدلا من أمريكا الجنوبية ، ويقود بدون إدراك طاقم السفينة والمسافرين ويعبر القارة ، إذ من المعروف أن طرق السيارات قد شقت في الصحراء ولا وجود في الأخيرة لبقايا أرض « أطلنطا » التي تنسجها الخيال ، وقد نبشت ونهبت مومياء الفراعنة ووزعت في مختلف أنحاء أوروبا ، وقد اقفرت الأهرام وانتهكت واحاط بها خط الترام ، وقد احصيت الزرافات ، وجواميس النهر والفيلة وتحولت إلى بضاعة ، وتعيش آخر أيامها في الأدغال العميقة ، بينما أخذت البرجوازية هيبتها من الانجليزى المحتل ، سائرة في ركابه بخضوع ، وبمشاركته ، تقيم السكان معالم التحضير ، نعلم أن أفريقيا كلها محاطة

(*) هذا تصوير لبعض مواضع من روايات جول فيرن .

(**) بطل رواية خيالية بنفس الاسم للروائي الفرنسي الخيالي المشهور « جول فيرن » .

بعنكبوت ، الامبريالية ، التي تمتص عصيرها بدون رحمة ، وتعطيها بدلا من ذلك السفلس والويسكي والكرباج ، نعرف بأنه قد بدأ النسيج العنكبوتي يتمزق في شمال أفريقيا ، في المغرب والجزائر وتونس وبرقة ، وفي مصر حيث نقف الان وليس في المقدمة لا أبو الهول ولا مومياء الفراعنة ، وإنما النضال الذي لا هوادة فيه ضد الامبريالية والانجليزية ، هذا النضال المربوط بعقدة حديدية ، مجسدة بمنابع النيل (العصب الاقتصادي الرئيسي) ، الذي يحكم الانجليز قبضتهم عليه ، يغرقون بالدم الوطن الذي هب منتفضا ، نعرف إنه ليس هناك رومانسية ـ وإنما هناك واقع النهب الامبريالي القاسي ، تزلف وخيانة البرجوازية المحلية وعجز الفلاح المسترق . كل هذا نحن نعرفه ، ومع ذلك (فإن طبيعة النفسية المغامرة) تأمل بأنه مازال هناك مكان ما يحتفظ برومانتيكية ، وإنه من المفترض أن تبدو أفريقيا هذه خاصة ومميزة ، التي نراها لأول مرة ، لكن في عدسة المنظار الباردة والمنصفة يبدو الخط الأسود والحاجز لأمواج الحجري وتحرق رؤوسه الحادة سطح بعيد عن العوامات الحمراء ، تبدو أدخنة البواخر ، أشباح الجرافات ، وشواطيء السباحة ، تمثال ديلسبس باني القنال ، اعلانات الويسكي والكازينو الضخم ، بورسعيد إلى الآن هذا كل أفريقيا ، ويختفي سراب الرومانتيكية .

رجال التفتيش

نتبع التعليمات الدقيقة للمرشد البحري الذي قدم إلينا في الوقت المحدد إلى متن السفينة خاصة ، تقف الباخرة قريباً من المدينة ، وراء حاجز الأمواج الخشن ، وكدود العلق تحف بنا ، الزوارق البحرية المليئة بالمصريين بطرابيشهم الحمراء والشرائط المقصبة الخضراء ، هؤلاء هم المفتشون وكلاب الحراسة للشرطة الانجليزية ، لكن بقومية عربية ولباس مصري (بينهم المالطيون ، الذين يكلفهم الانجليز بالادوار الدنيئة) ، تلف الزوارق البخارية ذهاباً وإياباً ، وكأنها خائفة من أن يتسلل راكب صدفة ، أو يسقط « منشور » ، يصعد بعض المفتشين إلى سطح السفينة وراء طبيب الحجر الصحي ، يفتشون المكان وينظرون حتى في الحجرات ، يوزعون الأدوار ، من يتابع من ، ورداً على احتجاجنا يلوي الطبيب الإنجليزي الرصين كسمه عنا بوقاحة ، معلنا ، بأنه لا علاقة لبريطانيا بكل هذا ، وأن الحكومة المصرية هي التي ابتدعت هذه الضرائب ، هم يرون في هذا رمز « الاستقلال المصري » ـ ستار التعسف الانجليزي ـ المنشفة التي يمسح بها عملاء اسكتلنديار القذرة والدماء من على أيديهم .

أتذكر كيف كانوا يلفون ذهاباً وإياباً هؤلاء الناس التافهون الجوهر بطرابيشهم الحمراء ، كيف كانت تصير نبرتهم لطيفة متزلفة عندما يكونون وحيدين معنا ، بدون رقابة رقيب ، يقترب

من الباخرة صندل الفحم وصهريج الماء ، العمال المصريون ـ ناس سمر صافيون ، يهزون الثقالة الخشبية ، يركضون إلى ظهر السفينة ، يحملون على رؤوسهم سلال الفحم ، يتلقفون باعجاب السجائر والخبز ، المقدم من بحارتنا رمزاً للصداقة والتضامن .

تظلم السماء الساطعة بسرعة ، وتشتعل المدينة بآلاف الأضواء ، تلون بلمعانها القنال ، الساحل ، والقسم الأوربي بمستودعاته ومخازنه والصاخب بالعربدة البحرية ، الكازينو وبيوت الدعارة ، في حين يهمد القسم العربي البعيد لبورسعيد ويختفي في الظلام ، تنهال آخر سلال الفحم ، ويوصل الوسيط النشيط للبحارة الأشياء الموصى عليها ، مضاعفا السعر مرتين عن سعر السوق ـ تمنع من النزول إلى ميناء بورسعيد أو إلى أي ميناء مصرى آخر ، ولا يسمح للبحارة السوفييت أن يضعوا كشافاً في مقدمة الباخرة ، حيث يصل مرشد بحرى خاص لإرشاد الباخرة وعبر كل القنال وفى هزيع الليل الأخير نتحرك .

تتهادى الفنارات الكهربائية الضخمة بهدوء فوق مياه القنال ، وتنزلق في الظلام الأشباح المسودة للرافعات ، الجراقات ، البواخر ، الصنادل ، وبعدها يختفي كل هذا ، تسبح الأضواء بعيداً إلى الخلف ، نمر على السطح الضيق المرن ، وتنطبق بوابة البحار ، التى تغسل شواطئنا السوفياتية (ولو عبر المضائق) ، لم يسمح لنا بشراء الصحف ، لا يسمح البوليس بدخول الصحف ، ولا حتى بالصور إلى متن الباخرة ، وهكذا لم نعرف كيف انتهت الانتخابات الألمانية ، وهل احتلت بكين من قبل الجنوبيين وما هى قضية المناجم ، نحن لم نعرف عن هذا إلا بعد شهرين فقط ، عندما تصير هذه الأحداث من أحداث الماضى البعيد .

انغلقت النافذة من الخلف ، ندخل وكأننا في فتحة موقد بعث فيه قيظ من جهنم .

الفجر ، سطح البحر ضيق وكأنه ليس أوسع من شارع ، يتموج من مروحة الباخرة ، يواصل تجعداته حتى الشاطىء ، وعلى جانبيه ـ مسافة صفراء لانهائية ، على الشاطىء الأيمن فقط تظهر نباتات قليلة محاطة بسور ضيق ، ينزلق تيار الماء كأنه زجاج بين الأصفر ، يتلألأ الماء تحت الشمس يقيس بدقة أعمدة الكيلومترات المحددة وعلى الشاطىء الأفريقي تتعرج طريق السيارات وخلفها خط سكة الحديد ، بورسعيد ـ السويس ، وتظهر أدغال متفرقة بعيدة ، تتكشف منازل عمال القنال بشكل دورى وبشكل نظيف ومحاطة بالحدائق وملحقاتها ، الأعمدة الهوائية ، الأرصفة ، وساحات كرة المضرب وأحيانا تبدو على الطريق سيارة مسرعة ، ونادراً يضج قطار ذى عربات كثيرة على خط سكة الحديد . يظهر الموظفون المهمون في الحدائق ، والأطفال يركضون يغنون الأغاني ، يندهش البحارة ، الذين كانوا هنا قبل الحرب ، من ظهور

المنازل ، الأدغال ، والجنائن في الصحراء القاحلة « هذا ليس الا ديكور ـ وواجهة للاستغلال الرأسمالي » .

وعلى اليسار ـ الساحل العربي ـ لا يوجد فيه خمار رخيص ، هناك الحقيقة القاسية العارية ، بحر الرمال القاحل الخالي من الحياة ، لا عشب فيه ولا شجر ، تبدو فيه نباتات حسكية هنا وهناك فقط ، لا توجد فيه منازل ، تظهر أكواخ سياج يزحف منها أناس سمر عراة في بعض الأماكن يقومون بالعمل ، هؤلاء هم عمال تنظيف وخدمة القنال كل يوم ، ولولا ذلك ستغطى القنال بالرمال .

أنصاف عراة في أسمال بالية يلتحقون جماعات ببعضهم ويبدأون العمل ، وعلى طول الساحل يطوف المشرفون الانجليز بأغطية الرأس الفلينية التي لا تفارقهم ، يمتطون أسرجتهم بشكل تهديد ، يصرخون بشيء ما على السكان الأصليين ، نرى كيف يشدون على الكرابيج في أيديهم ، ولا صورة للمنازل والحدائق هنا ، هذا شاطىء عمالي لا يرى هؤلاء « المتحضرون » ضرورة للاهتمام به .

القنال مريء الاقتصاد الاستعماري الأوربي ، تشق فيه السفن طريقها يوميا ، ليل ونهار ، في ضوء الشمس المحرقة والليل الرطب الخانق ، تمر عشرات السفن البخارية والمراكب الشراعية وبواخر الديزل ، سفن البضائع وسفن الركاب ، حاملة النفط ، تحت كل الأعلام ، ارتالا تشق طريقها وسط الزحام عبر هذه الفوهة ، صبابة البضائع الصناعية من البلدان المستعمرة وبالعكس تأخذ المواد الخام إلى معامل التصنيع في أوربا .

شاي سيلاني ، أرز صيني ، قطن هندي ، لحوم وصوف استرالي ، مطاط وكاكاو أندونيسيا ، نفط ايراني وبورنيو ـ كل هذه الخامات وانصاف الخامات المنهوبة بالعنف ، بالخداع والتهديد من شعوب الشرق ، تجلب من كل البحار والمحيطات وتمر عبر مضيق باب المندب ، ومن هناك تمر عبر البحر الأحمر ، وتصب في فرسخ السويس الضيق ، ومنه تبحر إلى الجسم الصناعي في أوربا .

الهواء حار ، أكثر من ثلاثين درجة في الظل ، يبدو الهواء وكأنه مشبع بالعطور ، الكميات الضخمة من الثروات البحرية ، الممتصة من دم الملايين من الجماهير الكادحة ، كأنها ظلال وأشباح هؤلاء المعذبين المنهكين بما لا تتحمله طاقة أعمالهم ، أولئك الناس الموجهة إلى صدورهم الرصاص ، المطعونين في الصين ، والملايو وأندونيسيا ، العبيد وأنصاف العبيد الصفر والسود والبيض ، تراهم يحومون حول ارتال السفن كسلسلة مستمرة في الشريط الضيق للقنال التي يستطيع الطفل سباحتها .

بيد أن هذه المليارات من الثروة السابحة عبر الأمواج اللزجة ، تثير وتهيج فقط ، بالاريج غير المألوف في كثافتها ، والصحراء المحرقة القاحلة ، التي تتراجع في عناد لا رغبة فيه أمام مقدمة السفينة . هذا البلد المحروق ينظر لهما بأعين الجياع والعراة والرعاة إلى الثروة السابحة (أكثر من مليونين ونصف شهرياً) لا تبقى لهم منها سوى نسبة تافهة بشكل راتب ضئيل لبضعة آلاف من عمال تنظيف القنال ، كل الضرائب التي تدفعها السفن من أجل عبور القنال (وكانت ضرائب باخرتنا المتواضعة « نيتا » خمسمائة جنيه استرليني) تذهب إلى جيوب المساهمين الانجليز والفرنسيين وغيرهم في شركة القنال ، والنخبة من الموظفين الأجانب الذين يعملون في القنال ، إما الذهب الذي يخرج من جيوب البحارة المتجولين على الرصيف فيتجه إلى خزائن الشركات الأجنبية وبنوك بورسعيد أو تمتصها حقائب الداعرات من مختلف القوميات ، الوافدات من جميع أنحاء المعمورة إلى ميناء (الدعارة) وتظل الصحراء قاحلة محروقة والرعاة جياع عراة .

تثأر الصحراء برمالها فتغطي بسرعة محمومة قاع القنال الدقيق ، وتلتزم عشرات السفن الحفارة كل يوم وباستمرار بأن تصد هجوم الصحراء ، لا يهدأ هذا الصراع العنيد الشرس ولو ليوم واحد ، الطبيعة لا تستسلم ، ويسعى جانباً الشاطئين المفصولين إلى التلاقي بعناد من أجل أن يعم النهب الرئيسي في جسم العدو البعيد اللامنظور .

وعلى خلفية الرمال المجدبة ، يبدأ بحارتنا يعون قليلا قليلا مقدار قوة وثروة الوطن البعيد ، أ هـ ، كم نحن أغنياء ، ولا نفهم ذلك .... ، يتفلسف أحدهم ، مارآً بنظره على الصحراء المفروشة على الجانبين .

هل لدينا مثل هذه الرمال في أوكراينا ، أنها ليست موجودة حتى في الخيال ، ولا يوجد لديهم مكان لبذر الزرع ورعي الماشية .

ـ لا دعك من ذلك ، يمكن رعي الجمال ، لا تقلق هنا من الحسك ما يكفي ـ يفترض أحدهم .

ـ اتحسب الجمل من الماشية ، والبقر والحصان وما شابه ؟ ؟ وأين نذرى القمح وحدائق الكرز التي عندنا .

تنزلق باخرتنا ، وهي ليست سوى حلقة من سلسلة تلك السفن ، التي تندفع أمام الباخرة وورائها وتنقطع أحياناً هذه السلسة ، يمر القنال عبر بحيرتين كبيرتين ، تستخدم البحيرتان

كطرق تفرق وتوزيع البواخر المقابلة ، حيث لا يمكن أن يمر عبر القنال سوى باخرة واحدة ، ولا يمكن أن تفترق باخرتان إلا إذا أرست أحداهما على الشـاطىء ، تستخدم هاتان البحيرتان كنقطة مرور حيث تنتظر القافلة قافلة مقابلة لها وتدعها تمر إلى الأمام .

وفي مكان بعيد ، تلوح المدن العربية الصغيرة بمناراتها البيضاء ، هناك بناء ضخم لم ينتهي بناؤه كتب عليه : « في ذكرى الدفاع عن قناة السويس عام ١٩١٤ - ١٩١٨ » إنه في حقيقة الأمر قد حسمت الحرب هنا بالذات وليس في مارتي أو في فيلي ، إذ لو تمكن الألمان بمساعدة الأتراك من الاستيلاء والسيطرة على القنال ، لكان هذا يساوي انقطاع الصلات بين انجلترا وفرنسا من جهة وبين مستعمراتها من جهة أخرى ، أي أن ذلك يعني متاخمة تحطيم حلف دول الائتلاف ، غير أن هذا لم يحدث ، لقد صد هجوم الأتراك ، وأنقذت مصر بريطانيا ، وظلت العلاقة مع الهند ، والشرق الأقصى ، والعراق وكسبت دول الائتلاف الحرب .

مرة أخرى تصير البحيرة قنال ، ويصب القنال أبعد في بحيرة أكبر ، وأخيراً نتخلص من أبخرة المستنقعات الخانقة ، وتصل الباخرة إلى الفتحة الضيقة بين جبال الرمال الذهبية اللرفحة ثم تسير على سطح خليج السويس .

ميناء توفيق ، وليس ميناء السويس هو آخر نقطة في القنال ، ينفث الهواء بالجفاف المصري ، تشاهد الكورنيش ، وتمثال تقليدي على شرف حدث ما أو أحد ما ، وتبدو السويس في البعيد ، أشباح المنازل البيضاء ، اسطوانات تقطير النفط ، ويبدو مخيم غريب الشكل في البعيد ، تتعرج سكة الحديد ويظهر قطار عربات مسرع ، وبعيداً من السفن المقابلة المنتظر خروجها من القنال ، يسترعي النظر صندوقان حديديان محصوران منذ أمد بعيد ، سفينتا الملك المنحوس الشريف حسين ملك الحجاز ، الذي أطلق على نفسه لقب ملك شبه جزيرة العرب بفضل الانجليز ، وبفضل الانجليز أيضاً وقوة المنتفضين التابعين لابن سعود دحر الشريف إلى قبرص البعيدة ، وكعادة كل الملوك لم يخجل من أن يسرق سفن بلاده قبل الهروب ، ويسلمها إلى غريبة .

وقفة قصيرة ، يترك البوليس ، المرشد البحري باخرتنا ، تصفر الباخرة وخلال نصف ساعة تبدو أسطوانات تقطير النفط البيضاء كأنها نقاط بيضاء مضيئة منعكسة من الهالة الدموية للغروب الاستوائي .

الباب الثالث

* الاختناق فى البحر الأحمر
* الشعب
* الحيتان
* جدة البوابة إلى مكة
* المضاربة بالحج
* وهابيو نجد فى النضال ضد الإمبريالية

الاختناق في البحر الأحمر

البحر الاحمر - أكثر بحار الكرة الارضية حرارة ، وأكثرها بعثا على الاختناق ، وأكثرها خبثا - يمتصنا من جوفه النافث نارا ورطوبة .

البحر الأحمر - طقس إستوائي أي بما معناة ،أكثر مناطق الارض حرارة ، محمي بحرارة الصحراء العربية ، وقيظ المرتفعات الجبلية لافريقيا ، يصير البحر مشبع بالرطوبة الخانقة ترتفع درجة حرارته الى خمسة وثلاثين درجة [في الظل] ، تعصر الجسم كاسفنجة - وكل حركة ، واتفه مجهود يتحول الى تعذيب ، أما النزول من على سطح السفينة الى أسفل ، الى الحجرة التي هي بالاضافة الى كل ذلك مدفأة بأنابيب التدفئة باجتهاد ، تصبح تجربة لا تحتمل على الاطلاق ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولنا الى هذا البحر ، يتغطى الجسم بطفح جلدى أكل ، وذلك نتيجة لافراز العرق المستمر تنعدم الشهية ، تقف المعدة والكلى عن تأدية مهامها ، تنسى بذلك تقريبا عن التذكير بوجودها . ويتحول الجسم بأكمله الى جهاز تقطير يكرر كؤوس وأكواز وإدلاء الماء المشروب إلى سيل من العرق . ولا يساعد الاغتسال على ذلك لان جميع الحمامات في باخرتنا من ماء البحر المالح ، إنه لا يخفف في شيء بل على العكس تحول طفح العرق الى قروح دموية ، يضاف الى ذلك أن الماء في البحر الاحمر خبيثة ، حادة شديدة الملوحة ، كثيرة الفوسفور ، حتى العرب المحليين ، لا يغتسلون بهذه الماء كقاعدة ، وكان هذا نصيب البحارة السوفييت ، الذين يمخرون عباب البحر الاحمر على متن باخرة قطبية ، يغتسلون بالماء المالح ، وما يكادون يلبسون ثيابهم حتى تصير مبلولة تماما بالعرق .

حين نشعر نحن المسافرين بالاختناق ، فاننا نمتلك امكانية أن نضطجع بلا حراك نشرب المياه المعدنية ونستلقي على الاسرة المتنقلة تحت السقيفة في اتجاه هبوب الريح ، لكن من الصعب التخيل ، ماذا يعتمل في غرفة موقدة ، حيث بالمعونة اللطيفة التي تقدمها الاجهزة القطبية ، تصل درجة الحرارة الى خمسين درجة [تقارب نقطة الغليان] ، خاطر بعضنا بالدخول الى غرفة الموقد ، لكنه يرجع بعد خمس دقائق مندفعا منها كالمسلوق ترافقه قهقهة الجميع ، وبعد ذلك لم يصمم أحد على النزول ، لكن لما الحديث عنه ، اذا كان حتى المتعودون والمصقولون في الدخان عمال الايقاد المتمرنين قد سقطوا أكثر من مرة مغمى عليهم ، وسحبوا فاقدي الشعور الى مستوصف الباخرة .

لا يأتي الليل بسهولة ، يهبط الزئبق في ميزان الحرارة درجة أو درجتين ، غير أن الهواء يتشبع بمقدار أكثر من الرطوبة المنذرة بالسوء ، وعند الفجر تكون الباخرة كما لو أنها غسلت

بالماء لا يمكن النوم بدون مظلة ، اذ أن بدونها يمكن الاصابة بالروماتيزم ، أو ما شابه ذلك ، الحجرات مغلقة ، العنابر ، المطعم ، الراديو ، وجناح الراحة كلها مهجورة ، الجميع يعيش ويأكل على السطح ، فقط جماعة من المعذبين مجبرة أن تظل مناوبة في غرفة الايقاد وقسم الالات .

الشعب

شرس هو البحر الأحمر ، قيظ ورطوبة ، شعاب وسمك القرش ، الشعاب تتراى هنا وهناك ، كثير منها ليست محددة حتى على الخارطة ، وذلك لأنها تظهر فجأة ، مثل الالهة القديمة ، متوالدة من زبد البحر نتيجة لنمو الطبقات المرجانية ، لا ترى ليلا هذه الشعاب ، يمكن ملاحظتها برؤاة البحر الضارب لونه للبياض في الظهر فقط لانها بلون الماء الاحمر المائل للاخضرار ، تهدد الشعاب دائما بالكارثة ، ويمكن القول بصورة عامة ، أن حصول حادثة في البحر ليس مخيفا الى ذلك القدر ، لان المياه مشبعة بالملح أكثر من أي مكان آخر ، والسباحة فيه سهلة ، الامواج ضعيفة والشاطىء ليس بعيدا اذا قارناه بالشواطىء الاخرى ، لكن الحيتان ، التي تطرطش قطعانها بدون تخلف قرب الباخرة ، فان أي حادثة تهدد تكاد أن تصبح كارثة ، لان الانسان الذي يسقط في الماء ، وخاصة اذا كان أبيض [القضية تكمن في أنه حسب تأكيدات السكان المحليين ، بأن الحيتان الحقة ، خلافا للحيتان الامبريالية الموجودة هنا ، تفضل افتراس البيض ، فانها تراعف به لسبب ما] فانها تفترسه لتوها .

الحيتان

وفي مثل هذه الظروف يكون ذلك الهلع الذي أصاب طاقم السفينة مفهوما ، حين قرر أحد الركاب بسبب الفراغ أن يمزح ، حيث حول عجلة تلجراف الباخرة من السرعة الكاملة الى « قف » أثناء غياب القبطان ، وبهذا فإنه كان قد أعطى إشارة الى « الكارثة » المحدقة. وبعد بضع دقائق من اشارة الانذار فقط ، اتضح أن هذا سخافة صبيانية من قبل انسان راشد ، وقد ظل بدون عقاب للاسف .

يتبخر الحماس الديني للحجاج نتيجة القيظ ، فينسون نوباتهم ونشيجهم ، يتجولون بلا حول يلوحون بالمراوح اليدوية ، ويضطجعون بعجز على السجاجيد وينكبون على أباريق الماء ، وعند صفير الباخرة فقط ، وقد استخدم هذا الصفير كاشارة محجوزة مسبقا من قبل الحجاج ، يقوم الاخيرون بأداء فريضة الصلاة ، ومع ذلك نصاب بخيبة أمل نحن الذين ننتظر

رؤية نشوة الصلاة وتوبتها ، ينهض الحجاج أنصاف نيام [كان هذا في هزيع الليل] يهمهون بخفوت وراء الامام في الصلاة ، وما أن تصفر الباخرة للمرة الثانية ، بعد برهة خمس أو ست دقائق ، يرتمون منهارين على سجاجيدهم .

صار خليج السويس في الخلف ، اختفى مشهد جبل سيناء ، المنعكس في مرآة الرمال المتلألئة ، وقد مرقت الفنارات الصغيرة الواقفة في جزيرة ديد الا وجزيرة الاخوين ، عبرنا المنطقة الاستوائية ، تميل النجمة القطبية أكثر فأكثر نحو الافق ، تصير الليالي أكثر طولا ، والنهار أكثر قصرا ، ويصير حلول الليل أكثر سرعة وجدية ، يكاد الغسق أن ينعدم ، بينما يرتفع زئبق ميزان الحرارة الى أعلى ، وتصير وجوه طاقم السفينة أكثر حنقا ومتعبة أكثر .

ـ اليوم العاشر في الطريق ـ

ـ قبيل المغيب ، وتحت لمعان الشمس الساطعة والحارة ، تبدو الاشباح المظلمة للجبال ، والخط الحاد الابيض للمدينة المتماوجة في الهواء المتلون ، مآذن المساجد البيضاء الناصعة ، تعرجات البيوت البيضاء الغريبة الشكل ، الاكواخ المنشورية الشكل المعتمة خارج المدينة ، كل هذا على خلفية البحر المزخرف بكل الالوان السبعة ، بالوان المرجان تحت المياه الزرقاء ـ الحمراء ـ الخضراء ـ الازوردية ، كل هذا ينبيء باننا وصلنا الى مدينة جدة الخانقة والجميلة ـ الخادعة ـ الميناء الرئيسي لمملكة نجد والحجاز ، والبوابة الى مكة .

يحزم الحجاج أمتعتهم على عجل ، يجتمعون عند مقدمة السفينة ، منارا بين الشعب بمساعدة المرشد البحري ، تدخل الباخرة الرصيف ، حيث قد تجمعت إثنا عشر أو ثلاثة عشر باخرة من مختلف الجنسيات ألمان ، انجليز ، فرنسيون ، هولنديون ، أتراك وحتى سفينة روسية قديمة تحت العلم الفرنسي لكنها باسمها القديم « اورشليم » . نقلت كل هذه السفن أفواجا كبيرة من الحجاج ، تنتظر نهاية الحج ، لترحل من حيث أتت .

جدة البوابة إلى مكة

من الصعب تصور لوحة واضحة للمعنى البضاعي والديني أكثر من صورة الحج ، في كل عام ومن كل أطراف المعمورة وقبل يوم الحج يأتي ما يقارب مائتي ألف من الشيوخ ، نساء ورجال في الغالب ، يتركون أعمالهم المعتادة ، يجمعون ما ادخروه طوال أعوام كثيرة ، يحزمون في حزمتين ما يلزم من المتاع ، وينطلقون الى الحج في بلد القيظ ، الجدب ، الغبار ، والاوبئة ،

يأتون من سفوح الهملايا ، من الهند ، من جزر أرخبيل الملايو المزهرة ومن البلدان المجاورة بالطبع : ايران ، تركيا ، شبه جزيرة العرب ، ومن أفريقيا ، واذا كان الحجاج مسافرين عن طريق البر على القوافل أو مشيا على الاقدام ، تنهبهم القبائل الرحل ، وتنتزع منهم آخر الاغذية ، أما اذا سافروا على ظهور السفن فان عمـلاء شركات السفن يبتزونهم بشكل قانوني « منظم » يسلخون منهم نقودا كثيرة قيمة تذاكر سفر في ظروف لا تحسدهم عليها حتى البهائم ، يأخذون منهم في جدة رسوم تأشيرة الدخول ورسم الحجر الصحي ، وبعد ذلك يرافق كل مجموعة صغيرة مطوف ، يطوف بهم في الاماكن المقدسة ، يعلمهم « مناسك الحج » ، ينهب رعاياه مستغلا كل فرصة ، يأخذ منهم نقودا كثيرة للسكن ، الغذاء ، الماء ، والماء خاصة ، التي يصل ثمنها بوزن الذهب ، هكذا كان في عهد الشريف حسين الذي قام بتدابير غريبة ، وصلت الى حد تخريب أنابيب المياه ، من أجل رفع سعرها ، الى جنيه ذهب للكأس الواحد .

ينتقل الحجاج بين الاماكن المقدسة ، من جبل الى جبل ، ومن مدينة الى مدينة ، في محيط مليء بالقذورات ، بدون ماء ولا غذاء وبلا رعاية طبية تقريبا ، ينفق الحجاج آخر نقودهم وآخر ما تبقى من الصحة ، فيتعرضون للامراض والانهاك والتعب بكل بساطة ، يقعون بين براثن مضاربي الحجاز ، المطوفون ، المرافقون ، ملاك الجمال والسيارات وما شابه ذلك من الزمر يتحصلون على ما يقارب ثمانية ملايين جنيه استرليني من الربح ، علاوة على خمسة عشر ألف ميت تحتجز جثثهم رمال الحجاز من بين مائتي ألف حاج(كأنها فراشات على النار) تتواقد كل عام تحت شمس الصحراء العربية اللافحة .

الحج الديني موجود في كل البلدان . يذهب الصينيون الى جبل تايسان ، أينما عاش وعلم كونفوشيوس ، ويصعد اليابانيون لا بسين ثياب بيضاء الى قمة جبل فودزه ، يذهبون الى معابد نيكو ، ويتوافد الكاثوليك الى روما ، لكن يوجد في جميع هذه الأشكال عامل جمالي ، يتمتع الناس برؤية محاسن الطبيعة ، والاعمال الفنية ، وينتقلون في ظروف محتملة بل وأحيانا مريحة ، لكن لا يوجد جزاء يتجازاه المسلمون الاتقياء المنهكون ، الذين يعودون الى مكة والمدينة - سوى المشاعر الدينية الخالصة - بعض الاحجار من قبر الرسول محمد ، وقوارير من ماء « زمزم » إنه لم يرى أية محاسن ، ما عدا رمال الصحراء ، والجبال العارية الجدباء والوجوه الجشعة للمرافقين .

المضاربة بالحج

من المستفيد من هذا الابتزاز الممنهج الحجاج ؟ بادىء ذى بدء التجار ، المضاربون ملاك الجمال والسيارات وبالطبع سلطة الحجاز ، إن أدنى انخفاض فى الحجاج يمكن أن يكون ضربة قاسية لهذه الفئات ولا تعكس ذلك على مجمل دخل البلاد (١) .

تسيل أشعة الشمس على الاف الفراسخ فى الصحارى العربية والافريقية ، فى الوقت الذى يكون فيه عزيز كل شعاع من الشمس في سيبيريا ، وكم يتمنى المرء أن يخترع زجاج مكبر يمكن الانسان من تركيز وارسال مليارات الكيلواطات من الطاقة الشمسية الى التوندرا وجليد القطب المتجمد الشمالى (٢) .

الناس الطفيليون عادة ما يصبحون عبيدا أو خدما وانصاف عبيد ، والحجازيون ممثلون بالطبقات المالكة يصبحون أذيالاً وأعوانا للانجليز ، تمسك الانجليز فى قبضتها مداخل البحر الاحمر : بوابتا الحجاز وقناة السويس ومضيق باب المندب ، إن جرة قلم خفيفة ، ضغط ضئيل لو حتى القيام ببعض أعمال الحجر الصحى الشكلية ، يمكن أن تؤدى الى افشال الحج ويقضى على سكان الحجاز بالافلاس والجوع ، تمسك أصابع الامبريالية الانجليزية على هذا البلد الخائر القوى .

فى وقت الحرب ، دفعت انجلترا الشريف حسين إلى الانتفاضة ضد الاتراك عن طريق ايقاف الحجاج ، الامر الذى حتم سلفا الاخفاق التركى فى الهجوم على قناة السويس ، والانهيار النهائى لتركيا فى الحرب العالمية ، وفى عام ١٩٢٥ كان ابن سعود ملك نجد ، الذى خلف الشريف حسين بعد الانتصار على الأخير ، كان زعيم الوهابيين شديد الشكيمة ، لكنه بعد أن شعر بالاصابع الفولاذية قابضة على خناقة ، اضطر إلى كبح حملته الشرسة مستخدما أسلوب المناورة الشاقة والمؤلمة ، فلم يحزم في خوض المعركة ، وإن لم يرغب في التراجع إلى ما لا نهاية .

لقد وحد ابن سعود نجد والحجاز بشكل وهابى نصف متوحش ، وكان يهدد طرق المواصلات الانجليزية إلى الهند ، من فلسطين عبر العراق وايران ، وقد قررت انجلترا بصلابة

---

(١) لم نترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٢٢ لانها غير صالحة للنشر .

(٢) لم نترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٢٣ لانها غير صالحة للنشر .

الباب السادس

* فى الازقه الخانقه بالحديدة
* السوق
* الهنود
* السفن القديمة
* الصناعة
* راس المال الاجنبى

من " نيته " إلى " تابولسك

نلتقي في جدة بباخرة سوفياتية أخرى هي " تابوسك " وهي مثل باخرتنا " نيته " بسعتها وتجهيزاتها القطبية (واسمها يتحدث عن نفسه) ، فيها نفس أنابيب التدفئة ، والحمامات المالحة ، وانعدام الماء البارد ، وقد وصلت قبلنا بأسبوع وبحمولة ناقصة ، اتضح انه لا توجد ضرورة لابحار الباخرتين اكثر (عن ماذا كانوا يفكرون في اوديسا ؟) ، وذلك لأن كل الحمولة كان يمكن شحنها في باخرة واحدة ، وتحمل الاخرى الحجاج عائدة بهدوء إلى ميناء بلادها ، تبدأ المناقشات الصاخبة والاجتماعات : لا يرغب احد في الرحلة الخليجية – الطقس جهنمي ، ولا توجد موانيء مشوقة يمكن فيها التجول والراحة : كاد أن يكون قبطان الباخرة في معركة حجج مع وحجج ضد ، كل يثبت أنه ليس هو المفترض في متابعة الابحار ، وفي الاخير يتنازل قبطان " تابوسك " الحزبي بعد اسبوعين من الجدل (والعمل متوقف) يوافق هذا القبطان وسط تذمر جماعي من قبل طاقم سفينته بسبب أخذ حمولة الباخرة " نيته " والابحار إلى اليمن ومن ثم إلى الخليج الفارسي .

تظل " نيته " في جدة .

وفي البداية يقوم العمال العرب بالشحن ، يعملون بشمول ، يمزقون الاكياس بالخطاطيف ، يسجل المتعهد اجرة ضعف عدد العمال العاملين ، ويأخذ الفرق لنفسه ، وبالإضافة إلى ذلك يتوقف هؤلاء العمال عن العمل بضعة أيام بحجة ابتداء الحج .

تقرر تنفيذ الشحن بالقوى الخاصة ، صعد البحارة عراة إلى عنبر السفينة ، وبدأت العتلات تقرقع ، اهتزت الرافعة اليدوية اهتزازا شديداً ، ويرمون اكياس السكر ورزم المنسوجات بالاذرع من باخرة إلى باخرة . وفي أعماق العنابر تزحف اشباح الناس المتصببة عرقا . ونادرا ما يصعدون كالمسلوقين إلى سطح السفينة من اجل تدخين سيجارة ، ونفسا من الهواء النقي ، ثم يغوصون من جديد في الحفرة الخانقة يسحبون الاكياس إلى الخطاطيف القابضة للرافعة .

استغرق العمل ثلاث ليال (لانه لا عمل في النهار) . انجزنا خلال هذه الليالي الثلاث ما كان يمكن أن ينجزه العمال المحليون في أكثر من عشرة أيام وتحت عصا المتعهد المستغل .

واخيراً انتهى الشحن ، واستلم البحارة اجرتهم ، تلك الاجرة التي لم يكتسبوها بعرق الجبين فقط ، وانما بعرق الجسد كله ، استلموا أجرتهم في نفس اليوم فافرغوا مقاصف البواخر الاجنبية التي على الرصيف واشتروا تقريبا كل المشروبات المثلجة وغير المثلجة

وهكذا اصبحت عنابر " نيته " فارغة ، وعنابر " تابوست " مشحونة حتى سطحها ، ننتقل إلى " تابولسك " أو بالاصح إلى برج القيادة ، الهبوط إلى الحجرات مستحيل ، هناك تبقى الاشياء فقط وفي الصباح تتحرك تلوح مناديل المودعين من على الزوارق ، وها هي باخرتنا تناور بين الشعاب تخرج إلى الماء العريض للبحر الاحمر ، آخذة اتجاهها إلى الجنوب ، ولأول مرة تبحر باخرة سوفياتية حول شبه جزيرة العرب ، ولأول مرة سيعرض العلم الاحمر ، والبضائع السوفياتية في اليمن وموانيء جنوب فارس

أول سنونوات اليمن

اشعرنا اليمن بوجوده في جدة ، هناك ظهر احد التجار مع رسالة توصية من السلطات اليمنية ، مقدما لنا خدماته كمرافق وسمسار في الحديدة ، مؤكدا أنه بدون صحبته سيكون الفشل مصيرنا ، لكننا استغنينا عن خدماته ، هذه كانت السنونوة الاولى من اليمن ، ومنها يتضح ان اليمنيين يضعون آمالا على التجارة معنا ، وان لديهم امكانيات من نوع ما ، وعن هذا . وعلى أية حال تتحدث الرسائل الموجهة إلى فرع " اللجنة الشعبية للعلاقات الخارجية " وذلك من شخصيتين يمنيتين بارزتين

الرسالة الاولى ممهورة بختم الامير محمد ، أمير الحديدة ، والموجهة إلى إحدى الشخصيات الموثوقة في جدة ، لكنها مخصصة لان يستلمها الوكيل السوفييتي ، يقول نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، المتواضع محمد ، ابن أمير المؤمنين (ومحمد هذا هو الابن الثاني للامام) لقد شغل فكرنا مسألة واحدة ، وقد نوقشت أكثر من مرة ، ان حكومتنا لا ترفض ابدا مصافحة اليد الممدودة لها ، لقد صرحت بهذا في صحيفة " الايمان " ، وهي تطمح إلى الصداقة مع شعوب الشرق ، وحكومتنا في الوقت الراهن تصرح بعزم عن طموحها في اقامة طموح متبادل مع شعوب الشرق وخاصة مع من يضمر فكرا تقدميا ويناضل ضد الاضطهاد الامبريالي ، ان حكومة روسيا العظمى تقف يقظة لحراسة مصالح شعوب الشرق ، وضد هذه الحكومة تصارع الامبريالية ، موجهة لهذا وسائل مالية ضخمة ، قوى حربية وسياسية ، طامحة إلى اعاقة تنور شعوب الشرق بروح الحرية ، هذه الحكومة تحوز على تعاطف الشعوب المضطهدة ، اننا نأمل في اقامة علاقة طيبة بين حكومتينا "

واختتم الرسالة بادعية دينية وتمجيدية لله .

والرسالة الثانية مكتوبة بلهجة اكثر عملية وتحفظ وضعها السكرتير الأول للامام ، القاضي راغب ، موجهة إلى القنصل السوفييتي في جدة ، يقول فيها : " اننا نحافظ على الحب في القلب لروسيا ، لقد قررنا وضع بداية علاقات تجارية بين الدولتين المستقلتين روسيا واليمن ، وحين كنت سكرتيرا اولا للسفارة العثمانية في بتروجراد ، كنت موثوقا بروابط صداقة وطيدة بالشعب الروسي ، لقد وجدت انه من الملائم التوجه إليكم بهذا الموضوع بواسطة صديقي ، نرجوا منكم القيام بالخطوات المناسبة وتعريفنا بهذا ".

لقد اهملت هذه الرسالة في جدة قراب عام (وقد ذكرت محدثي في موسكو : " اليمن وأي معنى لذلك ") وكانت بهذا الشكل اول وثيقة تضع بداية الاتفاق السوفيتي اليمني ، الذي سيوقع عليه فيما بعد في صنعاء ، لكن باخرتنا ما زالت تتحرك في الطريق من جدة الى الحديدة ، ويظهر ان كل هذا ليس مقنعا بما فيه الكفاية ، لم توجد ثقة كاملة عما ينتظرنا ، وهناك شائعات تطفو عن بداية غارات الطيران الانجليزي ، وعن انتفاضة القبائل قرب الحديدة .

يبعث فينا بعض الانتعاش شيخ عربي يركب باخرتنا من القسطنطينية الى اليمن ، عمره اكثر من سبعين سنة ، وهو ضابط قديم في الخدمة التركية ، ويحلم ان يعيش آخر ايامه في صنعاء بهدوء يتحدث عن صنعاء ويبجلها بصوت اجش .

– جميل جدا ، جميل جدا ... كل شيء طيب ، كل شيء موجود هناك : هواء ، ماء ، فواكه ، قوارير ماء من صنعاء ، يمكن ان تحملها الى آخر الدنيا ، لن تلقى اشهى منها ، الهواء – كالعسل ... حدائق في كل مكان – المشمش ، الخوخ ، التين ، الليمون ، العنب – خمسة وثلاثين صنف من العنب .

لكن صنعاء بعيدة ، اقرب مرحلة – الحديدة – الحديدة حرها اكثر ارتفاعا من حر جده ، ماذا ننتظر ، نحن في الباخرة ، نتعرض للرياح البحرية ، ومع ذلك ليس باستطاعتنا التحرك ، نبتلع لقمة الغذاء بصعوبة بالغة ونتبعها بقوارير الماء .

في اليوم الثالث في وقت الظهيرة بعد سفرنا من جدة نمر على مجموعة جزر تسمى " جبل الطير " ، تستخدم هذه الجزر كمكان لاستراحة الطيور العابرة ، هذه الجزر المقفرة العارية ، بصخورها الحمراء ، الفنار الذي يلمع في الليل فقط ، يحي قفرتها .

وبعد بضع ساعات – وفي العتمة الدهماء تتراى مجموعة جزر ، يطلق عليها في الخرائط

الاوربية " جزائر " ، التي تعني " جزر " باللغة العربية ببساطة ، لم يطلق اسم محدد لهذه الجزر – وهي خمس أو ست جزر – عبارة عن صخور كبيرة ، وعلى واحدة منها فنار ، من الصعب تصور مكان اكثر قساوة منها كمنفى للمجرمين .

وبعد هذه الجزر ، ننعطف نحو الغرب بشدة ، وننطلق الى الحديدة مباشرة .

ليلة ظلماء غير مقمرة ، يقرر القبطان انه حسب آلة تحديد الاتجاه ، يفترض ان نكون قريبين من الشاطيء ، لا ضوء في الافق ، وتحت طرق الرقاص المنتظم ، يرمي المناوب بالمرجاس (١) ويقدم تقريرا عن عمق البحر .

– سبعة عشر ... ستة عشر ... أربعة عشر ...

وعندما يصل العمق الى اثني عشر مترا و يحول القبطان ذراع " التلجراف " الى اشارة " قف " ، تقرع سلسلة " التلجراف " بحدة ، معطية اشارة الى عمق قسم الماكينات ، تسير الباخرة الى الامام لبعض الوقت بحكم قوة الاستمرار ، نتوقف بعد ذلك ، ننتظر الفجر ، وامامنا ظلام دامس .

نضطجع على الاسرة ، من دون رغبة في النوم ، هذا الشاطيء الغير مرئي ، لكنه القريب الادراك وان يشد الاعصاب و ويطرد النوم ، في ظل الفنار الخافت اقلب صفحات مرجع بحري صدر قبل الحرب واقرأ التعريف التالي تحت كلمة الحديدة :

" الحديدة – مدينة يبلغ تعداد سكانها من ثلاثين الى اربعين الف نسمة ، فيها مبنى عظيمة وماء طيب ... "

وبعد ذلك تاتي معلومات بحرية متخصصة .

افتح ديوان اشعار بير يوسف : لقد ذكر اليمن فيها ، وان كانت بمعاني ومسمات مستعارة مجهولة : " هكذا في صحاري شبه جزيرة العرب المهيبة الجليلة .

اينما سارت ملكة سبأ لتلاطف سليمان " .

هذا يعني انه في اليمن ، لان مملكة سبأ قد وجدت في اليمن ، وقد ذكرها الانجيل ، حيث حكمت الملكة الاسطورية بلقيس ، برجليهاذات الشعر الذهبي الجاف ...

---

(١) المرجاس – جهاز لقياس عمق البحر .

ويضيف الشاعر بير يوسف :

" نظرة باردة من قمة الرأس إلى اخمص القدم واوفير الغنية ...

واوفير – هذه الكلمة المتكبرة تعني اليمن المتواضعة التي لا تقبل الادعاء .

هذا هو كل ما اتذكره عن اليمن من الكتابات الموجودة لدينا ، يوجد امامي كتابان ايضاً ، احدهما الفه الصحفي النمساوي فيسل وقد سمى هذا الكتاب اليمن " بلدا شيطانيا " ، اكثر بلدان شبه جزيرة العرب تخلفا واقلها جاذبية ، وعلى النقيض منه – وصف احد الايطاليين اليمن وكان قد سافر اليها ضمن بعثة رسمية ، واستقبل بحفاوة وابهة كبيرة .

تعرف اليمن في هذا الكتاب بانها " وطن الاريج او الشذى " . واتذكر ان اليمن قد اشتهر ايضاً منذ زمن سحيق " بالعربية السعيدة " . ويؤكد هذا مرافقنا الشيخ العربي ، الذي لا يفتأ يدمدم حول اصناف العنب الخمسة والثلاثين وماء صنعاء العجيب ، بهذا ينقطع حبل التصورات المستقاة اثناء الطريق الى اليمن ، و كيف هذه اليمن في حقيقة الامر ، هذا البلد القريب جدا منا الان ، والذي لا يفصلنا عنه سوى خط الماء أو دخان الضباب الصباحي ؟

... من خلال المنظار وفي ضوء الفجر الشاحب ارى خط الشاطيء الاغبر ، الذي يمتد بضعة اميال من باخرتنا ، وهو اكثر انبساطا وخال من الجمال عنه في جدة .

اشاهد النتوءات الصخرية لحواجز الامواج ، بعض مباني بيضاء ، صفت بشكل ساحة صغيرة ، والاشباح الرمادية لمنازل الضواحي الواطئة .

اهذه هي يا ترى " المهمات العظيمة " التي قيل عنها ؟

على رصيف الحديدة

ترفع الباخرة مرساتها مقتربة من الشاطيء خبط عشواء ، تتوقف مرة اخرى على مسافة ميلين أو ثلاثة اميال من اليابسة : والوقوف ابعد من ذلك يهددها ، الاماكن الضحلة ، والقبطان لا يخاطر بالتحرك على رصيف يجهله ، تضج سلسلة المرساة من جديد ، وتنطلق عدة صفارات نداء تاريخي من مدخنة الباخرة ، ويرتفع شريط اعلام الاشارة المبرقشة على السارية ، لا شك في اننا قد وصلنا ، هذه هي اليمن .

ها هى اليمن

ها هو ، هذا الوطن ، الذى يبدو من علي ظهر الباخرة قاحلا ، صحراء كئيبه ... هذه هى الحديدة ، المدينة النصف مغمورة بالرمال ، بيوت مهدمة ، كأنها كومة عظام نصف رميمة ، مبيضة على بساط سهلى اغبر قاحل .

تمر عشرون دقيقة و نشاهد شراعا ابيضا يبتعد عن الشاطىء يناور مع الريح يقترب من باخرتنا ويصل بعد نصف ساعة .

نتماسك انفسنا ظاهريا بحزم ، وان كانت الثقة منعدمة فى الداخل .

– ماذا سيقولون لنا ؟ " اهلا وسهلا " او " فلترحلوا " ...

يصعد على سلم الباخرة ايطالى كهل محنى الظهر ، اصلع الرأس ، انه وكيل الشركة المحلية التى اخذت على عاتقها ، وخدمة باخرتنا ، حسب اتفاق تلجرافى ، ويصحبته عربى عارى القدمين فى سترة عسكرية مهلهلة هو مساعد رئيس الشرطة ، وعندما سأل هذا الاخير من نحن ولماذا وصلنا ، توجه مسرعا الى الشاطىء ليقدم تقريرا .

يمتص الايطالى الماء المعدنى بشراهة ، يجيب على اسئلتنا عن الحديدة ، ملوحا بيديه بكآبة ، – لا شىء يوجد هنا ... لا شىء – لا ماء ، ولا خضرة ولا غذاء ، كل شىء يجب جلبه من الخارج ، كل شىء ... ايسمح لى القبطان بتعبئة قنينتين من الماء البارد ؟

– الاخبار ؟ نسأل نحن ، – كيف انتهت الانتخابات الايطالية ؟

– نحن هنا لا نعرف شيئا – يجيب مبتسما بمرارة ومؤشرا بيديه اشارة بائسة هادئة ... الانتخابات ... نحن لا نعرف حتى انها يفترض ان تجرى ، ربما ستحكون لنا كيف انتهت الانتخابات الفرنسية ؟

ثم نحكى له ، لان هذه الانتخابات قد جرت قبل اسبوعين من رحلتنا من اوديسا ، وقد استمرت رحلتنا اكثر من شهر .

– وهنا كيف ؟

مرة اخرى اشارة تهكمية هادئة .

– هنا ... سترون بانفسكم ، ما يشبه الحرب ، ننتظر الطائرات ، فلدى الامام شىء ما غير حسن مع الانجليز ...

– كيف تعيشون ؟

– لا تسألوا ... عن كل شيء ، كاننا في سجن أو في منفى ان لم يكن اسوأ .

نحن نرى ذلك من المنهكين والمتعبين ، على كل ربما كان هذا استقبال مقصود : لتخويفنا ، نحن الذين خاطرنا بمجيئنا إلى هنا ، إلى البلد الذي تمد إليه ايطاليا اصابعها الاخطبوطية بشراهة ، تحيط القوارب بباخرتنا من جميع الجوانب . يستشعر مالكو القوارب والعتالون الرزق – اجرة افراغ البضائع ونقلها الى الشاطيء ، يتقافز الناس السمر العراة من القوارب الى الماء ويسبحون مقتربين الى جوانب السفينة " نابولسك " يسحبون حبال الربط باسنانهم ، يلتصقون ويتشبثون به ، وها قد انفتحت ابواب المجرات ، وطقطقت الرافعات ، وتطايرت اكداس اكياس الدقيق والسكر من سطح السفينة الى قعر القوارب .

الشمس بعد ان ارتفعت ، تلهب سطح السفينة بسيل اشعتها ، كما تلهب ظهور الناس العارية والمكشوفة .

ها هو يظهر قارب كبير وانيق ، على صاريته علم احمر مرسوم عليه سيف وتحيط بالسيف خمسة نجوم انه علم اليمن ، في القارب سلطات الحديدة ترافقها حراسة ، تتألف مما يقارب خمسة عشر جنديا وعلى ما يبدو أنه قد رتب لنا حفل استقبال بما فيه الكفاية .

الوجهاء – في برانس بيضاء يتمنطقون بالجنابي ، يلبسون اوشحة من الخيش الخفيف – وعلى رأس كل واحد منهم عمامة بيضاء ، وعلى ارجلهم احذية اوروبية ، وهذه هي العلامة الخارجية الوحيدة للتأثير الاوروبي .

يسمى الجنود كما في تركيا عسكرايضا ، يلبسون الاردية ، وان كان من القماش المحلي الخشن ، هذه الاردية هي نوع ما من الملابس الشبيهة بالفوطة مع بلوزة معتمة ، يربط الجنود خصورهم باحزمة ، احزمة الذخيرة عبر الكتف ، والبنادق في الايدي والجنابي خلف الاحزمة .

الاقدام حافية والعيون ملتهبة وحشية كأنها عيون الصقور ، هؤلاء من الجبال ، وصلوا إلى البحر منذ فترة قصيرة ، وقد كانوا لأول مرة في حياتهم على الباخرة .

تميز بينهم الامير الشخصية المهيبة ، وكامل لقبه امير الجيش ، يتحرك بقربه المترجم فؤاد في لباس اوروبي وطربوش ، وهذا المترجم مصري ، وهو الشخص الوحيد الذي يعرف لغات اوروبية ويطلق على نفسه لقب مترجم المحافظ .

وجهت الينا اسئله . بما اتيتم ، وما هي حمولتكم ، وهل تنوون الذهاب الى صنعاء لمقابلة الامام ، واستفسارات عن الصحة وظروف الرحلة ، اجبنا بدورنا نحن نستفسر عن صحة الامام وأولاده وعن الوضع في صنعاء ، لكنهم لا يخفون بأن ليس كل شيء على مايرام وأنهم ينتظرون الطائرات الانجليزية وإن كانوا لا يخافون منها .

— سنتغلب عليها ...

تعب عامل مقصف سفينتنا من كثرة العمل : يخرج صناديق الماء المعدني ، او مياه عادية باردة ، فهنا يعتبر هذا أفضل ضيافة ، وبعد الضيافة يلقي امير الجيش كلمة اخفائية بواسطة المترجم . .

— نحن انتظرنا الروس منذ فترة بعيدة ، لقد توقعنا رؤيتكم هنا في العام الماضي ، نأمل بعون الله أن تتوطد العلاقة بيننا وتطور التجارة ، نحي بأشخاصكم اول روس يصلون الى الارض اليمنية ، وبينما نحن نتبادل التحيات ، كان الجميع عساكر ووجهاء يمعنون النظر بشراهة في كل جزء من اجزاء الباخرة ، ويتراكضون بعد ذلك يزاحمون بعضهم بعضا لفحصها و يمرون بكل الزوايا ، غرفة القبطان ، عجلة القيادة ، البوصلة ، المنظار ، المستوصف ، كل شيء يثير اهتمام الناس ، هؤلاء الناس الذين حرموا من التقنية الى الحد الذي يجعل من سفينتنا الرثة بما فيه الكفاية تبدو لهم كأنها مارد اسطوري على طول الطريق ، والسبب انه لم تمر حتى الآن سوى البواخر الاجنبية الصغيرة القديمة ، أما البواخر الكبيرة فإنها تبحر بالطريق الرئيسي للبحر الاحمر ، غير عابئة بالمرور في هذا الميناء اليمني المتواضع .

الباب الخامس

* بجع على حاجز الامواج
* الزخرفة العربية والجمارك
* سيف الاسلام والبلاشفة الوافدون
* الجاسوس المفضوح
* رحلة سعيدة
* " تابولسك "

بجع على حاجز الامواج

بابتعادنا عن اخر قطعة من الارض السوفيتية بشكل السطح الباهت ل " تابولسك " . حينئذ فقط وجدنا انفسنا على البساط المفروش على مؤخرة القارب ، بدانا نتصور بوضوح ، الى اى زمان سحيق قد تاتنا ، اننا نبتعد اكثر من ثلاثة الاف كيلو متر عن اقرب شاطىء سوفيتى عن طريق الخط الجوى ، تبقى الطريق الى الهند الجزء الاقل من الطريق التى قطعناها ، اثيوبيا الحارة تحت متناول اليد ، انها فى الجهة الاخرى للبحر الاحمر ولا تبعد سوى اربع أو خمس ساعات عبر البحر ، والمسافة الى خط الاستواء اقرب من المسافة بين موسكو واوديسا ، الشمس والنجوم والهواء الخانق – كل هذا يشعرنا باننا قد جذبنا الى عالم اخر ، معلق بين افريقيا والهند ، واننا قد اقتلعنا الى ما لا نهاية عن الوطن السوفيتى – نشعر كيف يصل رذاذ البركان الثورى ولاول مرة ممثلا بنا وكيف يصب حممه على سابع ارض واصلا الى هذا الميناء الذاوى الشديد الحرارة .

تدفع الامواج القارب الواسع بقوة ، هذا القارب الذى قعد فيه ما يقارب ثلاثين شخصا ، وها هى تتطاول بوضوح عظمة حلقة المبانى البيضاء الغريبة الشكل ، يرفرف العلم الاحمر فوق واحده منها ، ها هى المدينة تمتد كسلسلة من الصعب ان تحيط بها بنظرة واحدة : السهل ، البيوت البيضاء ، الصفوف الطويلة لاكواخ من الطين والقش ، اشرعة الصنابيق على الامواج ، او على هياكل القوارب فى الاماكن الضحلة ، حاجز الامواج الحجرى المتطاول الى الامام لحماية مرفأ القوارب الصغيرة ، والشمس تحرق ، كمعدن مصهور يتصبب على الجسم ، تضرب مؤخرة الراس,كما لو انها بمسامير ، لم ندرك كيف نصحو من ركام الانطباعات حتى كان حاجز الامواج امامنا .

الانطباع الاول عن الحديدة – سلسلة طويلة من البجع على حاجز الامواج واقفة بأبهه ووقار بصدور بارزة ، طيور بيضاء ، تنظف اجنحتها بمناقيرها ، وتنظر برباطة جأش الى القارب الذى تتلاطم عليه الامواج الى الحاجز ، يتراكض اناس انصاف عراة يربطون القارب بالحبال ، ايد ما تجذبنا الى الارض الثابته .

– الحمد لله .

لا اثر لنسيم البحر ، الغبار الساخن يلف من كل مكان ، نتجول انصاف عميان مع

مرافقنا ، ندخل ابوابا ما ثم نصعد الي سلم داخلي طويل نمر بافنية وساحات مختلفة ، نصل الطابق الاخير ، نقعد علي الكراسي منهكين ، نتطلع فيما حولنا ، نحن في غرفة ضخمة ، يهب نسيم بحري عليل من النافذة .

الزخرفة العربية والجمارك

نتطلع الى السقف : دوائر ملونة ، منحنيات ، نجوم ، كل ما يمكن توليفة من الخطوط الملتوية والمباشرة ، اشكال متنوعة لا نهائية ، تتميز بانه لا يوجد هناك شكلان متشابهان بين هذه الاشكال ، والالوان مختلفة ايضا ومتعدده الالوان والتوليفات ، هذه هي " الزخارف العربية " . نتفحص الاثاث والمفروشات وهي نصف اوربية ، اى الخلط القريب بين الاسلوب العربي القديم وعدم الذوق الاوروبي : مقعد رث منثور ، منضدة للعب الورق في الزاوية ، بضعة كراسي ، وعلي الجدران لوحتان زيتيتان انجليزيتان ذات موضوع حربي كذكرى للاحتلال الانجليزى للحديده بعد انتهاء الحرب ، وغرفة المغسل - ارض حجرية ، برميل يستخدم كمغسل - يؤكد لنا العسكرى المكلف بخدمتنا ان المياة كثيرة ، يمكن صب الماء والاغتسال ، في الوقت الذى كنا قد خشينا فيه حتى من غسل اليدين بفعل تاثير كلمات الايطالي ، واعتقدنا بان الماء هنا ثمين او عزيز للغاية لقد اطمئننا بان المياه في الحديدة كثيرة ، حقا انها مالحة الطعم قليلا ، لكنها صالحة بما فيه الكفاية للاغتسال .

بدانا نشعر بان الشيطان ليس مخيفا كما يصفون .

ونصب بشراهة علي اجسامنا اكواب الماء ، ونغير بدلاتنا المبللة بالعرق .

ومن النافذة - نحن علي ارتفاع الطابق الرابع - ينبسط البحر باتساع : طيور النورس ، الاشرعة ، وبعيدا في الافق شبح باخرتنا ، وفي الاسفل علي الشارع تمتد ارتال الناس السمر انصاف عراة ، الذين ينقلون أكياس الدقيق والسكر الذى جلبناه ، ينقلون من الرصيف الي مخازن الجمارك . ونري من النافذة الاخرى في الاسفل السقائف المبنية ، مخازن الجمارك ، الافنية المفتوحة الى الداخل لا يخشي عليها من المطر ، فهو يسقط مرة او مرتين في السنة ، نرى كيف تنمو تحت السقائف اكداس اكياسنا ، التي دخلت الشواطىء اليمنية لاول مرة .

الاجراءات الجمركيه ليست معقدة هنا ، تؤخذ الضرائب حسب عدد الاماكن ولا تتعدى خمسة بالمائة من سعر البضاعة ، الدولة اليمنية لا تزال حديثة العهد ، وقد امتدت من الجبال الى

البحر في عام ١٩٢٥ فقط ، وشملت بنفوذها الحديدة ، وقبل هذا كانت الحديدة محتلة من قبل الانجليز وصنيعتهم الادريس (امير دولة عسير المجاورة) ، لم تدرك الحكومة اليمنية بعد كل قضايا السياسة الاقتصادية ، والبرجوازيه اليمنية الميسورة لا تهتم الا بشكل ضئيل للغاية بتطوير الصناعة الوطنية كي لا تطالب بضرائب حماية كبيرة ، لانها تفضل العيش على الصفقات التجارية ، وهي ليست على استعداد للتنازل عن تلك الارباح الخزينة ، التي يمكن ان تجنيها من الضرائب التي يدفعها المستهلك لصالحها وبالاضافه الى ذلك ، لا يستورد الى اليمن سوى المواد الاولية الضرورية وبشكل اساسي الدقيق ، السكر ، الكروسين ، الاقمشة ، الصابون والكبريت ، ولهذا فان السياسة الاقتصادية لم تخرج عن اطار التجارة الحرة البدائية ، فليس هناك لا بنوك ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا سياسة تحمي وتشجع الراسمالية الوطنية التي لا تزال بعيدة ، ان اسباب غياب البنوك وانخفاض مستوى الضرائب في اليمن هو ان الحكومة ليست مرتبطة بمعاهدات غير متكافئة شكليا فقط بل ولا حتى عمليا يمكن ان تكون هذه الضرائب مرتفعة ، وليس ان القرآن قد حرم ذلك كما يفكر البعض .

اليمن ليست الصين او الهند ، يتحدث بفخر احد الوجهاء الذين قابلناهم ، فهي تستطيع رفع الضرائب ، ولكنها لا ترى الان ضرورة لذلك .

لكننا ضيوف ، يشعرون ان وقت الغداء قد حان، نذهب الى الغرفة المجاورة ، نجلس على مائدة مستديرة مغطاه بعشرات الصحون من مختلف انواع الطعام ، هناك قطع من لحم الخروف ، والدجاج ، البقول ، البيض المقلي ، الارز ، وترتفع قنينة خاصة كبيرة من المشروبات ، يتناول مضيفنا امير الجيش واثنان من صحبته المقربين الطعام باصابعهم ، ويشرحون لنا انه من المألوف حسب الطريقه العربية الاكل بالايدي ، يرى العرب ان تناول الطعام بالشوكه او السكين يفقد طعمة ويكتسب طعم المعدن ، ومن اجل تذوق الطعام جيدا يجب تناوله بالاصابع ، وعلى كل حال ، ويتسامح ، ونتيجة لعدم خبرتنا بالاكل بالاصابع ، يقدمون لنا الشوك والسكاكين ، وبعد فترة تعودنا على الاكل بالايدي وبدأنا نشارك وجهة النظر العربية .

انتهى الغداء ، شربت المشروبات ، وبلعت اقداح القهوة الصغيرة ، يتركنا مضيفونا الوجهاء لراحة ما بعد الغداء ، ونرتمي على الاسرة المتنقله منهكين ، تلك الاسرة التي اشتريناها ببعد نظر بواسطة الوسطاء في بورسعيد .

تمضي فترة ما بعد الغداء ، ساعة ساعتين والبشر السمر لا يزالون ينقلون الاكياس في الاسفل ، وفي الجهة المقابله للنافذة ينعس بلا حراك بعض الحراس الذين يحرسون بنايتنا ، وكانهم قد تجمدوا .

يصل سكرتير الامير ويخبرنا بان الأمير مستعد لا ستقبالنا بعد ساعتين ، وحتى ما اردنا ، ويقول ان الحكومة تنوى شراء الدقيق لاغراضها وباسعار السوق ، ثم يستفسر عن امكانية استمرار وصول البضائع السوفيتية الى اليمن ، وهل يمكن ارسال مهندسين وخبراء زراعيين وآلات زراعية ، وعندما عرج الحديث عن المواضيع السياسية باغتنا فجأه يرجو توضيح جوهر الخلافات الداخليه فى حزبنا ، وقد اتضح انه قد سمع فى مكان ما ، او قراء شيئا ما عن التروتسكية ، الجدل الحزبى الداخلى ، وقد انعكس كل هذا لدية على شكل تصورات غامضة ، وحاول تصورها .

لقد شكى من الانجليز ، لانهم يطالبون بخروج قوات الامام من المناطق المحاذية لعدن ، الان ان الامام غير موافق على هذا ، هناك احتمال ان يتعقد الوضع ، وقد عاد العقيد الانجليزى جبكوب الى عدن من صنعاء قبل اسبوع صفر اليدين ، ويخرج الايطاليون من التقليعة ، لقد وقعت اتفاقية معهم قبل عامين فى صنعاء ، وحينها كان اليمنيون يأملون بان تاتى بضائع جيدة من ايطاليا ، وان يدافع الايطاليون عن اليمن ضد الانجليز ، لكن هذه الامال خابت ، اما الان فلا وجود للاوهام .

وبعد قليل يخبرونا بانالامير محمد (ابن الامام ، وامير الحديدة) ينتظرنا فى القصر ، نعتلى البغال ، التى قربت الى البوابة ، ونحن لم نعتاد على مثل هذا الركوب ، ومثلنا ، ظلت الحيوانات فيى مكانها ، غير فاهمة اوامرنا ، تحرك اذنيها بارتباك ، ياتى العسكر لمساعدتنا ، فيقودون البغال بمقاودها ، نتحول الى الزاوية حيث ينقلونا لسبب ما على الخيل ، يظهر ان هذا زيادة فى الاهمية . لكنه يتضح ان الخيل ايضا غير متعودة على الركاب الواصلين من وراء البحار ، اكثر من البغال ، فتسير ايضا منصاعة للعسكرى الماسك بعنقها .

نتحرك ببطء الى الامام فى غبار الشوارع المعتمه بمبانيه الطينية ، تخترقنا النظرات الفضوليه من قبل المواطنين انصاف العراة لابسى العمائم ، الذين يمثل وصولنا بالنسبه اليهم حدث كبير ، يحيينا اثنان من الاوروبيين مجاملة ، نعرف ان الاثنين عملاء شركات ايطالية محلية ، نمر قرب مقهى ، حيث يقعد ما يقارب عشرين شخصا تحت ظلال سقيفتها ، يجلسون على مقاعد مجدولة يمتصون دخان التبغ عبر قصب طوال شبيهة بحبال غليظة متصلة باوانى زجاجية غريبة الشكل يفور الماء بداخلها ، هذا هو تدخين النارجيلة .

تنتهى ساعات ما بعد الغداء ، ساعات القات ، القات هو شجرة صغيرة لطيفة ، تحتوى اوراقها على بعض انواع المخدر على مايبدو ، ويعتبر القات المصدر الاساسى لمتعة جميع

السكان صغيرا وكبيرا ، دون التمييز في الطبقة والسن ، وبعد ساعات القيلولة ، يشتري القات كل من يملك حتى بضعة قروش ، يضع قاته على السجادة او على سرير القش ، اوببساطة في غبار الشارع ، يمضغ أوراق القات الخضراء المخزونة في فمه مسبقا الموضوعة بعناية على شكل حزمة مربوطة .

ينتقل الناس في هذه الساعة الى حالة ارتياح مخدر ، ينفضون عن انفسهم بشكل مصطنع تعب نصف النهار المعاش ...

نمرق بين السقائف المعتمه لسور المدينة ، نبتعد خارج حدود المدينة ، نخلف المقبرة ، الخلاء الرحب الذي تتناثر فيه الاحجار بدلا من مشاهد القبور ، وعلى الجهة اليمنى — اكواخ طينية نصف دائرية ذات قباب وجداحة من القش ، نشعرهنا بالاسلوب الافريقي وبعيدا تتماوج متلونه في امواج الهواء المندفع جدران البناية الكبيرة ، النخيل على جوانبها ، والحرس انصاف المعراة عند بواباتها ، مشدوهون من اشعة الشمس المخدرة ، محترقون في الغبار الناري ، ننزل من فوق الخيول المقادة الى جناح القصر ، نصعد السلم انصاف نائمين باتجاه غرفة الامير ، ان غرفة الامير ليست مكتب عمل بل غرفة للراحة ، وعلى الارائك المفروشه بالوسائد ، يجلس اشخاص انصاف مضطجعين يمتصون دخان النارجيلة بتلذذ ، ويرتايه يمضغون اوراق القات الخضراء ، وعند دخولنا نهض احدهم ، لا بسا عمامة خضراء وقميصا ابيضا واسعا ، حيانا بالطريقة الاوروبية مادا يده ، هذا امير تهامة (الخط البحري) الابن الثاني للامام ، الامير محمد ، وكان المحيطون به معروفين لنا لقد رحبوا بنا على ظهر الباخرة الامير — متوسط الطول ، اسود الشعر بلحية قليلة الكثافه . ملامح وجهة دقيقة ، ونظراته ذات تامل ، صوته هادىء وذى جرس صادق يبتسم له كل الوجهاء ببشاشه وانسجام يلوحون بالمراوح بانتظام ، يدعونا الامير للجلوس ، ثم يقدمون لنا الشربات والقهوة التركية ، يبدأ الامير الحديث ، وللاسف اسمع حديثة عبر المترجم ، لم يكن بمقدوري التقاط خصوصية حديثة الاحتفالي ، ولهذا فاني ساكتفي بالنقل الموثوق لمحتوى حديثة .

سيف الإسلام والبلاشفة الوافدون

قال الامير — نحن نعرف عن روسيا السوفيتيه ، وانه بفضلها نجحت تركيا في النضال من اجل الاستقلال ، نعرف ان لديكم اهتمام باقامة علاقات حسنة مع شعوب الشرق .

ينظر كل منا للاخر باهتمام ، فالوضع فرادته : هو – ابن رأس السلطة الدينية – الاقطاعيه لليمن ، خلف اقدم السلالات الملكيه في العالم ، التي تدعي نسبها الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، عليه عمامة ولباس حريري يتحدث بلغة القرآن الموزونة المنظمة ، المليئة بذكر الله ومقتطفات من الكتب المقدسة – ونحن – الواصلين لتونا الى هذه الارض – ننتمي الى الوطن الاشتراكي الشمالي البعيد ، البعيدون كل البعد ومن كل النواحي عن محدثنا ، نحن مبعوثي سلطة العمال والفلاحين ، ولاول مرة يلتقي وجها لوجه بلاشفة روس وممثلوا الارستقراطية اليمنية القديمة ، وبينما كان الامير يتحدث كنا نحن وجلساتنا نتبادل النظرات ، وكانما لدى الجميع فكرة واحدة – عن الطريقة غير المألوفة ، التي التقى بها ممثلوا عالمين مختلفين الى ذلك القدر من الاختلاف مظهرا ومسافة ، زمنا ومحتوى .

لكن الصيغ الدينية التي يتحدث بها الامير بدأت تتضاءل قليلا قليلاً وتحل محلها الصيغ السياسيه المألوفه لدينا تشق طريقها ، وشيئا فشيئا بدأنا ندرك ان اخبار واخلاق وطننا وصلت حتى الى هنا الى اليمن المهجورة العائشة في مرحلة ما قبل التاريخ ، انعكست بغرابه عبر النفسيه الاقطاعيه الاكليركية الاصيله مكونه تصورات فريدة خاصة عن بلدنا ، وبدأ شعورنا انه حتى الفئة الحاكمة تميل الى اعتبارنا وكاننا معاريف وتنتظر لنا بقدر كبير من احتياطي الامل والثقه ، وانه سيسوى مع الزمن كل الفرق الهائل بين الوجود التاريخي والاجتماعي لبلدينا .

وبعد ان تحدث الامير عن التجارة ، وبعد ان وعد بانه سيساعدنا على رواج بضائعنا ، بدأ الامير يستفسرنا بالتفصيل عن الوضع العالمي ، آخذا بلدا بعد بلد ، استعرض باهتمام الصور الفوتوجرافيه التي جلبناها ، وفي الاخير وجه مجموعة من الاسئله عن الوضع في الاتحاد السوفيتي ، ونضطر ان نعيد له رواية وجهة نظرنا حول الاحداث في الصين وجوهر الخلاف مع التروتسكية (لم يعرف هذه الكلمه بالطبع ، ونحن لم نعرف بسرعة ما الذي كان يقصده) ، يسأل حتى عن " قضية المنجم " ومصير المهندسين الالمان في الوقت الذي لم نعرف فيه نحن الا في الباخرة عن طريق اذاعة التقطت الصدفة بان قضية المنجم " قد بدأت "

وفي نهاية حديث سيف الاسلام – هذا هو اللقب الرسمي للامير – يقوم بمحاولة خطرة لمد جسر بين وجهتي نظرنا ، ويقرر قرابة الاسلام مع البلشفية ، والقرآن مع برنامج الحزب البلشفي .

– ان نبينا ايضا قد دعى لضرورة المساواه والاستخدام المشترك للارض وحرم الربا وعاش فقيرا ... اما نحن فقد ابتعدنا عن الدخول في جدال عن المواضيع الدينية .

ثم تتبادل الاراء حول بعض القضايا الاخرى وينتهي الحديث ، يقول لنا بان السفر الى صنعاء مرتبط برغبتنا فقط ، علينا تحديد يوم السفر وسيقدم لنا كل وسائل الحركة مع حراسة ومرافقين . نعود بالكاد واصلين الى البيت ، ومرة اخرى نرتمي منهكين على الارائك والاسرة يبدو اليوم طويل للغاية لفيض الانطباعات ، نجلس للعشاء على ضوء مصباح الكروسين الباهت

الجاسوس المفضوح

... كل شيء يبدو جيداً ، لولا هذا المترجم الذى لا يطاق ، فؤاد المصرى يقعد معنا بلجاجة ، لا يبتعد عنا حتى اثناء العشاء ، يلح باسالته الوقحه بما فيه الكفاية يحاول ان يعرف كل ما تحدث به بعضنا البعض يعرض خدماته بالحاح في البحث عن مقر دائم لشركتنا ، نحاول ان لا نعيره اهتمام ، لا نتحدث معه لكنه يظل جالسا بثبات ، وباصرار حتى نبدأ بالتهيؤ للنوم .

ننام تحت هدير الامواج الذى لا يهدأ ، وتحت ملاطفة النسيم البحرى الذى يخفف انحباس الهواء الذى لا يطاق في اليوم التالي ياتي امير الجيش قلقا ، يبلغنا نصيحة الامير بعدم التحدث مع احد حتى عن اصغر الاشياء الجدية ما خلاه ، الحديدة تعج بالناس المشبوهين ، فالمترجم فؤاد مثلا ليس مترجما للمحافظ على الاطلاق بل هو عامل جمرك ذى علاقات غامضة ، ماكاد ينهي كلامة ، حتى يدخل فؤاد الغرية مندفعا متهللا مختالا ، وعلى فمه ابتسامه راضية وكأننا معاريف معه قدماء انهال علينا .

– اية ، ايها السادة ، بالنسبة للمقر ... فلقد وجدت لاجلكم مكان ...

يسقط نظرة على وجه امير الجيش القاسي الشبيه بالباشق ، فينكمش وينحني ، يسمع الي كلمة ما قصيرة تجعلة ينكمش اكثر ، ويطير غير مكمل عبارته التى بدأها .

نعلم بعد بضعة ايام انه سرح من الخدمة ونفي الى جزيرة كممران المحتلة من قبل الانجليز ، لم يبقى لنا سوى التحسر على علبة الكافيار ، التى تقاسمناها معه من اختياطنا الضئيل ، وعلى فيضان المشاعر في اليوم الاول ، وعلى كل حال فإن نفية لم ينقص سوى قطرة من بحر الدسائس الاجنبية التى تغمر اليمن الصغير ، وقد حدثنا بعض الشخصيات اليمنية فى صنعاء فى وقت متأخر :

فى الأذقه الخانقة بالحديدة

يوم ، واخر نتجول فى شوارع الحديدة ، نحاول التقاط نبرة وايقاع المدينة المجهوله .

شوارع ضيقة ، عتمه ، اختناق ورطوبة ، تحت السقائف القشيه والخشبية فى السوق ، بجانب الاكياس والسلال ، يجلس ناس معممون انصاف عراة يلوحون باعياء بما يشبه المراوح اليدوية ، وفى الاكياس بصل وبطاطا ، تمر جاف مغطى بالعفن ، قشر البن ، دخن ، ذرة ، تجلب التمور من بلد الرافدين ، اما كل ما عداه فهو انتاج زراعى محلى .

فى صفوف الاقمشة ، – اقمشة هدية فخمة ، ديباج مخيط بالفضة ومطرز بالاحجار الملونه ، والى جانبها تسقط المتاع ، اقمشه يابانيه رخيصة من صنع شانخاى وتشكيلة من كل انواع الاقمشة هندية خفيفه والمانيه – ونمساوية وايطالية وانجليزية من صنع مانشستر ، وبالطبع توجد مصنوعات يمنيه خالصه مثل السجاد الخشن من الخيش ، الحواشى ذات اللون الابيض والاحمر اللون الاحمر الخالص تصنع من القطن المحلى وتصبغ باصباغ نباتيه محلية .

ومن البضائع الاجنبية التى تلفت النظر : الدقيق الهندى الابيض الذى يصنع منه خبزاً شهيا بأرغفه النشاء ، بدون طعم يجف خلال بضعة ساعات السكر من يافا وتشيكوسلوفاكيا ، الكروسين من كل الشركات : " ستاندارت اويل " ، " شل " وحتى " فيوميه " من ايطاليا ، كلها تتنافس مع بعضها البعض فى ازقه الحديدة الضيقه ، الكروسين الايطالى هو فى حقيقة الامر من مدينة " باتومى " السوفيتية لكنه مخفف فهو لا يصلح لشىء .

السوق

بائعو الخضار ، القشامون ، بائعوا البضائع الصغار – كلهم من العرب المحليين ، اما الاقمشة بشكل عام البضائع الاجنبيه فتيصرف بها الهنود غالبا ، هؤلاء الهنود – وعددهم يقارب المائة كلهم تقريبا من مواليد سرات ، تلك المنطقة الهندية ، التى عرفت بادىء ذى بدء فى تطور الصناعه الوطنية الهندية انهم من المسلمين وكلاء شركات بومباى وهم على ارتباط بها بواسطة فروع عدن ، لحى كثيفه عريضه ، اطواق على الرأس تجعلهم يتشبهون باليهود ، لكن هذا ليس سوى خداع النظر ، تتركز التجاره الخارجية فى الحديدة بايدى الهنود ، اما التجار

تنهق الحمير وترغي الجمال ، المعدمون يمدون ايديهم يطلبون الصدقه ، يظهر المجانين والبلهاء المنفردون هنا وهناك يصرخون بعبارات غير مفهومة ، تدق مكائن الخياطه ، يخشخش البن على المناجل والمذارى ، يتصبب العتالون السود عرقا ، ينقلون الاكياس من المخازن على الشاطيء ويشحنونها على الصنابيق ، وينقل مالكو القوارب الحمولة الى ظهور البواخر الراسية بعيدا عن الشاطيء .

في المساء تضيء مصابيح الكروسين تحت العقود الضيقة لسقائف السوق ، يبدأ تلألأها بشكل اكثر غرابة واثارة لزخارف الاقمشة الهندية ، والاكياس الشوهاء لقشارة البن ، والطباق الطويلة لاوراق التبغ الجاف المفروشه على المناضد القذرة في الدكاكين ، فترة الغسق قصيرة وسريعا ما تحل ظلمة حالكة ، تغلق الحوانيت ، تصر بوابات السوق الرئيسية المتداعية عند اغلاقها ، يظل الناس جالسين في المقهى ، في الساحة على مقاعد وسخه من القش ، والباعة ، العساكر ، الموظفون يظلون حتى ساعة متأخرة من الليل يدخنون النارجيلة ويشربون القهوة القشر او الماء البارد براحة الكف .

الى الشمال والى الشرق من السوق ، وخارج جدرانه معزول بخط عريض ، ليس بشارع وليس بارض خالية ، يمتد الحي " الصناعي " يسمى — سوق الهنود ، هذا السوق الذي يتميز بانه لا يوجد على ما يبدو فيه ولا هندي واحد ، يشبه " مدينة الصين " السوفيتيه ، التي نادرا ما تلتقي فيها بصيني واحد ، هناك ايضا سوق صغير لكن حوانيته اكثر بؤسا ، وفي اكثر اطرافه الاكواخ الصغيره من الطين والزجاج المكسر المغطاه بالقش ، ومحاطة بحواجز مجدوله من القش ، وفي هذه الاكواخ — الخيم تتكدس الصناعة اليمنية الجنينية بعمل النساجين البدائيين .

كلا ، ليست هذه معامل ؟ فوراء الحواجز لا توجد اعمدة الدخان ، ولا تسمع حتى دقات المغازل ، لكن يمكن رؤية شخصين نصف عاريين قاعدين على الارض يترامون بالتناوب بمكوك خشبي عبر صف من الخيوط المشدودة ، هكذا يتشكل النسيج الخشن بالتدريج ، ثم يصبغ في المصابغ بطريقه يدوية باللونين الاحمر والازرق . ويسبت بضربات قوية من مداق خشبية غليظة غير منجرة ثم يفرش تحت الشمس . يمكن احصاء ما يقارب العشرين من هذه الاكواخ في الحديدة ، وهذه هي جنين الصناعة الخفيفه لليمن . اما الصناعه " الثقيله " فهي ، في القسم البحري للحي الموجود خارج المدينة حيث يوجد كوخان او ثلاثة . تتقد النيران على الارض ، وفي المجمرة ، ينفخ على الفحم من قرب عبر انبوبتين (*) يجلس شخص القرفصاء يحاول

(*) — يقصد الكاتب كير الحدادة

مساعدة هذا " الفرن " البسيط باصلاح المسامير القديمة ، القوالب ، ترميم الاشياء المعدنيه هكذا هي " المتالورجيا " المحليه .

السفن القديمة

وهناك ايضا - بناء السفن ، في المكان الفحل من البحر يقف هيكل قارب وحيد لم يكتمل بناؤه ، وبجانبه يتحرك مجموعه اشخاص يدقون الالواح ، يثبتون الدفه ، وبالقرب - عصى والواح واخشاب ، خمسة او ستة قوارب تتراقص على الامواج ، وبجانبها عشرة صيادين شبكة الصيد ، وعلى الرمل يجلس عجوز عارى يرمم شبكة قديمة ، هذه - صناعة السفن المحلية واستخراج السمك ايضا .

الساحل - هو افضل جزء في المدينة ، مهواء بنسيم البحر ، هنا تقع افضل المنازل ، وان لم تكن فخمه فهو مع ذلك الاكثر اعتبارا ، بهجة تطل على البحر وهنا توزعت كل الشركات الاجنبيه تقريبا : شركتان او ثلاث شركات أيطالية ، وشركة يونانية ، وشركة مصرية ، وشركة فرنسية يمثلها احد السوريين ، الذي حافظ غريزيا على اليافطه القديمه لشركة سفن فرنسيه ، تلك الشركة ، التي لم تعبر الحديده ولا واحده من سفنها منذ زمن طويل ، يهدف نشاط هذه الشركات الى شراء البن وتصديرة الى الخارج بشكل رئيسي ، وخدمة البواخر الاجنبية التي تمر في الميناء ، هكذا ينمو رأس المال الاجنبي ، الذي لا يجد اصل في اليمن ، لكن حتى هذه الشركات فانها على ما يبدو في طريقها الى الاندثار ، نظرة سريعة واحده تقول لنا بأن التصور القائم حول التأثير الايطالي القوى في اليمن ، هو من صنع الايطاليين انفسهم بشكل رئيسي ، وقد تعزز هذا الانطباع بعد حصولنا على الاحصائيات الجمركيه في الحديدة .

رأس المال الأجنبي

واذا تحدثنا عن دور راس المال الاجنبي في اليمن ، فانه يجب وضع التجار الهنود الذين سبق ذكرهم في المرتبه الاولى ، انهم حملة التوسع التجارى - الصناعي الهندى ، الذى لم يجد امكانية للتطور في بلده المستعمر ، بسبب كبته بالاضطهاد الامبريالي الانجليزى ، يقتدون بمثالهم الرأسمال الصيني ، الذى يهرب من الصين الى جزر زوند ، وسيام والهند الصينية ، وهكذا فان الهنود يرحلون الى اليمن ، والمصريون الى الحجاز ، يزاحمون في قاعدتهم

الوطنية ، من قبل الامبرياليين الاجانب ، فيسعون الى ان يعوضوا انفسهم على حساب الشعوب الاكثر ضعفا .

تبرز المحطه التجاريه للبن ، بين المشاريع العربيه التي ترمز الى نمو الراسماليه الوطنية اليمنية ، تلك المحطه الواقعه على الرصيف ويملكها عمر المزجاجي اكبر مصدرى البن ، كما يشاهد " فندق " حكومي للضيوف الاقل الاكثر وجاهة .

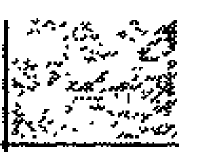
اخيرا فان اجمل بيت و هو بيت المحافظ ، الذى اسكنونا في احد طوابقه كعلامه تشريف خاصة هذه المرة ، هذه البيوت ذات طراز واحد : ثلاثة او اربعة طوابق بيضاء ، تكعيبات مختلفه من النوافذ ، سقف غالبا ما يكون مقسما الى غرف تغطيها السماء بدلا من السقف ، التقسيم المعتاد للبيت — تكون الغرف المأهولة بالسكان في الطوابق العليا ، والمخازن ومساكن الخدم والحرس والمكاتب في الطوابق السفلى ، ولكل بيت فناء داخلي ، ويشكل سور البيت ، شرفات داخليه وسلالم متعرجة ، ومن ضمن المنازل الموجودة في الساحل — بناية خشبية صغيرة والى جانبها مقهى — ادارة الميناء وفيها مركز نشاط مدير الشرطه ، الذى يقوم بالمحاكمة والقمع في الحال ، هو الذى يستجوب المتهمين ويعاقبهم بيده ، اما بالسوط ، او بقبضته وذلك حسب الظروف ، بدون بيروقراطيه او مماطلة ، زد على ذلك يتم بوجود رقابه "رقابة جماهيرية " . كل شيء يتم امام اعين الجمهور المتجمع عند الرصيف .

وعلى جهتي الحديدة ، الى الشمال والجنوب منها قلاع صغيره مسقوفه ، وابراج وحاميتان : — هذه القلاع — للدفاع عن المدينه من القبائل الغير مأمونة المحيطه بها : يختفي النمط العسكرى في الحديدة صباحا ، وذلك بانتعاش تجارة السوق ، اما في المساء ، حين يهدأ السوق ويخرج العس الى الشوارع يحرسون مداخل ومخارج المدينة ، فان النظام العسكرى يلمس بكل اكتماله .

يسرع الساهرون الى بيوتهم تحت صرخات العسكر ، اما عابرى السبيل المتأخرين ، فلا يسمح لهم بدخول المدينه الا بعد مباحثات وتوضيحات مطوله .

وحتى الصباح يذكر العسكر بانفسهم ، باقامة السير النظامي في الاعياد في الساحة وبعد الصلاة في المسجد وهذا تقليد باهت للاتراك ، وكذلك مرتين كل يوم بعد انتهاء ساعات القات وبعد غروب الشمس ، تنتظم جوقه نحاسية امام البيت الذى يسكن فيه الامير ، وفي تلك اللحظة تدوى باصوات حادة ثاقبة بالمارشات العسكرية التركية ، خارقة بذلك السكينة الناعسه للازقة .

وعند الفجر فقط ، حين تغطس مجموعة من القامات العارية التى تستحم منفردة فى مياه الامواج ، حين تقلع صنابيق الصيادين من الشاطىء ويصبح برميل الماء الذى ينقله الجمل فى الشارع متوقفا عند كل بوابة - يذهب العسس وتبدأ الحياة الطبيعية فى الفليان .



الباب السابع

* ليلة ضائعة فى تهامة
* على سيارة إلى باجل
* الفئران الطائرة
* الرهينة
* جيكوب

ليلة ضائعة في تهامة

نتجهز ، نتفرق إلى مجموعتين ، اثنان يذهبان إلى صنعاء واثنان يبقيان في الحديدة . الأشياء قد حزمت على الجمل – الذي سيسبقنا بنصف نهار ، الجمال تسير ابطء من البغال لكنها أكثر انتظامانستعد للرحيل على البغال ، تفرد لنا حراسة بأمر من سيف الإسلام ما يقارب درزينة من العسكر تحت امرة شاويش ، في المغرب نقوم بزيارة وداع للأمير ، ونستمع منه إلى نصائح قصيرة حول كيف ومع من نتحدث في صنعاء ، نتحرك برفقة حرس المشاة ببنادقهم المعلقة على اكتافهم ، يخرج معنا رتل من المودعين إلى خارج حدود المدينة ، يطوير العسكر الواحد بعد الآخر ، يبتعد المودعون ، ها هي البغال تسير بانتظام تتناوب ارجلها غير المنعلة لتحملنا على السطح المظلم .

تبتعد واجهات البيوت البيضاء عميقا ، يخف لمعان البحر ، تترامى المساجد ومراكز الحراسة ، واكواخ مشارف المدينة ، بضعة نخيل ، وها هو التبخر الخانق للسهل الرطب يلفنا . لا شيء في الامام ما عدا اشباح التلال الرملية ، نشاهد اكمة الحسك على الجوانب ، وبالكاد نلحظ خطوط الطريق الضائعة في الرمال ، ومن بعيد نسمع نباح كلاب البدو التي تحرس قطعان الجمال المتجولة التي يلفها الظلام الدامس .

يرفع العسكر اصواتهم باغنية ذات نمط واحد وهم سائرون ، تلك الاغنية التي يبدو ان لا احد يفهم كلماتها ، بل وليس معروف ان كانت هناك كلمات ، يمكن فهم كلمة " الله " فقط في بلبلة الاصوات الحجرية المبهمة ، الصحراء صامتة بحذر تضمنا في مسساكها الخانق الساخن ، تبدو في السماء نجيمات اربع موزعة على شكل صليب صحيح قريبة من الافق الجنوبي ، تؤكد مجموعة النجوم " الصليب الجنوبي " مرة اخرى اننا لسنا بعيدين عن خط الاستواء ، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من الاراضي السوفيتية لسنا اول بلاشفة فقط ، بل واول روس يسيرون في مجاهل هذا البلد الذي يبدو بشوشا مضيافا والذي لم يرانا ولم نراه .

على سيارة إلى باجل

يهدأ نباح الكلاب البدوية قليلا قليلا ، يلتحق " الصليب الجنوبي " بالسحب ، ثم تغطي كل السماء بالسحب ، في هذه الظلمة ، حيث تسمع نبضات القلب وتحس بتوتر اعصاب الصدغ ، وبحدة متميزة نشعر بأنفسنا شرارات الثورة العالمية التي تطايرت حتى إلى هنا ، إلى البعد السحيق الصحاري العربية الجنوبية .

نسير ساعة ، ساعة أخرى وثالثة ، وفي الظلام تتراءى ملامح آبار الماء ، حفر كبيرة عليها حائط من الطين ، يملىء العسكر الزمزميات ، يشربون الماء بشراهة ويقترحون ان نعمل مثلهم ، تمتد الايدى بلا ارادة لعلبة الصفيح المغرية والممدودة بكل تسكرم ، لكن فكرة احتمال ان يكون هناك ، في قعر البئر هيكل عظمي لجمل ، (ومثل هذه الحادثة ليست نادرة) يمنع الشفاه الجافة من المياه الوسخة العكرة رغم اغرائها ، نتحرك ، تضيق الممرات وكأنها قد اختفت كلياً ، تبدأ البغال الخطو على الرمال اليابسة مخترقة الشجيرات الشوكية احياناً ، نبدأ التخوف من ان نكون قد اخطأنا الطريق ، لكن هل يمكن الشك بـ " ابناء الصحراء " في معرفتهم طريق الحديدة – صنعاء ؟ نتذكر الحكايات عن مقدرة البدو على معرفة الاتجاه بواسطة الحشائش ، النجوم ، هبوب الرياح وآثار الحوافر ، يبدو ان الشك في امانة قيادتهم نوع من التجديف ، يعدونا بالتوقف بعد ساعتين ام ثلاثة ساعات ، في قرية تمنه الصغيرة ، التي تقع في منتصف الطريق بين الحديدة ومركز باجل الكبير ، يوجد في تمنه اسرة ، ماء ، قهوة القشر الساخنة ، هناك تنتظرنا فترة استراحة طالما اشتقنا لها ، وبالفعل سرعان ما ظهرت اضواء بعيدة .

تحث البغال الخطى سائرة خائرة في بعض الاحيان ، يوضح لنا العسكر بان تمنه ترى في الامام نشد على اسناننا بقوة لكبح الانهاك اللامحدود من الارتجاجات والحر والعطش والكتمة والرشح نشعر بأنفسنا كبيض غسلت ضربا بالعصا ، وان كانت قد سيطرت فكرة اننا قد قطعنا المرحلة الاولى من الطريق تقريباً (وبعد زمن عرفنا ماذا تعني كلمة " تقريباً " في اليمن) . تشتد العضلات والاعصاب وكأنها صوملة فولاذية مخفية ، فالاضواء رغم انها بعيدة لكننا نراها في الامام ، ينبسط التموج المتحدب للسهل البعيد ولاجمات الاشجار (كالسلك) والاماكن العارية الجدباء وأحجار الملح المتبخرة تصير الاضواء اكثر فأكثر اغراءا ها هي الحزم الضوئية تتلألأعن قرب وكأنها صادرة عن كشاف ضوئي احترنا ، من اين مثل هذه الاضواء الساطعة في قرية بدوية نائية لا توجد في أية خريطة أوربية .

الاضواء اكثر فاكثر سطوعا ، ولم يبقى للوصول إلى القرية سوى نصف ساعة من الطريق ، وفجأة يقطع العسكر اشارة التوقف للراحة ، سنستلقي على الأرض التي لم تبرد بعد من قيظ الشمس ، نحلم باننا سننام قريباً على اسرة من الحبال المفتولة ، وقرب الصباح سنكون قد وصلنا الى باجل التي تقع وراءها الجبال الباردة ، منابع الماء البارد وصنعاء المشتهاة .

لكن العساكر يتهامسون فيما بينهم طويلاً وبشكل مثير للريبة ، يقترب رفيقي منهم ، يقولون له : امامنا الحديدة ... انذهب اليها ام نرجع مرة اخرى الى السهل ؟

يتضح فعلا باننا قد اخطأنا الطريق ، وذلك لان العسكر في بحثهم عن طريق مختزلة ، التبس عليهم الامر ، وبعد ان قطعنا خطا منحنيا في الصحراء الى حيث انطلقنا ، ولم نفهم خطانا الا ونحن على مقربة من اسوار الحديدة ، حيث كنا قد رحلنا منها قبل اربع أو خمس ساعات ، تاثهون سدى في قيظ تهامة المضنى .

ان موجة الغضب التى اجتاحتنا امام هذه الحقيقة القاسية والواضحة غير قابلة للنقل او التعبير وما كان يمنعنا من ابداء مشاعرنا إلا ادركنا لمهمتنا السامية ، وتخوفنا من أن تكون بعض الكلمات الروسية معروفة حتى لأبناء الصحراء ، فتسيء لسمعتنا .

لقد كان طلب توضيحات من العسكر أمر زائد عن اللزوم ، وعلى كل حال ، فإنهم كانوا قد ردوا على كل هذا بجواب مفحم : " هذه مشيئة الله " . حتى أن مجرد التنفيس وافراغ ما في النفس كان صعبا وكان العتاب واللوم ممنوعا ، وذلك لأن دليلنا كان منهك القوى ومملوء بحالة احباط واستسلام نفسي ، كما أن ذخيرتي من اللغة لا تتعدى كلمات : " جيب ماء " ، " الحمد لله " ، وكذلك " السلام عليكم " و " بخشيش " . وكل هذه الكلمات لا تصلح لهذه اللحظة أو للغرض الان ، فالماء قد انتهي عند العسكر ، وشكر الله أقل ما يناسب الظرف ، ولا يوجد أحد لنسلم عليه ، ويبقى فقط معاقبة العسكر بحرمانهم من " البخشيش " ، تعزية خفيفة لضياع أيام ، وليلة ضاعت سدى بدون نوم .

– أمر جيد بأننا رجعنا إلى الحديدة ، أما لو كان سيرنا يمينا إلى الجنوب ، لـ " وقعنا مباشرة في يد الزرانيق " .

والزرانيق – هي قبيلة تقع على مسافة خمسة عشر أو عشرين كيلومترا إلى الجنوب من الحديدة ، وقد انتفضت على الامام بتحريض من الخارج ، ولو وقعنا في قبضتهم ، فإن عساكر الامام كانوا سيقتلون بلا شك ، أما نحن ضيوف الامام فكانواسيحطمون عظامنا أو ربما شيء آخر ، ونضطر لأن يكون هذا عزاؤنا .

ندخل إلى شوارع الحديدة الخالية ببطء مرهقين ومشعثين ، ينادى علينا الحرس انصاف النائمين ، ويستمعون حاشرين لشرح عسكرنا ، نصل إلى البيت نتهالك في غرفنا (غضب رفاقنا الذين بقوا في الحديدة بفتور وقد كانوا نائمين) وشرب كل واحد منا – وهذا اربعهم أكثر – سبع أو ثمان من قوارير المياه المعدنية . ثم نرقد بعد ذلك ونحن في غاية

الاعياء بعد أن حصلنا من الشاويش علي وعد بأن المحافظ سيسعى فى الصباح لتجهيزنا بسيارة ، ننام وملىء اذاننا المثل القائل " ثق بنفسك فقط ، ولا تثق حتى بالعربى فى الصحراء " . (١)

نفذ سيف الاسلام وعده ، وتتخذ اجراءات ما بطولية لتجهيز السيارة ، وفى الساعة العاشرة تقريباً من اليوم التالى ، نرحل على سيارة غريبة الشكل تنهب الصحراء تحت شمس الظهيرة المنصهر (إلى باجل) ، ومع ذلك فى خلال ثلاث – أربع ساعات .

والسيارة التى أعطيت لنا هى عبارة عن سيارة نقل بسقف مركب ، ومثبت بداخلها مقاعد خشبية مليئة بصفائح الماء ، الذى يجب أن يصب على المحرك المكشوف الساخن كل خمسة عشر أو عشرين دقيقة .

وهذا العمل يشد الصمولة فتندفع سحب البخار ، الذى يفح ، فيصب عليه الماء من الصفيحة فوراً السائق سودانى شأنه شأن أغلبية العمال التقنيين فى الحجاز واليمن . يتطلب الأمر الخروج من السيارة أكثر من مرة ودفعها بجهود مشتركة تنتشلها من الرمال الحارقة .

تكون الطريق فى البداية محاذية لشاطىء البحر ، نشاهد فى البعيد تقاسيم شبه جزيرة ونخل متمايل ، لقد نوى الفرنسيون قبل الحرب مد سكة حديد من شبه جزيرة رأس الكثيب إلى صنعاء وقد بقيت فى الحديدة قاعدات عربات صدئة مرمية هنا وهناك كذكرى لتلك الطريق ، وبعد نصف ساعة نلف إلى الشرق مباشرة ، قاصدين أشباح الجبال البعيدة البادية فى الأفق ، نقطع تهامة ، تاركين إلى اليسار الطريق الشمالى لليمن تلك الطريق التى تؤدى إلى مناجم الملح الحجرى فى الصليف وإلى ميناء اللحية والميدى .

تهامة – هكذا يسمى القسم البحرى من اليمن والممتد من الشمال حتى الجنوب من حدود البلاد ونقيض تهامة فهى الجبال ، ويضم القسم الجبلى من اليمن الجزء المركزى والأساسى فى

---

(١) هذا المثل غير صحيح ، حتى فى هذه الحالة ، فالقضية تكمن فى أن مرافقينا من العسكر كانوا من سكان الجبال ولهم فترة قليلة فى تهامة . وتحت تأثير الجهل الاوربى فقط يمكن احتساب كل العرب " ابناء الصحراء " وبدو الصحراء هم من البدو الرحل فقط ، اما ما يتعلق بالفرق بين الجبل وتهامة فيمكن أن يشهد على ذلك حتى تقسيم الجمال فى اليمن إلى جمال جبلية وجمال صحراوية والفرق يشير إلى كيف يكون الجمل فى الصحراء أو العكس . (المؤلف) .

البلاد . أما القسم الثالث – فهو ما وراء الجبال الذي يمر عبر الصحراء وهو قسم معزول نادرا ما يكون مأهولا بالسكان وأهميته ثانوية .

وتهامة في قسمها الملاصق للبحر مباشرة هي عبارة عن سهل فسيح ، من قعر البحر المتبخر بتلاله المتجمدة الشبيهة بالأمواج ، وأشجار الساكسول النادرة على قمم التلال ، ونادرا ما تخرق سيول المياه هذه الأرض القاحلة ، وواحات من بعض نخيل غير مثمر أو قطعان النعاج والجمال التي ترعى ، يصادف في الطريق بعض المسافرين المنفردين على بغال أو على الحمير ، قوافل من عشرين جمل تحمل أكياس البن . وفي النادر يتراءى شبح غزال رشيق أو أرنب يركض فزعاً من هدير السيارة ، وهكذا نمر على نمنة ، التي اتضح أنها قرية تتألف من أربعة أو خمسة أكواخ من القش ، متجمعة حول بئر صغيرة ، والمساء المشتهى لم يعد الآن ضرورياً ، لذا فنحن نسير بلا توقف ، وراء نمنة تبدأ المنطقة بالانتعاش تصير الجبال أكثر وضوحا ، ولم تعد الرطوبة البحرية الخانقة ملموسة ، ونشاهد قرى كبيرة فيها من أربعين – إلى خمسين كوخ أو أكثر ، ويحيط الأطفال السمر الصغار بسيارتنا جماعات حين نتوقف لصب الماء في المحرك ، نرى حقول الذرة والشعير ، بدأنا نصادف سيقان الاثل المعوجة ، كانت هذه الاشجار في البداية منفردة ، ثم أصبحت بأعداد كثيرة ، مبعثرة في السهل ، كالجنود في شتى الاتجاهات ، كنا نعبر أحياناً مجرى نهر قد جف وتحجر ، يجري فيه سيل صاخب في وقت نزول الامطار ، لكنه يجف مرة أخرى بعد بضع ساعات ، ها هي الجبال تصبح قريبة جداً ، نجتاز أول مجموعة منها ، نقترب من باجل .

أصبح أصعب قسم من تهامة وأكثرها كآبة في الخلف .

الانطباعات عن هذا القسم ليست مسرة للغاية ، من الواضح أن هناك سكان حضر ، ولا يوجد هناك رحل تقريبا ، توجد هنا زراعة المحصولات – كل هذا يشكل عوامل تفوق على الخلفية العربية العامة الكئيبة ، ويميز هذا تفوق تهامة على الحجاز .

ومع هذا كله ، كم هو بعيد حتى عن مفهوم " العربية السعيدة " كما اعتبرها الرومان القدماء . ان كل ما نراه من المساحات ليس أكثر من سهل ذاو وشحيح تحرقه شمس حارة خانقة . يعتبر هذا القسم أكثر أقسام اليمن تخلفا اجتماعيا ، فالتقسيم القبلي يلمس هنا بكل حدة ، تقبع الاقطاعية في أول مراحلها ، وبالكاد تفقس قشرة العلاقات البطريركية – العسكرية والقبلية ، والشعور بالقومية العربية ضعيف هنا ليس بحكم الاسباب الاجتماعية المذكورة فقط ، بل وبحكم العوامل الاتنوجرافية أيضاً . يلاحظ على السكان اختلاطهم بالدم الافريقي ،

ويلاحظ تأثير افريقيا على الشكل العرقي ، ويؤكد ذلك اللون الشديد السمرة للبشرة ، الوجوه العضلية بالشفاه الغليظة . أن الغزاة الأحباش ، قد كانوا أول من أيقظ الوعي القومي عند العرب ، كما قال ماركس في زمانه (بالاصح سكان جبال اليمن) ، لكن الاحباش كما هو واضح قد تركوا آثارهم الاتنوجرافية على شكل المباني المهدمة في الجبال ، وعلى الجنس أو العرق التهامي في الساحل ، ان هذا التفرد الاجتماعي والاتنوجرافي لتهامة يجد تعبيره في الدين : كل القبائل سنية في تهامة ، في حين ينتمي سكان الجبال إلى المذهب نصف الشيعي – الزيدية في نفس الوقت ، وكانت حصيلة هذه الخصائص بالاضافة إلى عوامل كثيرة أخرى ذات صفة اقتصادية (سنتحدث عنها فيما بعد) قد أدت إلى ثنائية معينة في تركيب اليمن ، فقد لعبت تهامة دورا ملتبسا بما فيه الكفاية في قضية توحيد اليمن ، لقد عملت الامبريالية كل ما في وسعها لاقتطاع تهامة من اليمن ، وفي عام ١٩٢٥ انضمت تهامة تحت لواء الحكومة اليمنية فقط ، كانت تهامة خاضعة للانجليز في أوائل اعوام ما بعد الحرب ، وبعدها خضعت للامير الادريس امير عسير ، لقد لعب الانجليز بمهارة على الاختلافات الدينية بين سكان تهامة وسكان الجبال ، وقد سعوا بكل الطرق لتأليبهم بعضا على بعض ، وهما فرعان لشعب واحد ، ضمت تهامة الى الى اليمن في عام ١٩٢٥ فقط ، وقد تم هذا بمساعدة جيش الامام يحيى ، حيث لم يبقى للانجليز بعدها سوى مساندة ودعم التمردات الانفصالية لقبيلة الزرانيق ، الذين كدنا أن نقع في قبضتهم ليلا .

ندخل باجل ، على اليمين ، فوق المدينة ، يطل جبل مرتفع ، نرى على قمته لون أسود أسنان قلعة قديمة ، تتكون القرية من أكواخ كثيرة مخروطية الشكل مغطاة بالقش ، محاطة بسياج من الاغصان المجدولة موجات غبار جديدة تلفنا ، حين نقطع الازقة الضيقة التي تنعدم فيها الرياح ، نشاهد السياج ، الدجاج ، الصبية ، الجمال المحملة ، الحمير ، تختبيء النساء بعجلة وراء أبواب الاكواخ ، ندخل الساحة الرئيسية ، نتوقف أمام بوابات مبنى ضخم يشبه قلعة بفناء داخلي وابراج في الزوايا ، نشاهد بئرا في الفناء وجمال تستريح ، هذا مقر عامل المنطقة ، وسرعان ما نسمع تحية شيخ ضخم أشيب اللحية ، إنه العامل ، نمر من غرفة الى غرفة حتى نصل الى غرفة الأكل ، حيث يجلسوننا على مائدة طعام أعدت سلفا ، نأكل شيئا ما ، إلا أنه بسبب الحر ، والتعب ، والارق لا يمر الطعام في الفم إلا بصعوبة .

ننتظر بالكاد نهاية الغداء ، نودع مضيفينا ، الذين يذهبون لمضجع القات ، يقودوننا الى مسكن بجانب بيت العامل ، لكي نرتاح بينما يصل الجمل المتأخر مع العفش .

نتوزع على القسم المستوي ، المغطى قسم منه بسقيفة من القش المفتول والمعمول على شكل غرفة ، عملت الاسرة وكأنها [مضجع بروكروستوس] ، كلها بطول واحد بلا إستثناء ،

تنقص الدبع عن قاماتنا تقريبا ، نضطر الى الاضطجاع إما مطويين أو معلقين أقدامنا ، فننام نوما ثقيلا كأهل الكهف .

الفئران الطائرة

نصحو خلال ثلاث ساعات ، يهب القيظ المتناقص لليوم الاول من النافذة ، نسمع صلصلة فوق رؤوسنا بين العوارض الخشبية للسقف تصيح الفئران الطائرة ، تزحف صغار الفئران على الفرمات الخشبية عاجزة أمام ضوء النهار الذي لم ينطفيء بعد ، بينما يوصوص أخرون قابعين في أعشابهم ، أعشاشهم ، تقع الام المستثارة من أصوات الرعب من على العارضة الخشبية مندفعة في الغرفة من زاوية إلى زاوية ، اندهشنا من عدم حب العرب للنظافة ، والذين يسمحون للفئران بالتكاثر على سقف بيت العامل ، وتدهشنا انسانيتهم المتفردة ، في عدم الرغبة في هدم العش وقتل الحيوانات ، ونسمع فيما بعد ان اليمنيين ، لا يحبون الصيد ، رغم انهم رماة ماهرين ، بغض النظر عن توفر الطرائد في شعاب الجبال .

الرهينة

تسمع ضجيج ما في الشارع ، الشارع الواسع المترب على خلفية من المساجد البعيدة ، والأكواخ المخروطية الشكل من القش تتحرك مجموعة من الصبية المراهقين ، تحت حراسة مجموعة من العسكر الحاملين البنادق على اكتافهم ، تضج المجموعة بغير انتظام ، وجوه منتعشة جذابة ، لا تعطي انطباعا بأنهم مجرمون ، وأكثر من ذلك أنهم لابسون ملابس بشكل لا بأس به ، يعبر عدم اكتراثهم النسبي ، عن أن وضعهم تحت المراقبة أمر اعتادوا عليه وصار مسألة طبيعية بالنسبة لهم ، يوضحون لنا أن هؤلاء هم رهائن قبيلة الزرانيق المجاورة ، وأنهم أولاد أو أقارب الشخصيات المؤثرة غير المضمونة من قبائل تهامة ، لقد أخذ هؤلاء الرهائن من قبل الحكومة كضمانة بأن قبائلهم وعشائرهم لن تقوم بعصيان ضد الامام ، وعكس ذلك يعني أن تطير رؤوس هؤلاء الرهائن ، يعتبر نظام الرهائن هذا واحداً من أحجار الزاوية لنظام الامام ، هكذا تسعى السلطة المركزية بفضله إلى اخضاع القبائل التهامية غير المتصاعة لها بشكل كامل ، هذا الشكل الفريد للارهاب ، تقوم به الدولة الاقطاعية الفتية في اليمن ، ساعية لتوطيد كيانها ضد الانتفاضات الانقسامية وسيف التدخل الاجنبي المسلط دوما .

تساق مجموعة الرهائن غير المنتظمة بالغناء والصراخ وكأنها قطيع ذاهب إلى الحظيرة ، تساق عبر البوابات المفتوحة للبناية ، ثم إلى ملجأ المبيت .

تسمع أصوات المزمار الحادة ، والغناء غير المنتظم للاصوات المتعددة للمجوعة ، نتسلق حاجز السقف فنرى ...

العامل الشائب اللحية في عمامة بيضاء ممتطيا جوادا رشيقا ، وحوله صف من الجنود يرددون نشيدا دينيا ما ، يمدح الله ورسوله والامام ، ينتهي النشيد بعد بضعة دقائق ، ويتحرك العامل بهيبته إلى الامام ، يحيط به جمهور مختلط ، يذهب للمبيت في الجبل في القلعة ، فهناك أكثر برودة وأكثر أمان اقترح علينا الذهاب إلى هناك للمبيت ، لكننا عزمنا على التحرك قدما ويدون أبطاء بعد وصول جملنا ، ولهذا اعتذرنا شاكرين .

من جديد تسدل الظلمة الوحشية الحالكة ، يهدأ نهيق الحمير المطوط ، ورغى الجمال الغليظة ، ثغاء ومأمأة الشاة والماعز والمساقة إلى الحظيرة ، لا شيء يرى ، فقط اشباح تلوح مبهمة بلونها الأسود من كل الجهات .

نتحدث مع اثنين – ثلاثة من الضباط ، الذين استقبلونا مع العامل ، يسألوننا عن البضائع الروسية ، عن نوعيتها ، عن ميعاد وصول الدفعة الثانية منها ، يطلبون نماذج ، لكنه بالطبع ليس لدينا منها شيء ، وذلك لأن مؤسساتنا التجارية لم تولي اهتماما لتجهيزنا بأي نماذج دعائية ، ننتقل بعدها إلى المواضيع السياسية ، نعلم أنه وصل طبيب ايطالي من الحديدة إلى صنعاء في اليوم الأول ، ويعتبر هذا الطبيب عملياً ممثل ايطالياً في اليمن ، والطبيب على ما يبدو يسعى لاستباقنا ، وهذا ما سيتم له بالطبع ، وذلك لأنه قد وصل بالسيارة إلى مسافة أبعد من المسافة التي توقفنا فيها ، وفي الوقت الذي سنرحل فيه نحن من باجل على البغال ، وبعد ذلك يتذكر محدثنا :

– احتجزنا في هذا المبنى في الاسر بعثة جيكوب الانجليزية قبل تسعة أعوام .

جيكوب

– جيكوب – انجليزي متخصص باليمن ، وانجلترا لها دروس في كل الدراما العربية ، كأنها ممثل متخصص ، يسمح له باقامة أية حوارات ممكنة ، حتى الخروج على حكومته ، ومع ذلك لا تفقد العلاقة مع البلد العربي الذي يخدم فيها هذا الممثل فقط ، كان يوجد مثل هؤلاء

الخبراء الانجليز لدى كل الملوك العرب : هكذا كان لورانس في فترة الشريف حسين ، وفيلبي في حكم ابن سعود ، وكان جيكوب يحوم حول الامام يحى ، كان تقدم وارتقاء الشريف حسين اثناء الحرب العالمية قد صنع شهرة عالمية للورانس ، وحين ازيح الشريف حسين وجد لورانس نفسه خارج الحلبة ، انتصر ابن سعود ، فإذا بفيلبي هو المطلع والنشيط ، ينام على اكاليل الغار ، نتيجة لنفوذه ، وسمعته التى توطدت ، جيكوب فقط لم يجد لنفسه مستقر ، لقد ذهب جيكوب في عام ١٩١٩ إلى رأس بعثة انجليزية كبيرة ليقوم بالمباحثات مع الامام يحيى ، لكنه في باجل يجد نفسه اسيرا عاجزا من قبل القبائل الناشزة التى قررت عدم السماح له بالدخول إلى العاصمة اليمنية ، في نفس هذا المبنى ، الذى نحن فيه ضيوفاً ، نتحادث بوئام مع نفس اولئك الضباط العرب الذين قاموا بحجز (جيكوب) الذين ظلوا اسرى عدة أشهر في ساحة السقف ، وكأنهم حيوانات متوحشة في اقفاص ، ظلوا يجولون ابناء أقوى دولة في العالم ، انهالت البرقيات المتوعدة من لندن إلى عدن ، وضغطت عدن على الحديدة وصنعاء ملحة على أن يقوم الإمام بالتأثير على القبائل المتمردة ، تطرزت الجرائد العربية المصرية بالرسومات الكاريكاتورية عن " الطيور المصطادة " كما سمى الاسرى الانجليز ، حلقت الطائرات الانجليزية فوق باجل ، لكن الرجال حينها كانوا يلاصقون جيكوب واعضاء بعثته ، وقد اعطيت الأوامر إلى هؤلاء الرجال باطلاق النار على الأسرى إذا رمت الطائرات الانجليزية بقنابلها ، ولهذا لم ترم الطائرات الانجليزية بالقنابل ، وبعد مماطلات طويلة اطلق سراح جيكوب ، وعاد إلى عدن خائباً مهانا صفر اليدين .

مرت الأيام ، نمى اليمن وتقوى ، وخرجت القوات الانجليزية من الحديدة ، بعد اقتناعها بأن الاحتفاظ بقطعة من تهامة ، معرضة في نفس الوقت لوخز الدبابيس المستمر من قبل القبائل المتاخمة لها والدافعة عنها ، وأنه أمر يفوق طاقتها .

خرجوا ، وأعطوا تهامة للادريس أمير عسير .

لكن الاخير خيب آمالهم ، حيث كان مضطرا تحت ضغط القبائل الجبلية المناصرة للامام ، إلى ترك باجل في البداية ثم الحديدة بعد ذلك ، واجتاح السيل العارم بالطاقة التى ايقظت بها المناطق الجبلية ، وانطلق رجال الجبال الرث المنهمكون من مكوثهم القانط في الجبال ، فضغطوا بالحصار نحو الشواطيء البحرية ، نحو العلاقة مع العالم عبر الحديدة نصف المحطمة ، والتى صارت نافذة اليمن إلى أوربا ، وسقطت سلطة أمير عسير بخزى ، واضطر إلى الاختباء عجلا قرب حدود الحجاز وفى اطار امارته الصغيرة العازلة .

وهاهو الآن في عام ١٩٢٨ يصل جيكوب نفسه إلى اليمن الجديد ، الذي صار أقوى ، وصل جيكوب قبلنا بقليل ، وفي هذه المرة يمثل دورا رسمياً متواضعاً ، ويرفقته سكرتير — مترجم وحيدا ، وبعد أن مكث شهرين ، ولم يصل إلى أي اتفاق مع الامام ، رحل قافلا ، قبل بضعة أيام من وصولنا فقط ، وخلال تواجده في صنعاء كان مقاطعا منسيا ، بدأت الغارات الانجليزية من عدن ترمي بالقنابل على المناطق الحدودية الآهلة بالسكان ، تهدف بذلك إلى تعزيز هيبة مبعوثهم ، ولم يفد هذا بشيء مرة أخرى ، ويتحتم على جيكوب من جديد أن يرحل خالي الوفاض ، تحت اناشيد صبيان صنعاء الذين لا يطاقون ، يصرخون بهيجان واحتداد كل مرة يظهر فيها :

— الكلب يسير ، ابيض ، كلب نصراني !

لكننا نعرف كل هذا في وقت متأخر ، أما الآن فنحن متكئون على الاسرة المفتولة نرتشف الشاهي ذي الطعم المالح ، نصغي إلى الحديث المنسق الهادىء من ندمائنا ، مرهفين السمع في نفس الوقت لسكون الليل ، حيث ننتظر الجمل المتأخر .

ها هو الجمل قد وصل ، نسرع في الظلمة الموحشة لما قبل الفجر للتحرك قدما ، نستفيد من برودة الليل .

اضواء الفوانيس المتمايلة ، الايدي الممدودة المتزاحمة لاخذ " البخشيش " — ثم نبتعد راكبين لمواجهة اشباح الجبال تاركين ورائنا اكواخ باجل المخروطية الشكل ، نمضي في غبش الفجر ، نرى جذوع أشجار الاثل المتناثرة بين حقول الذرة الشامية ، نبدأ بالاقتراب قليلاً قليلاً من سلسلة الجبال الضخمة ، التي تطبق على مساحة واسعة من السهل .

ينبلج ، يبرز أمامنا سقط حجري يتألف من طابقين ، وعشرات الجمال ترتعي في القرية ، كانت هنا حامية تركية ، قلعة غير محصنة للحامية التركية التائهة في محيط عدائي في البيئة القبلية ، كأن البلد يجيش ، يعيش حياته الخاصة ، لا يسمح لموظفي السلطان بالوصول ، ولا يدفع الاتاوة ، ولا يقدم مجندين للقسطنطينية البعيدة المعادية لفرق السلطان التي بقيت بمحاذاة شواطىء الحديدة فقط ، والاكثر من ذلك ان تلك الفرق كانت معزولة في قلاع منفردة ، أو كانت موزعة على طول طريق صنعاء ، هذا فقط كل ما امكن تحقيقه في شبه جزيرة العرب الملونة على الخرائط بلون الامبراطورية العثمانية الواحدة .

أما الآن فقد اقفرت قلع الحاميات العثمانية ، فلا يوجد فيها قوات ، وقد صارت مهجورة ، وملجأ لمبيت القوافل العابرة ، تحول بعض الضباط الاتراك الى الخدمة عند العرب ،

وإذا كانت ذكرى الانجليز متمثلة بمباني الحديدة " الفخمة " التي هدمها القصف ، فإن ذكرى الاتراك قد تمثل في هذه القلاع الكئيبة المقفرة ، حيث كانت الحاميات السلطانية وحيدة ، عاجزة عن اخضاع منطقة صغيرة ، لكنها عنيدة .

ليس الان انجليز في اليمن ، بقي اتراك وحيدون يخدمون في جيش الامام ، أو بعض الاتراك الجذائين والخياطين القاعدين بكآبة في دكاكين الحديدة وصنعاء ، تهيج موجة الحركة القومية العربية في كل مكان ، تلك الاماكن التي غمرت فيها بقايا القهر القديم .

تنتقل الطريق إلى واد " واسع ، والبغال تسرع الخطى ، تضرب الارض بحوافرها باتساق باتجاه قرية جديدة ، نرى ملامحها البيضاء من بعيد ، تخضر الحقول بطراوة ريانة ، وتصير سيقان الذرة والشعير أكثر صلابة ، وأغصان مائلة أكثر ، نتحرك قدما نستبق الجمال المنفردة نمرق من ارتال البغال والحمير المسرعة التي نقابلها ، والجبال من كل الجهات .

ها هو اليمن الجبلي يقترب .

الباب الثامن

* نحو الإقطاعية
* بقايا الاحباش قوقاز فى " العربية "
* البغال والخيول

نحو الاقطاعية

اثنان من البلاشفة ، اثنان من الروس ، يمتطيا البغال ، يرافقهما عشرة جنود انصاف عراة مسودون ، يتمايلون بانتظام يسلمون البرادع من حين الى اخر ، نتحرك عبر ممرضيق يتلوى بين الحقول ، قدما اكثر فاكثر في اعماق اليمن المكنونه ، ما زالت الجبال تحيط بنا من كل الجهات بمساحة واسعة ، واشعة الشمس لا تكل وتتصاعد بشدة ، كانها حزم مجمعة في عدسة مكبرة ضخمة ، تحرق الجلد ، كانها خارقة لثنايا الثياب .

نتحرك الى الامام – نحو الاقطاعية – للقاء بلد مجهول ، للقاء المستقبل المجهول ، وبالتدريج ينكشف امامنا هذا اليمن المنعزل المخفي اسراره البسيطة ، ينتصب امامنا بكل بساطته القنوعه العصور الاقطاعيه المبكرة ، لم نرى الاقطاعيه ، في القسم الذي قطعناه – تهامة ، والحقيقة بعد ، ان السكان الهزلاء ، المنهكون من القيظ ، ما يزالون يعيشون بعد حياة قبلية ، بل وحتى حياة عشائرية – بطريركية ، لم يعرفوا بعد اساليب الملكية الخاصة الاقطاعية للارض ، ومع مجيء قوات الامام فقط ، اصحاب الجبال ، بدأت تهامة تربط بالاقطاعية .

لكن حتى تهامة ما قبل الاقطاعية تعتبر متقدمة اذا قايسناها بعائلات الحجاز المترحلة ونصف الوثنية فهناك ، في نجد والحجاز ، التي رأينا طرفها عبر الجدران الطينية البيضاء بجدة ، لا تعيش قبائل باستمرار ، وانما عشائر مشتتة ، وحتى اسر منفردة ، فالزراعة الثابتة التي وصلت الى تهامة تعتبر مثالا هناك ، وهي عمليا ليست " خطة خمسية " واحدة وانما عدة (خطط خمسية) التي يقوم ابن سعود بها بحذر وبدون حزم ، المهمة الاساسية هناك هي : الرعي ، جمع التمر من اشجار النخيل القليلة مهمة ثانوية بصفة صرفة ، نهب القوافل العابرة لجاميع الحجاج غير المنتظمة ، لقد فاقت تهامة اليمن نجد والحجاز بعصر كامل ، اللتان تحجرتا في مستوى القرن السابع الميلادي .

ها نحن نعبر اخر مراحل تهامة ، نبتعد عن شواطيء البحر نسير في منطقة يزيد ارتفاعها بالتدريج ، نستعد لنترك ورائنا المرحلة الثانية (بعد الحجاز) التي رأينا فيها مرحلة من تاريخ البشرية ، وانتهينا منها لنقبل على مرحلة جديدة ، الاقطاعية الخالصة ، يبدو كما لو ان حوافر البغال ترتفع وتقلب صفحة ثقيلة من كتاب التاريخ الذي وقفت صفحاته هنا في الجزيرة ، مصفرة باهتة ، في الباب الاول منه ... نقترب من قرية بحيح .

امامنا اسيجة من القش ، وخلف الاسيجة مساكن ذات سقوف مخروطية الشكل ، ندخل الفناء ، يخبرنا العسكر انه يجب الانتظار هنا حتى حلول برودة المساء .

نشعر ان برودة ورطوبة المساء قد صارت اثرا بعد عين مباشرة ، وما كادت الشمس تبزغ من وراء قمم الجبال المسننة البعيدة ، حتى كانت اشعتها الساخنة تخترق الجلد بسهامها الحادة ، لا يوجد هنا لا ظل ولا ندى ، مع ان هنا ليس الحديدة ، انما تكون الشوارع مبللة فى الصباح من الرطوبة البحرية اللزجة ، لكن لا يغير من الامر شيئا ، هنا يسود القيظ والجفاف .

نتنحى ، توضع البغال في الظل ، دون نزع السرج عنها ، يخفف شد حزام السرج فقط ، يقولون ان نزع السرج مضر بالحيوان ، يقودوننا الى احد الاكواخ الدائرية المحفورة فى الارض وينقلون اليه بعجلة مضاجع " بروكروستوس " .

نشعر بسطوة الليله المؤرقة خاصة تحت اشعة الشمس المحرقة .

محتويات الاكواخ — مقعدان ، رفوف في الاعلى فيها لوازم وادوات . خفان من القش ، سلال على شكل قناني ، كل هذه اللوازم للمظهر ، موضوعة بدون استعمال .

بحيحة — هى اول قرية يمنية ، اينما تحتم علينا التأخر فيها ، وهى قرية صغيرة تتالف من عشرين — ثلاثين فناء ، وفناء حجرى صغير للخفير بقرب الطريق ، الافنية محاطة باسيجة من الاغصان المجدولة وفى كل فناء اثنان او ثلاثة اكواخ دائرية وحظيرة صغيرة للماشية ، والرخاء هنا اعلى مستوى منه في الصحراء الساحلية القاحلة العجفاء ، تركض الدجاج فى الافنيه وتثغو الماعز والخراف ، وهنا وهناك تتجول ابقار حدباء بنتوء على شكل حدبة عند الرقبة .

وراء القرية (المكشوفة كانها على راحة كف) نشاهد الحقول المخضرة ، بيادر عامة ، تنطرح حزم القش ، نشاهد الماعز والخراف ، التى تركض وراء السياج فى المراعى ، وفى البعيد عند سفوح الجبال تبدو اشباح كانها بيوت مشبكة بها ، وابعد من ذلك تبدو قمم الجبال الذاهبة فى السديم والضباب ، التى تعشش وراءها حياة حقيقة ، كما يقولون .

ومع ذلك كله فليس هناك غرابة وغموض فى الشرق خاصة ، الذى يحلم به محبو الجمال ، ربما قليلا من مسحة افريقية ، هذه البيوت الطينية الدائرية بسقوفها المخروطية الشكل ، والادوات المزخرفة من القش ، والناس السمر ذوى العظام الوجنية البارزة ، وكثافة المواشى البيتية الصغيرة — هذه هى الخصائص ، التى متبعا وصف افريقيا بها ، والتى انعكست هنا فى اليمن ، على الجهة المقابلة من ساحل البحر الاحمر ، او بالاصح المضيق الذى كان يفصل القارة الافريقية — عن شبه جزيرة العرب الحارة الواحدة .

بقايا الاحباش قوقاز في " العربية "

من المحتمل ان هذا التشابه ليس محض صدفة فمنذ القدم تعرضت اليمن لنفوذ التاثيرات الافريقية ، وبعد طرد الاحباش ظلت العلاقات التجارية بين الحبشة واليمن مستمرة ، وما عدا ذلك ، فقد جلب الى اليمن عدد كبير من العبيد السود ، كما وصل كثير من السودانيين لممارسة الصنع وطلب الرزق ، هاهي بقايا سيطرة الاحباش ، في نفس الفناء الذي توقفنا فيه ، بضعة نساء حبشيات ، زوجات المالك السابق و والان اصبحن " مالكات فندق " بطريقتهن الخاصه ، تحظى تلك النسوة بشهرة واسعة ذات مغزيين ، كما عرفنا فيما بعد ، في اوساط الرحالة الذين عبروا يوما ما هذا الطريق ، ان اصلهن الحبشي – الارثوذكسي يعطيهن بعض الحقوق او الامتياز لكثير من الانطلاق ، وعدم التكلف الذي لا يسمح به للنساء المسلمات التقليديات والفزعات ، فلكل الرحالة الاوروبيين وحتى الاتراك الرصناء يتذكرون " ببسمة لعوبة " فترة وصولهم الى هذا " الفندق " .

نحن للاسف لم نعرف هذا فموقبنا بقساوة لمسلكنا غير اللطيف ، لم يكن لدينا متسع او رغبة في الحديث ، فبعد ان شربنا كاسا من لبن الضأن ذهبنا في نوم عميق ، ومع ذلك استيقظنا بعد ساعتين او ثلاث نتيجة لانكتام النسيم ، الذي لا يطاق والهواء الخانق في الكوخ الذي لا توجد به نوافذ ، لقد سخن تحت اشعة الشمس الافقية ، فطلبنا ونحن – قمة في الجهالة – نقلنا الى مسكن اخر حيث يكون الهواء اكثر برودة فدعانا العسكر الى منزل حجري ، حيث يسكن " القمندان " بهيئة ضابط قديم ، وقد كان وقتًا ما في الخدمة التركية .

يقع المنزل خارج القرية ، على مرتفع بسيط وله نافذتين يهب عبرها النسيم ، يمدون لنا الطعام ، دجاجة مسلوقة مسلوخ جلدها عنها والقشرة الدهنية بعناية (وهي الطريقة المحلية المعتادة في سلق وشوي الطعام) ، يشرب مضيفنا الماء المعدني المقدم له بشراهة ويدخن سجائر " اسمرالد" .

نسأله عن الوضع في البلد ، لا بأس ، كل شيء على ما يرام ، يقول مجيبا ، سيكون كل شيء ميسر في المستقبل ان شاء الله ، وكما نعرف ان الطبيب الايطالي قد وصل الى هنا قبل يومين ، وتوقف خمس او عشر دقائق فقط .

يقدم لنا معلومات اثناء الحديث عن مرتبات الجنود الذين يقعون تحت خدمة ملك اليمن ،

يستلم الجندي خمسة ريالات فضية في الشهر ، بينما يستلم الضباط خمسة عشر ريالا فضيا ، كما تقدم التموين خزينة الدولة ، لانه افضل : قبضة من القمح يوميا هذا يقدم لنا مفهوما أنه لا يمكن العيش بدون " بخشيش " .

نعرف اننا في منطقة مجاريد – وهي من اعمال قبلية قحره الكبيرة ، تشمل هذه المنطقة كل ناحية الطريق التي قطعناها ، يقوم شيخ القبيلة بزيارتنا ، تلك القبيلة الواقعة في نفس المنطقة ، وهو شاب عيناه تشتعلان ، ذو وجه قليل الشعر ، حافي القدمين ، وعلى راسه عمامة بيضاء ، متمنطق بجنبية مقبضها فضي ، وعليه حزام من الرصاص ، ينظر الينا كما لو كنا حيوانات غريبة غير مألوفة ، يقابلنا كالايطاليين وذلك لان الاجانب الذين ظهروا هنا حتى الان قد كانوا من الايطاليين بالاساس ، يندهش عندما يعرف اننا من روسيا السوفيتية ؟ اين تقع ؟ وهل هي كبيرة ؟ هو لا يعرف هذا ، لكنه يعلم ان روسيا قد ساعدت الاتراك في المحافظة على استقلالهم .

تحملون بضائع ؟ هذا جيد ، فقد كان في اليمن جدب ، الدقيق لا يكفي ، الاقمشة سيئة ، والاجانب لا يجلبون شيئا حسنا ، اعطونا قمحًا واقمشة وكذلك كيروسين وسكر ، وليكن كل ذلك ارخص وافضل مما يعطونه الاجانب الاخرون ، حتى هنا ، اينما الارض جيدة ، واينما يجمع المحصول ثلاث مرات في السنة ، فان القمح لا يكفي .

– كيف يعيش الشعب ؟ هل كل شيء امنًا ؟ نسأل دون مواربه .

لكنه لم يكن كريما في الاجابة ، فهو يفضل طرح الاسئلة اكثر ، اجاباته تقليدية يغلب عليها " الحمد لله " المعتادة للحاضر ، و " انشاء الله " فيما يتعلق بالمستقبل ، ومع ذلك تمرق نبرات غريبه في اجاباته ، يتضح ان قبيلته شاركت مع عسير في الحرب ضد الامام ، اما الان فلا باس ، لقد هدأ رجال القبيلة ويؤيدون الحكومة المركزية ، الا انه يلمس ان هؤلاء " رفقاء سفر " وليس الدعامة الاساسية لصنعاء .

يخرج بعد ان شرب الماء المعدني ، نبقى نحن والمالك بجانب بضعة من العسكر المرافقين لنا يقص احدهم بحرارة ، كيف عاش بهدوء وسلام في قريته عندما كان طفلا ، لكنه عندما كبر تشوق للعمل والحركة ... والان يفخر بانه في صفوف الجيش اليمن ، بانه سيضحي بسرور بدمه في النضال ضد الانجليز ، الذين يهددوا باستبعاد وطنه الحر ، وبحماس لا يقل عن ذلك يتحدث عن الامام كقائد شعبي ، يقود الشعب على طريق المجد والازدهار .

نرى ان هذا ليس رفيق " سفر " وانما من اكثر الفئات اخلاصا للقضية الوطنية ، انه من سكان الجبال ، التي لم تتاثر بالدعايه الاجنبية ، ولم تقع تحت تاثير فئة التجار الساحلية الرافضة ، نتيجة لمصالحها الانانية والذاتية .

نحاول ان نستفسر عن اشكال استخدام الارض في هذه القرية ، يقولون لنا بان الارض هي ملكية فردية لكل بيت ، هنا لا توجد ملكية اقطاعية للارض ، وقرية بصيح هي قرية ذات امتياز ، تقع قرب اراضي خصبة ، وتقع على طريق كبير ، اما تلك القرى الواقعه جنب سفوح الجبال فوضعها اسوأ .

في المساء نتحرك قدما ، الجبشيات الغاضبات يخرجن الى ما وراء سياج القرية يتبعننا بوابل من التمنيات السيئة ، نحتار بصدق لا نعرف حقيقة الامر ؟ نفهم ذلك مؤخرا في صنعاء ، نعترف بغلطتنا ، وان لم نعزم على تصحيحها مع ذلك .

لكن لا وقت للابطاء ، هيا الى الامام ، فالجمال قد سبقتنا مع المتاع ، وها هي بعيدة في مكان ما في المقدمة .

تقترب الجبال برتابة من الجهات الثلاث ، تخترق السهل الفسيح لفحات حادة جافة من الهواء الرملي ، التي تهب من الفجاج الجانبية ، وعلى جانب الطريق تتناثر قرى واسعة فيها اكثر من مائة فناء ، وترى قطعان الماشية الكثيرة العدد ، هنا وهناك تتجول اشباح متفردة من الجمال ، وهناك بئر على شكل حفرة يعلها عامودان فيهما عقلة .

اثنان او ثلاث من النساء السود بقبعات اسطوانية طويلة من القش لها حواف عريضة يشدون الحبل الممدود عبر العقلة ويسحبن دلوا على شكل كيس جلدي (قربة الماء) ، وجوه النساء مكشوفة ، فهنا ليست المدينة ، الحجاب لا ذكر له ، والمعيشة الريفية مليئة بالعمل الشاق الدائم سواء في البيت او في الارض ، لقد الغى هذا الحجاب في حد ذاته ، الثابت في محيط المدينة المنافق ، يساعد هؤلاء النسوة خادم ، يبدو انه اجير زراعي ، اسمر شبه عار ، يقدمون لنا الماء لنشرب ، الماء هنا ذات طعام مالح ، ومع ذلك فهي افضل بكثير منها في القسم السنح من تهامة ، نعطي البخشيش ونمضي قدما على يميننا سلسلة جبال ضخمة في راسها قمم تغطيها السحاب مثل جبال أرارات (*) . هذا جبل برع ، اعلى قمة في اليمن ، يوضح لنا العسكر ، لكننا نعرف فيما بعد ان ذلك مبالغة معتادة ، فهذه الجبال ليست اكثر الجبال ارتفاعا في اليمن ، لكنها وعلى خلفها السهول ، وهي مرتفعة قليلا عن سطح البحر تبدو في الحقيقة عظيمة ، كما نعلم بانه في اعالي جبل برع تنمو اشجار البن .

(*) ــ سلسلة جبال مشهورة في ارمينيا

هناك يعيش ناس سعداء ، قال لنا العسكر .

شيء لا يصدق ، نحن الاوروبيين متعودين على ان العائشين في السهول تكون حياتهم افضل ، وان الجبال قاحلة مقفرة ، اما هنا في اليمن ، انما المدارات الاستوائية ، يتم اعادة تقييم القيم والمفاهيم ، الجنه – في مرتفعات الجبال الباردة ، والجحيم على هيئة الحر ، والجفاف والاختناق – في السهول .

تتحرك سلسلة الجبال على مقربة منا ، هناك واد صخرى نقطعة مشيا ، نزلنا من على البغال هنا ينتهي القسم الذى يمكن اجتيازة من الحديدة على السيارة ، حتى الايطالى الذى يملك سيارة خفيفة ، تحتم عليه ان ينتقل هنا الى الركوب على ظهور البغال ، مسافة سهلية قصيرة من الطريق ، ثم واد صخرى ضيق من جديد وفي قعر الوادى شيئا ما يشبه النهر ، هذه اول مياه فوق سطح الارض نراها في اليمن .

والسهل الطويل الى قطعناه صار بعيدا في الخلف ، وسرعان ما اختفى في عتمة الليل الحالك ، نتوقف ساعتين في قرية كبيره اسمها عبال ، ونأكل دجاجة مسلوخة من جديد ، نتحرك قدما بعد ان انتظرنا طلوع القمر والمدهش ان نتحقق باللمس من الحقيقه المعروفة نظريا والقائلة بأن القمر بالذات وليس الشمس هو الكوكب الاساسى ، الذى ينظم حياة الصحراء ، الشمس خبيثة ، قاسية ، قاتلة ، نختبيء عندما تشرق تحت السقائف ، ننزل حمولة البغال وننعس بلا حول ننتظر عتمة الليل ، وحين يقبل المساء ويبزغ القمر نتحرك في طريقنا هكذا يصير واضحاً لماذا يعتمد التقويم الاسلامي الأشهر القمرية كأساس لحساب الزمن .

لقد اصبحنا على ارتفاع عالٍ ، نصعد بطريقة غير ملحوظة في السهل ، ونصل تدريجيا الى ارتفاع بضعة مئات من الامتار ، نتحرك على هضبة مرتفعة ، تهب برودة ورطوبة من الجبال القريبة جدا ، هنا تسقط الامطار كل يوم تقريبا ، وفي هذه المنطقة المضاءة بنور القمر نشاهد الاشباح الجبارة لاشجار الاثل ، التى تختلف بحده عن اشجار تهامة الهزيلة الكسيحة ، هنا اشجار الاثل كثيرة الاغصان وافرة الظلال ، رغم انها ذوات جذوع معوجة ايضا وملامحها مغلوطه بشكل متشنج ، تبدو في الغسق وكانها تنانين تتلوى احيانا ، او كانها بشر يحتضنون بعضهم احيانا اخرى ، او توحى وكأنها رجلا القى براسه الى الخلف ، ينظر الى السماء فاتحا ذراعيه على اتساعهما .

الحر ، الاختناق ، العرق ، والعطش وكان شيئا لم يكن ، الليل البارد الساكن ، اشباح الاشجار والرسوم المبهمة المعتمة للجبال المعلقة فوقنا ، بالضبط ، كل هذا يفرض علينا ان

ننسى اننا في شبه جزيرة العرب البعيدة ، قرب خط الاستواء ، واننا على بعد بضعة الاف الكيلومترات من شواطيء الوطن ، لقد قام البغل الاغبر القبيح والعنيد بنقلنا خلال بضعة ساعات من الطريق من قيظ الصحارى العربية الى سفوح القوقاز الباردة التي نعرفها . هذه قرية حجيل ، مركز الناحية ، هنا يجب علينا ان نتوقف من اجل ان نغير الجمل ، وجملنا كان صالحا للمشي في السهول فقط ، في حين للجبال جمال اخرى تعودت على طرقها ، واضافة الى ذلك فانه من هنا يبدأ الصعود الشاق في الجبال ، والذهاب في الليل امر صعب ، لهذا نتوقف للمبيت .

مرة اخرى اسرة مفتولة من القش ، تحت سقائف من القش ، يثب خادم تركي مسرعا ، وبدون ان ينبس بحرف ، يبدأ يتحسس اضلاعي ، ويهز رجلي ويداي ، ادفعة بعيدا برعب ، يبتعد حانقا ، لقد اراد ان يعمل تدليك ما بعد الطريق ، وهو المتبع في هذه الاماكن ، لهذا كان تعززي غير مفهوم له ، يقولون لنا في الصباح انه يجب التأخر الى ما بعد الظهر ، لان التحرك ظهراً سيكون حارا ، وبالاضافة الى ذلك فان الجمل الذي استبدلناه بالاخر غير جاهز بعد ، لان جميع جمال سكان المنطقة محملة من قبل الخزينة ، بدفعة جديدة من الاسلحة الايطالية التي وصلت الى الحديدة هذه الأيام ، وهذة الاسلحه هي عباره عن ذخائر خشبية صغيرة ، مرصوفة في ساحة بقرب بيت عامل المنطقة ، تتالف مما يقارب مائة جمل باركة تحت ظلال اشجار الاثل ، او ببساطة تحت اشعة الشمس الطالعة ، تمضغ حزم الدريس المرمية امامها كعشاء ، من اجل ان تجمع قواها للرحيل في اعماق الجبال ، هناك اينما توجد ضرورة للاسلحة ، واغلب الجمالة كهؤلاء ذوي لحى شائبة ، اجسامهم محترقة ملوحة بلون احمر نحاسي ، يلتحفون عباءات خفية ممزقة ، واحزمه غليظة حول الخصر يجلسون بشكل دائري ياكلون طعام الصباح ، وبيوت القرية ، ليست على شكل البيوت الطينية السابقة ، انها معمورة من الحجر الغشيم ، والشكل الخارجي للبيوت على نمط واحد : اربعة اركان حجرية خالية من الجمال ، وسقف من العوارض مغطى بالقصب او القش ، والماشية هي تلك الابقار الحدباء ، اثوار ، حمير ، ماعز ، ضأن ودجاج ، لكن لا تحس افريقيا في هنا ، لا باسلوب البناء ، ولا بملامح الوجوه السمر لكنها تخلو من ذلك السواد والنمط الخاص الذي يقربهم من الجنس الزنجي الحبشي ، هنا ليست تهامة ، وانما ارض نصف جبلية ، والقرية التي صارت مركزا اداريا منذ عهد قريب تعيش على الزراعة ، في كل جوانبها حقول يانعة موزعة على مدرجات الشعاب المتلاصقة ، فالماء هنا وافر .

لا يوجد هنا سوق بالمعنى الشرقي ، توجد بضعة حوانيت صغيرة فقط ، حيث يمكن شراء التبغ والكبريت أو صنادل خفيفة وبضائع اخرى مثل الدخن ، الذرة ، قشر البن التي تستخدم هنا بدلاً من البن ، الحقول الان هامدة ، العمل في البيت يتمثل بالعناية بالماشية ، وجلب الماء من البئر الواقعة على مقربة من القرية ، او اشعال الموقد لتحضير الطعام ، كل هذا يقمن به النساء ، اما الرجال فانهم منزعجون من قيظ النهار القادم ، يقعدون صامتين في الظل يدخنوا النارجيلة ، ايقاع الحياة بطيء ، تعبر النسوة من وقت لاخر من البئر الى البيت ، يحملن على رؤوسهن الجرار الطينية الطويلة ، يركض الاطفال عراة كما خلقوا ، باجساد مسلوخه هزيلة وببطون بارزة في الغالب ، هناك صبي عمرة اربع او خمس سنوات يسير بتؤدة ووقار ، يقهقه المتفرجون عليه يصرخون بشيء ما ، اما هو فيصرخ مرتعشا بصوت كانه ليس صوته ، يغطي عورته بيديه ، ثم يهرب لا يلوى على شيء ، يتضح انه لم يجرى له الختان في وقته ، لهذا يشاكسونه بالعملية " الدينية " التي ستجرى ، والتي يكون مجرد التفكير فيها باعث على الرعب والوحشيه لديه .

البغال والخيول

نتحرك بعد منتصف النهار ، يتعرج الممر في مسيل صخري لسيل قد جف وانكمش في فج ضيق ، وبعد ان يلقى بنا في الفج الصخري ، الذي يضيق مع كل خطوة ، نمر بين الاشجار والاحراش ، ونصل عبر مضيق ضيق الى شعب اخر ، بين كتلتين صخريتين كانهما قد وضعتا خصيصا كحاجز ، وعلى شكل منحدر صخري يمتد عبر الجبال ، على ارتفاع شاهق وبين اسنة الجبال ترى بالكاد بسودة ملامح القرية من كل الجهات تسمى المنطقة صفن ، وفجاة تقترب البغال الى منحدر الفج مباشرة ، تبدأ تضرب بخطواتها الطريق الشديد الانحدار والمتعرج ببطء ومثابرة ، نسمع اصوات البغاوات ، ونشاهد اشباح القرود المنتفضة ، وخلال خمسة عشر – عشرين دقيقة يكون الفج بعيدا في مكان ما في الاسفل ، في حين تواصل البغال خطوها المنتظم الى الاعلى في المرتفع الشديد الانحدار .

ابداء اقدر الخصائص الرائعة لتلك الشغيلة المتواضعة ذات الاربع ارجل ، البغال والحمير خصوصا ، متميزة وفريدة بفطانتها ، وقوة احتمالها وجلدها ، يكون الرحيل عليها مرضيا ومقودها حسن ، تصفر فقط بصوت منخفض ويسير الحيوان بدون حث او تعجيل ، يتحسس بحذر كل حجر ، دون ان يتعثر ابدا او يشاكس او يخاف او يحيد عن الطريق ، تذكرت

عفويا ويتقزز الخيول حينها ، المستعدة دوما ان تجفل او تجمح لاى سبب ، سواء لرؤية شيء مجهول او لازعاج مفاجيء ، كما ان الخيل تتوقف عن طريقها اذا ارخى عنانها ، واذا نهرت فانها لا تسير في الغالب او ضربت بالسوط ، فاما ان تكون مستعدة للاندفاع مسرعة واما بالسقوط منهكة ، قد يقال هناك خيول فطنة وجريئة وهذا صحيح ، لكن البغال والحمير فى مجملها تتميز بالذكاء والحساسية والهدوء وقوة الاحتمال ، بالاضافة الى ذلك فالبغال قد ورثت افضل الصفات " المعنوية " لأبائها الحمير ، والقدرة الجسدية فقط لامهاتها الخيول ، ان البغال والحمير تعتبر استثناءا مميزا بقيمتها كحيوانات - بروليتارية ، لا تماثلها الخيول - الارستقراطية الغبية والمرنة .

واثناء التنقل الطويل على ظهور البغال كثيرا ما يخطر على البال : لماذا صار مألوفا فى الادب التغنى بالحصان الطائش والعاجز ، فى حين تكون البلادة والغباء مرادفة للحمار المحب للعمل والذكى ان البحث عن توضيح ذلك ليس امرا صعبا ، اذا راقبنا خصائص الحمير فى التنقلات البعيدة ، الحمار مثله مثل الحصان ، كائن مستغل من قبل الانسان، لكنه حين يخضع الحصان ويطيع الانسان حتى النهاية وبدون حدود ، يجر اى حمولة حتى لو كان فيها خطر انفصام ظهره ، يسير تحت ضربات السوط حتى السقوط ، بل حتى وهو يلفظ انفاسه الاخيرة فى حالة الموت يصمت دون الاحتجاج ضد القسر والاستغلال ، فان الحمار اكثر عنادا فى الدفاع عن مصالحه كحيوان مستغل ، فهو يتشبث فى مكانه فلا يسير اذا حمل اكثر من طاقته ، يتوقف اذا فرض عليه السير طويلا جدا ، ولا يتحرك من مكانه تحت اية ضربات ، لن يركض اكثر مما تسمح به قواه ، لكنه يعمل بامانة فى نطاق المهمة العادية ، اما اذا لم يطعم او اذا ضرب فلن يسكت مثل الحصان الابكم المستكين ، بل سينهق محتجا بوحشية ، ويصدر الانات بطريقة بشرية ، يبدو معها ان اقسى سائق حمير سيرق قلبه عند سماعها ، الحمار يحتج ، يخرب ، يهرب ، اذا ما تجاوز القسر عليه حدود معينة ، الحصان يذعن للقسر باستكانة وبدون حدود : انه مستعد للركض حتى السقوط او الانهاك من حمولة فوق قدرته . يساير نزوات الانسان بدون حدود ماشيا بخضوع حسب تعليمات السائس والراكب الذى يهزه ؛ اقل من غرابة ، فى ان يتغنى الشعراء الاقطاعيون بالأسود والنمور والصقور الضارية ، المؤذية وغير الضرورية ، فى حين جعل الادباء البرجوازيون محط اعجابهم الحصان الاحمق المستعد للموت نتيجة طغيان راكبه ، والكلب الذى يحرس البيت يهز ذيله امام صاحبه لكنه بينما كانت هذه الافكار المتقطعة تتزاحم فى راسى كان البغل قد وصل بى الى قمة الصخرة ، بخطو منتظم يزاحم جموع الحمير ملتفا حول الجمال الخرقاء الباركة طلبا للراحة ، يدخل قناء صغيرا ، فى

ساحة قرية مصفرة اسمها اصيل ، او بالاصح نزل من اجل توقف في مركز القافلة المكون من خمسة او ستة بيوت فلاحية من الحجر .

نرى ان هذا ليس سوى بداية المرتفعات (رغم اننا قد وصلنا الى ارتفاع اكثر من الف متر فوق سطح البحر) ، سلسلة جبلية ضخمة جديدة ترتسم امامنا كالسور ، وخلفها صف اخر من الجبال ، وصنعاء ابعد منها التي طال انتظارها .

اصيل هي بوابة اليمن الجبلي ، هنا يبدأ اليمن الذي لم تدسه احذية الانجليز ولا صنادل عسكر الادريس ، هنا سلطة الامام يحيى الراسخة ، التي تختفي وراء الجبال المنيعة على قوات العدو البرية .

وعلى كل ، توجهت الى شاويشنا بسؤال (هل هذا هو اليمن الحقيقي ؟) (اقصد بذلك القسم الجبلي من البلاد) وكان واضحا ان طرح السؤال بهذا الشكل لم يعجبه .

اجاب قائلا :

اليمن كل مكان – هناك في تهامة ، وهنا في الجبال .

شعرت بأني قد ضربت على الوتر الحساس ، فالانجليز وعملائهم يحبون كثيرا ابراز الاختلافات بين الجبل وتهامة سواء في العلاقات الاثنوجرافية او الاقتصادية او الدينية ، هدفهم من كل هذا شق اليمن وافساد ذات البين بين اجزاء هذا البلد ، وردا على ذلك يسعى اليمنيون تجاهل هذه الاختلافات والتشكيك بها .

لكنني مع ذلك اشعر بوجود هذه الفوارق ، وان كانت ليس بتلك الاهمية التي يريد الامبرياليون تصورها يتحدث عن الفارق الهواء العليل البارد ، الذي تستنشقة رئاتنا بكل طاقاتها ، يتحدث عن ذلك ماء النبع الصافي البارد ، الذي نشربه من المفارق دون انقطاع مثل الجمال .

ناكل شيئا ما ، نشرب قهوة قشر الاباريق ، وننام في السقف الاملس على البيت تحت ظلال شجرة الاثل العالية ، ونرى في البعيد برج حراسة اسود ، واشباح الجبال الكثيفة ، يتنفس الفجر برودة ، ولا صوت سوى صوت مضغ الجمال الثقيل ورغائها ونهيق الحمير الراقدة ، يخرق السكون الجاثم لليل الاستوائي المظلم .

وفي اليوم الثاني نمضي الى الجبال ، تصير الجبال اعلى فاعلى ، مضائق جبلية ، هضاب ، منحدرات ، ومرتفعات مرة اخرى ومضائق ، وهكذا قدما حتى سهوب صنعاء المزدهرة .

الباب التاسع

* جبال شبه جزيرة العرب
* البن
* المدرجات
* الحصون
* المشايخ الاقطاعيون
* مناخة
* القات
* الجواسيس

جبال شبه جزيرة العرب

امر غريب وشيء لا يصدق ، تعرف أن هناك صحاري عربية ، وان هناك " سهوب رملية في ارض جزيرة العرب " ، اما ان تكون هناك جبال عربية ، حقيقة ، جبال عصية ضخمة ، مثل قوقازنا ، فهذا ما لم تسمع عنه شيئا في السابق وامر غريب حقا ، نتأمل بشراهة شديدة السهول والسفوح الجديدة التي تظهر امامنا ، الى حيث تنقلنا البغال العنيدة الهادئة السير ، ومن الخيرات الاولى للجبال بعد الماء والهواء البن العربي الذي لا يضاهى .

البن

هذا هو البن الذي يسمى " موكا " في اوروبا ، وذلك باسم الميناء اليمني الصغير والفقير ، الذي ينقل عبره البن الى الخارج لاول مرة ، والواقع ان هناك اصناف عديدة من البن ، منها اربعة اصناف اساسية (المطري ، الحيمي ، وغير ذلك) واصناف كثيرة لا تحصى والفارق بينها طفيف ، وبن " مخا " اصناف خليطة اعدت للتصدير خاصة ، وقد انعكست في تسميتها بـ " موكا " ايضا بسبب الجهل الاوروبي ، شأنها شأن تسميات " ميكادو " او " بوجديخان " التسميات التي لم تطلق على الملوك ابدا في اليابان والصين ، لكن القضية ليست هذه ، وانما في ان كل اقتصاد اليمن الجبلي قد تطور حتى الآن تحت علامة البن ، البن الذي شكل المصدر الاساسي للعملة الصعبة للبلاد ، لقد اعطى تصدير البن امكانية خروج اليمن الى ساحة التجارة الدولية .

عرفنا ذلك في الماضي ، وباضطراب كبير نتأمل الشجرة المتفرعة الخضراء ، التي تدلت عناقيد حبوب مائلة للاخضرار من هنا وهناك ، تتزاحم هذه الاشجار على ساحات ضيقة متقطعة في المنحدرات الجبلية .

ان زراعة البن المعقدة تبدو كانها تسير في اتجاه يناقض التخلف ، واليؤس والظروف البدائية المباشرة في البلاد ، تبدأ شجرة البن باعطاء الثمار بعد فترة خمس سنوات فقط ، وجيد يعرف عن هذه مالاشجار العناية بها اقتلاع النباتات والحشائش الضارة ، كل شيء يتحدث عن الجهد البشري الضخم الذي يبذل من اجل هذه الحبوب المخضرة الخالية من الجمال .

العجوز احمد ابن صالح ، الذى عمل مدة خمسين عاما في معمل البن فى الحديدة يصف تاريخ البن اليمني بالعبارات التاليه :

- بسم الله الرحمن الرحيم ، ونشكر الله الكريم ، الذى اعطانا حكمة التبصر بالكون ، ان اصدقائنا يطلبون كتابة تاريخ البن اليمني ، الذى تشتريه كل الشعوب تقريبا ، معروف لكل بني البشر فوائد البن .

في عهد الملك سليمان ابن داوود ، الذى اطاعة بمشيئة الله ، الجن والانس ، الطير والحيوان ، طلب سليمان من الله خلق شجرة تكون ثمارها شافية للناس من النعاس والجنون والكوليرا ، فامره الله ببعث اقوى الجن الذين تحت يديه الى البلاد البيضاء بين القطبين ، ان يجلبوا الشجرة المباركة من هناك ، فاتى الجن بالبن والقات (سيأتى الحديث حول القات فيما بعد) .

يتضح فيما بعد ان الجن قد اختارت الى جانب الحبشة جاوه ومالابار ومن ثمة اليمن لزراعة البن ، لانها بلد وفير الخيرات تقع فيما بين خطي العرض اثنا عشر واربعة عشر في الشمال من خط الاستواء وفيها يكون امتداد الليل والنهار مناسبا لشجرة البن .

وبعد ذلك ينوه محدثنا الى المحاولات الفاشلة في زراعة البن في سوريا ومصر ، وباستخفاف يتحدث عن البن البرازيلي ، وانه يفسد بسرعة ، في حين يظل البن اليمني محتفظا بنقاوته فترة خمس او ست سنوات ، كما يتذكر انه من بين مائة من الاوروبيين الذين يشربون البن خمسة اشخاص فقط هم الذين يشربون البن اليمني الخالص ، في حين يشرب الاخرون خليطا ، ويشير باسى الى انه في اليمن نفسها يشرب البن ثلاثة من كل الف ، في حين يكتفي الاخرون بشرب قشرة البن ، التى يعمل منها مشروب لذيذ منعش ، يحل محل الشاهي .

والواقع ، انه خلال كل فترة تواجدي في اليمن كنا نشرب البن بالطريقه التركية عند الوجهاء الرسميين والمشايخ الكبار فقط ، اما الجماهير الاساسية من العرب فهي تشرب برمتها مشروبا من قشرة البن ، لاستطيع ان احكم على خصائص قشرة البن ، لاني لم اشربه سوى مرتين او ثلاث مرات اثناء الطريق وتبدو هذه الغسالة انها مشروب فردوسي .

ما السبب ؟ يبدو انه نفس السبب الذى كان صيادو الفولجا لا يتناولون الكافيار ، في حين اعتبره الاجانب بحق مادة روسية اصيلة ، لقد اندهشنا من ان البن لا يتناوله سوى ثلاثة من كل الف في اليمن .

وبالنتيجة فان اجزاء الشمس الاستوائية في الجبال تلك ، الملوثة بالعصارة والاريج للاصناف الجبلية غير المدروسة ، تظل لذاته محرق لمن يصنعها ، فالفلاح البدوي يبيع حبوب البن على المحتكر او يعطيها ضريبة للخزانة او للشيخ الاقطاعي ، في حين يترك لنفسه شيئا ما اخر ، يبعث المشايخ والمحتكرون البن الى الحديدة نصف مصفى ، وهناك يصنف ويباع في اكياس ، ثم تنقلة البواخر الاجنبية الى ما وراء المحيط .

البن هو العصب الرئيسي الحيوي البلاد (مثل الحج في الحجاز) ، يثير الاوروبيون هذا العصب لبلد متخلف قليل الخبرة في احابيل التجارة الخارجيه ، تستغل الشركات الاوروبية عدم وجود اسطول تجاري يمني وتجار ذي علاقة مباشرة بالاسواق الخارجية (لا يدخل الهنود هنا) حتى تفرض اسعارها على البن اليمني ، وبهذا تثبت هذه الاسعار في مستوى منخفض وبشكل جشع ، وثمن الطن من الصنف الجيد من البن " موكا " يقرب من مائة جنيه استرليني ، ان سعر الكيلو روبل واحد تقريبا ، في حين يكون شراء الكيلو الواحد بصعوبة بمبلغ من سبعة – الى ثمانية " روبلات " ، ومع ذلك فانه ليس بناً يمنياً صافياً ، وانما يخلط مع البن الحبشي والبرازيلي الرخيص .

البن هو اول عامل اقتصادي يميز القسم الجبلي من اليمن ، نظرا لتبدل التربة والطقس ومستوى الرطوبة والميزة الثانية (اسجل ذلك حسب توالي الانطباعات) انه وراث حضارة قديمة – المدرجات الزراعية المنحوتة على منحدرات الجبال الصعبة ، الابنية السكنية القديمة ، التي تم بناؤها منذ قرون كثيرة خلت يقول البعض انها منذ الاف السنين .

ارى المدرجات مع اشجار البن في وقت واحد ، ينمو البن في هذه المدرجات في الغالب اي في المساحات المحفورة في مرتفعات الشعاب ومنحدرات الجبال ، هذه المدرجات المسورة بجدران من الاحجار والمفروشة بين جوانبها طبقة سميكة من الارض المجلوبة ، حتى يكون احيانا كل المنحدر الممتد عشرات الكيلومترات بشكل مدرجات تشبه التجاعيد .

المدرجات

هل تتصورون ؟ منحدرا طوله عدة كيلو مترات بزاوية ميلان ثلاثين – اربعين درجة ، لا يستطيع البغل ان يسير فيه في اكثر الاحيان ولا الماعز الراكض دائما ان هذا المنحدر مقطع الى قطع صغيرة بطبات اصطناعية مفروشة بتربة خصبة طرية ، تنمو فيها اشجار البن ،

وتخضر الاراضي بالقمح والذرة ، من وحتى حفر الطبقات الحجرية في الجبال ، من الذي نقل التراب ، واسندها بركائز حجرية ضخمة وتعلم ان ينشيء الزراعه المعقدة لنباتات طويلة العمر ؟ الواضح : ان من عمل هذا ليس اليد وانصاف العراة ، اولئك الاميون الذين لا يملكون سوى محراث وبندقية ، الذين يتطلعون بفضول من خلف زوايا اكواخهم ، اسال العسكر ؟

– متى ، ومنذ اي عهد تعلم اليمنيون بناء مثل هذه المدرجات ؟

اتلقى جوابا لا يتغير :

الله وحده يعلم هذا ، يفترض ان يكون قبل بضعة الاف من السنين .

والمباني السكنية ؟ قلاع ضخمة ارتفاعها ثلاثة طوابق ، ليست مثل بيوتنا ، انها بيوت مبنية من الحجر المنقوش فيها نوافذ صغيرة ، عملت على ارتفاع بضعة امتار من الارض بغرض الامان ، بكوات وابراج وكرنيشات وحواف نائية ، وسلالم ونافورات وبرك اصطناعية في الفناء ، يحيط بالقصور حائط حجري عريض انها قلاع من القرون الوسطى ضخمة ، لا تستطيع حتى المدافع تحطيمها . تقع القلاع على المضائق الجبلية في الغالب وعلى القمم او في اذيال الجبال العصية حيث يكون المدخل من جهة واحدة فقط .

الحصون

واذا سالت :

– متى بنيت هذه القلاع ؟

يكون الجواب نفسه :

– الله وحده يعلم ذلك . نحن نعرف انه عاش بها اجدادنا واجداد اجدادنا .

صحيح ، ان مثل هذه القصور ليست ضرورية الان لا يستطيع احد ان يحتمي بها من احد ، لانه لا يعيش بها لا المشايخ ، ولا الاغنياء ، انما اولئك الرثوا الثياب المنهكون شانهم شان اولئك الذين يتكدسون في الخيم في السهول ، لا احد يشاغلهم ، لان قطاع الطرق والمجرمين بالمعنى القديم في القرون الوسطى لا وجود لهم ، اما امام قطاع الطرق الجدد ، امام الطائرات والمدافع الانجليزية ، وامام المستغلين المحليين ، فان هذه الجدران الحجرية لا تجدي شيئا .

لكن هذه القلاع والمدرجات الزراعيه تظل شاهدة على حضارة عظيمة ، وقعت ارث لقبائل بدوية متخلفة تاخرت في تطورها ، هذه القبائل المترعرعة في ظروف الرعي والزراعة البدائية لم تعرف ولم تستطع استخدام منشآت الرى العظيمة التي بناها اسلافهم الاكثر تحضرا ، اولئك الذين لم يكونوا في حاجة للعملات والمتاع ، التماثيل الحجرية مرمية وكأنها نفايات قديمة في كهوف مأرب التي تنهب من قبل المضاربين ، انهم لم يريدوا ولم يقدروا على الحفاظ على حضارة مملكة سبأ وتطويرها ، لكنهم وحسب قدرتهم يستخدمون المدرجات الاصطناعية ، التي حولت منحدرات الجبال الجرداء الى رياض مزدهر ، في القلاع العريقة الشامخة المعبرة عن بقايا الثقافه القديمة يعيشون في اسمال بالية بين الدخان والوساخة .

تتكون اللوحة ، كما لو ان روما بثقافتها العريقة العهد ، بالقصور وسواقي المياه ، حتى بتلك المدرجات التي لم تكن معروفة لا في روما ولا في اى مكان في العالم ، لقد اخليت وانقرضت ثم غمرتها شعوب جديدة متدفقة من الخارج ، تلك القلاع التي لم تحرق ولم تخرب من قبل البرابرة كما فعلوا في روما ، وانما قطنها ناس بسطاء فحولوها الى اكواخ متواضعة ، ولا يتذكرك بانها قلاع الا مظهرها الخارجي .

والان تؤكد هذه " القلاع " الافتراض الذى عبر عنه انجليز في عام ١٨٥٨ في احدى رسائله الى ماركس بشكل مرئي :

" هناك اينما عاش العرب في العربية الجنوبية (اى في اليمن) بشكل حضرى ، فانهم قد كانوا حسب البراهين شعبا متحضرا مثلهم مثل المصريين والاشوريين ... الخ ومنشأتهم يؤكد ذلك " . (ماركس ك . انجلز ف — المؤلفات الكاملة . المجلد ٢١ صفحة ٤٨٤) .

وعلى كل حال لم تحول كل القصور الى اكواخ .

فهناك قصور مفروشة بشكل فاحش وبعد ان صعدنا مضيقا جبليا رئيسيا رأينا قصرا شامخا ارتفاعه ستة — سبعة امتار على تل بجانبنا ، وكانه قد من ثلاث قطع منفصلة ذات ارتفاعات مختلفة ، تبدأ النوافذ التي تستخدم ككوات في نفس الوقت على ارتفاع ثلاثة — اربعة امتار من الارض — تحيط المتاريس الحجرية بفناء صغير ، التل مزروع كله بالصبار ، طريق منحنى بشكل دائرى يؤدى الى البوابات .

المشايخ الاقطاعيون

نشاهد في الطريق مجموعة من الناس ، يتوسطهم شيخ اشيب اللحية في ثوب ابيض فضفاض وفي خصرة جقل فضي وعلي راسه عمامة خضراء ، وبقرية خادمات بدويات انصاف عراة بقمصان مفتوحة وبعيد عنهما شاب اسمر ذو وجه حاد وعلي رأسه قبعة من القش .

ينتصب امامي كل محيط القرون الوسطي ، الشيخ الاقطاعي ، مالك القصر ، اثنان من الفلاحين (خدم او مستأجرون) ويهودي قادم من المدينة المجاورة ، يحتمل انه وصل للاتجار او لصفقة مالية .

نتبادل التحيات مجاملة مع الشيخ ، ثم نجيب علي سؤال لماذا وصلنا .

– تجار روس ، ذاهبون الي الامام للتفاوض حول التجارة .

ينتهي فضولة ، اطلب منه السماح بتصويرة هو وكل الموجودين معه ، يوافق علي الطلب لكنه يرفض ان يكون اليهودي معه وقد كان رفضه بحزم وذلك لان اليهودي لا يستحق ان يكون معه في صورة واحدة وهو الشيخ ، ومع ذلك فقد استطعت ان التقط اليهودي – الذي تعمد التأخر في الطريق – في الصورة مع الشيخ .

المشايخ ، اليهود ، المستأجرون والفلاحون – هذه هي الميزة الثالثة التي تميز منطقة الجبال عن تهامه .

تبرز هذه الميزة بوضوح خاص لاكتمال النمط الاقطاعي النموذجي في القسم الجبلي من اليمن ، واذا كانت العلامة المميزة لتهامة هي الاساس القبلي ، والخلافات الموجودة ، وكل المشاكل والتناقضات تدور علي اساس النظام القبلي ، فاننا في الجبال لم نسمع تقريبا عن القبائل والمشايخ وزعماء القبائل ، وبدلا من هذا تبرز صور المشايخ الاقطاعيين ، مالكي القصور ، والاراضي الزراعية الواسعة ، المراعي والمدرجات الزراعية في الجبال .

وهذا الفارق مع ذلك ليس لصالح تهامة ، انه يتحدث عن ان الاقطاع في الجبال قد تبلور ، بمشائخه وفلاحيه المزارعين ، بعسكره وتجاره الحضريين المحليين (بشكل غالب من اليهود) ، بالطرق الراقية لفلاحة الارض ، لقد سبقت الجبال تهامة بكثير ، تهامة التي تمارس الرعي والزراعة البدائية ، بسكانها ذوي النمط القبلي او ببساطة النمط العشائري – البطريركي ، يعيش سكانها انصاف رعاة ، هنا في الجبال مملكة الملك " ارتور " الاقطاعية

المبكرة من القرنين السادس والسابع . اما هناك في تهامة ، فان الناس لا يزالون يعيشون حتى الان نمطا بطريركيا – قبليا ، وان كان يمثل بدورة مرحلة اعلى بكاملها عن النمط الرعوي – الصحراوي لبدو الحجاز .

مرحلة تاريخية كاملة – في خلال يومين من الطريق في شبه جزيرة العرب ، هذه المنطقة العذراء في الحضارة العالمية ، تحت الحواجز الرملية ، تحت اشعة الشمس الحارقة ، مثل المومياءات الفرعونية احتفظت بذاتها بضعة عهود من حياة البشرية ، عهود بدأت تهتز وتتحلل فقط تحت مطرقة الحرب العالمية ، تحت رنين الذهب الامبريالي وتحت دوي الثورة الاشتراكية .

هذه هي اول الانطباعات عن الجبال ، وهي تتعزز وتتكامل في كل مراحل الطريق اللاحقة .

نتسلق زاحفين من فج اصيل نعبر بضعة مرتفعات على الممرات المتعرجة المملوءة بالاحجار وخمائل الصبار على جوانبها ، نصل الى منخفض واسع ، وبعد ان ندور حول اطرافه نصل الى مدينة مناخة ، حيث يجب ان نتوقف مرة اخرى .

تقع مناخة على المضيق الجبلي الرئيسي في الطريق الى صنعاء ، تمتد على جانبي المضيق ، ومنها تبدو سفوح الجبال الواسعة والتي تتحول تدريجيا الى شعاب وسهول ، تغيب في الافق الضباب الازرق ، نشاهد قرى منفردة على المنحدر الغربي تتخللها المدرجات الخضراء من القمح والذرة .

وفي الشرق نرى فجا متعرجا يتحول بعيداً في الاسفل الى سهل اغبر بلا لون ، ثم سلسلة جبلية شاهقه من جديد ينبغي ان نصل اليها فيما بعد .

مناخة

مناخة – مدينة شرقية نموذجية من مدن القرون الوسطى ، اهتزت تحت تأثير تجارة القوافل النشطة ، هنا المرحلة الاساسية ، فهي في منتصف طريق القوافل السائرة من الحديدة الى صنعاء ، ولهذا فان الساحة الصغيرة مملوءة بالجمال الباركة طلبا للراحة ، الحمير تنهق والبغال واجمة ، مجموعة ابنية للتوقف في بضعة شوارع – واسواق ، منطقة سكنية صغيرة ومزروعات الذرة على السفوح ، وعلى الساحة بقرب الطريق الكبيرة مباني حكومية تلغراف ، سجن ، فناء يستخدم عنبر للقوافل في نفس الوقت ، ومكان لوقوف القوافل الحكومية . وعلى

مسقط الجبل اينما ترفع (المدينة) تقع قلعة مراقبة فيها حامية صغيرة ، كان الاتراك يقعمون بثبات في هذه المدينة في عهد الامبراطورية العثمانية : لهذا لا يزال فيها طريق معبد ، وبها قباب جميلة لخزانات المياه وبيوت الخلاء بناها الاتراك من الحجر المنحوت تلك البيوت التي لا تتناغم بشكل كامل مع نمط حياة البلاد البدائية .

في السوق كثير من الحوانيت فيها بضائع عاديه من الحبوب ، الدخن ، الذرة الشامية ، قشر البن ، وعلى العكس من اسواق تهامة يوجد هنا كثير من البقول والخضروات في مثل هذا الوقت الخيار والطماطم وحتى الفواكه مثل المشمش والليمون المجلوبة من صنعاء ، نبتلع بشراهة هذه الثمار الاولى " في العربية السعيدة " وان كانت قليلة وقد فقدت طعمها نظرا لطول الطريق الجبلي الصعب والقاسي من صنعاء . وفي حوانيت الاقمشة كثير من النسيج المحلي : ابسطة بيضاء بحواش حمراء ، قطع كبيرة ثخينة من قماش احمر مخطط ، يستعمل بدلا من السجاد ، مصنوعة من القطن المحلي يدويا بمساعدة انوال بدائية مثل تلك التي شاهدناها في الحديدة ، هذا القماش القوى المتين ، والى جانب هذه المصنوعات الرائعة ، توجد وفرة من الاقمشة القطنية الرديئة والرخيصة التي ادهشتني بوجود الماركات عليها والمصنوعه في المعامل اليابانيه في شنغهاي ، وقد رسمت عليها حروف صينيه ، وقد تأكدت فيما بعد ان هذه الاقمشة اليابانية الغليظه اضافة الى المنسوجات الاخرى تغطي السوق اليمنية النائية ، تنافس حتى منسوجات ما نشستر ، هذا بغض النظر عن ان اليابانيين لم يوجدوا بشكل مباشر في اليمن ابدا ، اذا لم نأخذ بعين الاعتبار واحد ما من غرباء الاطوار منهم الذين يصطادون بعض المنتجات البحرية على السواحل قرب جزيرة كمران ، هذه الكائنات البحرية التي تشكل المادة الوحيدة للمستوردات اليابانية من اليمن والتي تسمى باللغة العربية " فرج البحر " وهي الجملة التي لا تجد مقابلا لها في اللغة الروسية الخجولة أو لا توجد ترجمة لها فيها ، ومع ذلك ليست المسألة هنا ، فقد تذكرت نقيضا لذلك حديثا مع بعض الرفاق في الهيئات التجارية ، حيث اصابهم الرعب لمجرد الافتراض بانه يمكن اقامة تجارة مع بلد ليس فيه مقومات تجارية بطاقم من العاملين لا يقل عددهم عن عشرين شخص كما هو مألوف ، وبما ان الاحتفاظ بمثل هذا الطاقم في البلدان العديبه يعتبر خسارة فقد استنتجوا بسعة افق روسي حقيقي : يعني ان التجارة مع البلدان العربية رعونة وخيال ، وليس لها نصيب من قبل رجال الاعمال الواقعين الصاحين ، حسبما يعتبرون انفسهم ، في حين يملأ اصحاب المعامل اليابانين الجزيرة العربية ببضائعهم من المخازن في بومباي بمساعدة شبكة متشعبة من الوسطاء (الهنود غالبا) بكل بساطة في نفس الوقت ، وما يلفت النظر الى جانب الاقمشة القطنية اليابانية والمصنوعات

الحريرية الصينية مثل الجوارب ، المناديل ، واشياء اخرى صغيرة من النوع الردىء بما فيه الكفاية (وقد اقتنعنا بذلك من التجربة الخاصة حيث تمزقت الجوارب في يوم واحد) ، وتبدو هنا وهناك خردوات الحديد الالمانية - النمساوية والتشيكية ، سلع صغيرة ، خيوط ، مصابيح يدوية ، زجاج الفوانيس الخ ، اما البضائع الامريكية فتتمثل فقط بصفائح الكروسين استندرات اويل ، والبضائع الانجليزية غير ملحوظة .

.. نمر على التلغراف : وهو عبارة عن غرفة صغيرة ، ومدير التلغراف هو نفسه عامل التلغراف الوحيد ، يستند بمرافقيه على المنضدة ينقر على الجهاز رسالة عاجلة ببطء ، وحين دخلنا ينهض ويحيينا بوقار ، من الواضح اننا قد ازعجناه ، لان الوقت فترة ما بعد الغداء ، وهو جالس يمضغ القات وقد وقع في حالة يكون الحديث فيها من الاعمال التي اقل ما يرغب فيها ، ساعات القات ....قد ذكرناها سابقا ، هي اكثر الساعات نعيما في حياة اليمني ، ففي هذه الساعات من الواحدة حتى الثالثة بعد الظهر تقريبا ، لا يستطيع فيها الفقير المدقع فقط متعة تلمس حزمة الاوراق الخضراء المحتاطة مسبقا ، ووضع نتف صغيرة منها في الفم ومضغها يتلذذ يمسح بها لعاب سقف حلقه وعندما يكون المقيل جماعياً تتخلله صيحات منفردة ، تعكس حالة الابتهاج نصف السكرانة التي يرفع فيها ما ضغوا القات نفسا من دخان النارجيلة بالنور ، ويرتشفون في النادر من ماء باردا مشبعا بالبخور من اكواب صغيرة .

القات

وتحت علامة القات " مثل الفودكا عندنا المعروفة بقدر ملعوم " تمر الحياة ليس في الريف اليمني فقط بل وفي المدينة ، ان حزم الاوراق الخضراء الجذابة تعتبر سببا اساسيا للتبذير ، التخلف عن العمل وسببا للجريمة ، واكمالا لكل ما تقدم فان القات يضعضع صحة المخزنين المتهورين ، كما يستخدم القات مصدرا لربح ملاك المزارع الصغيرة المزروعة بالاشجار اللطيفة المظهر ، والتي لا يتجاوز حجمها شجيرة الليلك ، ونتيجة لمضغ القات ، الذي يتم تعاطيه بدلا من الكحول والتبغ الى حد ما ، وكذلك بدلا من مجموع المتع ووسائل الترفيه المعدومة في هذا البلد المغلق والذي يرجع ذلك الى صرامة العادات والاخلاق ، فان نصف السكان يقضي وجوههم الصحي ، كما يصابون بمجموعة من الامراض المزمنة حيث انهم يتحولون الى مخدرين عاجزين ، والنضال ضد القات لا يصعب بسبب وجود ظروف معيشية خصوصية متميزة فقط ، بل ولاستحالة استبداله باشكال ترفيهيه اخرى ايضا ، وبسبب العادة القوية العنيدة منذ غابر

الزمن ، لقد وصلت هذه العادة الى مرحلة طقوسها الخاصه ، يحكى ان الامام يحيى الذى لم تنعدم فيه طموحات التقدم والاصلاحات الجزئية فى البلاد ، فكر تحت تأثير الأطباء بالحد من استعمال القات الى درجة معينة ، وكبداية توقف شخصيا عن مضغ القات ، الا ان هذه " البدعة " واجهت بتذمر قوى من العلماء ممثلين بمجموعة من المشايخ المؤثرين ، وكشفت للرئيس الروحى والمدنى كل تناقض سلوكه مع نمط الحياة المتوارث عن الاجداد والذى ترسخ منذ القدم ، وتحت تأثير الغيورين بصرامة على الاصالة الوطنية والمشجعين بدون شك من قبل ملاك مزارع القات وتجاره ، اضطر الامام للمهادنة ، حتى انه نفسه كان يمضغ القات بعد الغداء ، كى لا يعطى رفضه للقات صفة مبدئية او قطعية .

ضيفنا مدير التلغراف بالشامى ، وسلم لنا فى نفس الوقت برقيات تحية من سيف الاسلام محمد من الحديدة ومن عامل باجل ، هنأنا سيف الاسلام بسلامة الرحيل الى صنعاء ، التى سماها " عاصمة الخليفة " ، فى الجملة الاخيرة اشارة الى ان المؤمنين التابعين للمذهب الزيدى يعتبرون الامام خليفة لقاطبة المسلمين ، اينما يكون مقره عاصمة المسلمين ، وعلى كل حال تضمحل هذه الصيغة فى محتواها فى واقع الحياة القاسى ، الذى لا يقدم اية اما ل لتحقيق امال الجامعة الاسلامية .

يشعر مدير التلغراف بانه ممثل السلطة العليا فينطبق بخطاب حول الخصائص السيئة للبضائع الايطالية ، معبرا عن امله فى ان تكون البضائع الروسيه على مستوى الامال المرجوة ، ثم نفترق بعد ان تبادلنا المجاملات .

فى النزل الصغير يخبرنا قائد حراستنا انه يتحتم علينا الانتظار للسفر الى اليوم التالى ، وذلك لأنه لا يوجد جمل نستبدله بالجمل الاول ، واضافة الى ذلك فقد بدا البغل الذى كان بصحبتنا يعرج ، وان السلطات قد ارسلت طلبا الى الامام حول اذا كان يمكن تغييره ببغل اخر ، انتظار جواب الامام مسألة فى غاية الاهمية ، وقد اقترح علينا ان ننام بهدوء ونسافر صباح اليوم التالى : وفى تلك اللحظة لم نتقبل بجدية حجته فيما يتعلق لا بامكانية تدخل الامام فى مسألة تغيير بغل باخر ، فارجعنا سبب التاخر الى دوافع سياسية ما او ببساطة رغبة العسكر فى الراحة فى مدينة ملائمة نسبيا على حساب " الرحالة المشهورين .

لا شك ان الأخير كان واحدا من الاسباب ، لكننا اقتنعنا فيما بعد ، ان واقعة الاستغاثة من السلطات المحلية فى حد ذاتها الى العاصمة حول مصير حيوان حكومى لا تشكل بحد ذاتها امرا عجيبا ، فاذا لم يكن الطلب مقدما الى الامام ، فانه سيكون فى كل الاحوال الى اقرب

مساعديه الوزير (يشبه رئيس الوزراء) القاضي عبدالله وانه سيكون مشغولا ببحث مسألة بمثل هذه الاهمية ، الجهاز البيروقراطي في اليمن بسيط بما فيه الكفاية ، فاصغر القضايا توجه الى الإمام او الى رئيس وزرائه . .

الجواسيس

لقد لاح لنا في توقفنا الاول وعن قرب ، لاحظنا نشاط مختلف النماذج الغريبة ، التي من الواضح انها تتحرك باوامر احد ما من الخارج ، وقد ظهر هذا بشكل جلي خاصة في مناخة .

في النزل الصغير يلاحقنا رجل رث الثياب بعناد ، يسعى دون اى طلب منا ان يتحدث عن مأزق الامام ، وبناءا على ما يقول يبدو ان كل السكان اطلاقا معبأون ضد الامام ، الجنود يهربون ، التجارة توقفت ... الخ .

الجميع يتعطشون لوصول الانجليز ، يخافون من الدمار الذى ستترتب عليه غارات الطيران ، الكل يعاني من الضرائب الباهظة .

نحاول التهرب منه ، وذلك لان معلوماته تاخذ صفة المغالاه والتحيز وتتناقض بشكل ملموس مع مجموعة من الوقائع المرئية ومع الانطباعات المباشرة التي حصلنا عليها نتيجة الاحاديث مع اشخاص اخرين ، ورغم ذلك فهو لا يكف عنا ، يتملق ، يساعد في جلب الاشياء يسعى مزاحمة العسكر الذين يرافقوننا .

نرجوه مرة ثانية ان يكف ، نهدده بالشكوى الى العسكر ، وحين رأى انه ليس لديه اى شيء أخر يطلب " بخشيشيا " (للشاهي) والوداع ، ينزع حزامه ويحدثنا انه كان في حينه خادما لجيكوب ، وكانه مطلوب تاكيد ذلك ، ابتزنا محتالا ريالين فضه ، ومع ذلك ظل يتابعنا طول الطريق بثبات عن بعد ، ولم يفقدنا من لمح بصره حتى وصلنا صنعاء نفسها .

بطريقة او باخرى نرتب انفسنا للمبيت ، هناك جبال ، والاثاث الداخلي للبيوت ليس مثلما هو عليه في تهامة ، لا توجد هنا الاسرة المفتولة من القش ، نتمدد على مصاطب من الطين داخل الغرفه التي ارضيتها من تراب يوقظوننا عند الفجر وبعد ان شربنا كوبا من اللبن نمتطي البغال وبعد ان اصبحنا خارج المدينه في طريق معبد واسع بدانا النزول في فج عميق ، وتتحول الطريق المعبدة الى طريق مملوءه بالحجارة ، التي لا تستطيع الخطو عليها سوى البغال ، فهي تجد بمهارة المكان الملائم لوضع الحوافر دون ان تفقد نقطة استنادها ودون ان تقع في الهاوية الفاغرة .

من حين لآخر نصادف قوافل الجمال الطويلة ، التى كان يجب علينا ان نبتعد عنها بالقدر الممكن ، وبسبب ذلك أن السير المنتظم للجمل الذى لا يلوى على شيء (لا ينظر الى ما حوله) وهو حامل رزمة او حزمة معلقة على جانبية ، قد تؤدى اما إلى ان تدفع الراكب المقابل الذى اصطدم بها الى الهاوية ، واما ان تلصقه بالصخور وتسحقه مثل الرغيف ، كان المنخفض شديد الانحدار ، وكانت البغال تسير بسرعة ، وبعد ساعتين وصلنا الى سفح السلسلة الجبلية الى سهل خانق محترق .

الباب العاشر

*من مضيق الى مضيق

*مدفق

* التركى الشاكى و " شخص " فى الحديدة

* الجراد والأعلام الحمراء

* المنجم

* نتائج الرحلة

من مضيق الى مضيق

في نهاية المنخفض ، هناك حيث يتحول الفج الى سهل جاف مملوء بالصبار ، يستقر مقهى عند السفح ، كوخ ضيق صغير يتكون من اربع او خمس زوايا ، مرصوص باحجار غير منجورة ، يمتلكه بدوي واهن بثياب رثة ، نادانا بالحاح لنستريح ، نتوقف ، يصب لنا فناجين من قهوة القشر ، ويعد لنا علي الفحم بيضاً زنخا من الدخان ، وقريبا منا يحوم ابنه ، صبي في السابعة او الثامنة من العمر .

ما هي اهتمامات من يعيشون في هذا الكوخ علي حافة الطريق ، ما هي الغايات الاجتماعيه المثلى لصاحب هذا المقهى ، نسال الصبي .

— ماذا تريد ان تكون عندما تكبر ؟

نظن انه سيعبر عن رغبته في ان يصبح عسكريا ، ضابطا ، قاضيا ، موظفا ، شيخا ... فما هي الطموحات التي يمكن ان تكون لدى صبي هذا المالك ؟

— اريد ان ابقى في هذا المقهى طول حياتي مثل ابي .

صبي سعيد ، مثله قنوع متواضع جداً وبسيط جدا تحقيقه ، يشترط ان تظل اليمن ثابته لا تتغير عشرات السنين القادمة ، وحينها سينتقل هذا الكوخ المبني من الاحجار من الاب الى الابن ومن الاخير الي الحفيد ، كانه ضمانة لثبات مثلهم .

لكننا للاسف ، عرفنا في صنعاء ، بان الحكومة اليمنية تشق طريقا جديدا صالحا للسيارات من الحديدة الى صنعاء ، ستمر هذه الطريق بمناطق اخرى تماما ، وتعبر شعاب وسلاسل جبلية مغايرة ، وحين ينتهي شقها ، وهي مسالة ستكون في الاعوام القادمة ، فان سير الحمولات الرئيسي سيمر بها قاطعا الطريق من البحر الى العاصمة في يوم وليلة ، وبهذا ستفرغ ناحية مناخة وشعابها بالكامل من القوافل المارة بها ، وعند ذلك سيتحتم على مالك المقهى واولاده القنوعين ان يتركوا كوخهم وان يذهبوا الى المدينة طلبا للرزق ، ابدا ، فان المستقبل القريب جدا لليمن يحمل في طياته افاقا غير متوقعة لصاحب هذا المقهى ، الغارق في غبطة ونعيم مشكوك به في كوخه .

وداعا ايها الصغير السعيد المفكر بواقعية ، لن تكفيك نزعاتك العملية الواهمة طويلا ،

قدما نصل الى سهل تتخلله اكمات صغيرة .

السهل حار مثل سهولة تهامة ، تبطيء البغال خطوها ، تجتاز سلاسل الجبال بصعوبة ومنخفضات ينبت فيها الصبار ، تمر خمس ساعات في الطريق ومناخة لم تختفي عن الانظار بعد ، مناخة المفروشة على مرتفع المضيق الجبلي البعيد ، نمر مرة اخرى مروراً قصيراً في مقهى نائي على حافة الطريق ، ثم نتحرك قدما ، نرى تلالا جديدة اكبر ، واشباحا غريبة متفرقه للجمال المتناثرة على كل التل من السفح حتى القمة ، تقضم النباتات الشوكية بشراهة ، وفجأه يبدأ العسكر ينادون بكل اصواتهم مترنمين بمختلف النبرات :

— احمد بن محمد المطرى ! احمد بن محمد المطرى !

وعلى سؤالنا ، ماذا يعني هذا الاطراء او التبجيل ، يجيب العسكر بان كل الارض التى نسير عليها لعدة ساعات يمتلكها الشيخ احمد بن محمد المطرى ، تعتبر المنطقة باكملها ملكا له ، وكل من يمر بها عادة ينادي باسمه يكرره في مختلف المقامات .

محفق

نصل قرب المساء الى سهل جديد واسع وفي نهاية السهل جبل في قمته قصر محفق ، هذا واحد من المراكز الاداريه المهمة ، رغم ان سكانه يشكلون حامية صغيرة ومحطة تلغراف، نتوقف للمبيت على جبل مقابل له ، حيث تقع قرية صغيرةبنفس الاسم .

لا يوجد في هذه القرية لا التلغراف ولا السلطات ، كما لم يخطر احد بوصولنا ، يتوجه شاويشنا بنفسه ليبحث لنا عن مسكن ، كل الاكواخ مكتظه ، وبعد عدة محاولات استطلاعية فاشلة يشير الشاويش الينا على احد الاكواخ ، وحين بدانا نرتب انفسنا بجانبه ، لم نكن ندرك بعد ان اكملنا انزال حمولة البغال ، حتى ظهرت امرأه من مكان ما ، اتضح انها صاحبة الكوخ ، تمطرنا بسيل من الكلمات الغليظة داعية على رؤوس العسكر ، وربما رؤوسنا ايضا ، بكل لعنات السماء المختلفة .

نطلب مرتبكين توضيحا للقضية ، اتضح ان العسكر العابرين قد اضجروا السكان المحليين بتوقفهم اللانهائي في هذا المكان ، اولائك العسكر الذين يطلبون الغذاء المجاني ، واحيانا تصاب الممتلكات بخسائر اخرى ، حتى اصبح وصول اى عسكرى الى الكوخ ينظر اليه بانه مصيبة او كارثة دورية ، والحالة كهذه ، يزداد غضب الامرأه ، لان الشاويش الذى يقود جماعتنا

لم يهتم بسؤالها مسبقا عن امكانية مبيتنا حتى من قبل المجاملة ، وفي سيل السباب المسعور يبدو كما لو انها افرغت التذمر المتراكم ضد العسف الذي يقوم به العسكر والصف الطويل من الضيم والمضايقات .

نعلم انه لا نعتزم شغل الكوخ ضد ارادتها ، حتى اننا بدانا في رص العقد التي كانت قد فتحت . حينها يسوى الامر ونحصل على " الموافقة المعنوية " ، وكان الشيء الرئيسي انه بعد ان عرفت انها لن تخسر هذه المرة ، هدأت وبدأت تطهي الطعام لنا ، امتد بنا على الاسرة المتنقلة قرب المدافيء تاركين العسكر الاندساس تحت قبته الخانقة .

التركي الشاكي و " شخص " في الحديدة

يحل الليل سريعا ، امامنا سلسلة جبال جديدة طويلة ، يجب ان نقطعها غدا لكي نصل في اليوم التالي الى صنعاء ، ننتهي من أكل الدجاجة التي لا تتبدل تنتظر النوم بلذة ، وفجأة ينتصب أمامنا ، نموذج غريب اخر كما في مناخة ، تركي شائب يبدو ذلك من طربوشه المهترئ ، متعب معفر من رحلة طويلة مشيا على الاقدام ، يبدأ يؤكد لنا بحيوية ويتشفى انهيار الحكومة اليمنية :

— يهرب الجميع من صنعاء ... الامام بسياسته انهض الجميع ضده ، توقفت التجارة مع عدن ، والبضائع مفقودة ، والطائرات الانجليزية على وشك الوصول الى صنعاء ترمي بقنابلها ، لكن السكان لا يخافون من الانجليز ، انهم على استعداد للترحيب بهم كمنقذين لهم من الامام .

يشقشق بعبارة واحدة يكررها عدة مرات .

— فلياتي كائن من كان .

نسعى الى استقصاء " انحداره الاجتماعي " باهتمام . يتضح انه تاجر تركي ، ذاهب على عجل الان الى الحديدة فيبحث عن بضائع ، بدا يتباكى على اوقات النعيم ، حين كانت سلطة الامبراطورية العثمانية تقبض بيدها على هذا البلد واعطت مجالا واسعا للتجار الاتراك للكسب ، اما الان فان الاتراك يرحلون من اليمن ، لان التجارة تنتقل قليلا قليلا الى التجار العرب ، ظل هذا التركي متذمرا ، يتذكر باسى الايام الخوالي حينما كان في بحبوحة من العيش .

الصورة واضحة : بقية عفنة من الممثلين الاتراك ، ممتلىء بالحقد على اليمن المستقل ، يتمنى له كل اخفاق وفشل ، يساعد بكل قوله اعداء اليمن ، ينشر كلمه بكلمة تلك النمائم المستقرة ، التي سمعناها منذ توقفنا السابق من فم " خادم جيكوب ".

وفى نفس الوقت – كما عرفنا فيما بعد – كانت قد وصلت الى الحديدة شخصية مؤثرة ، من الواضح انها مرتبطة بالانجليز (احد الوزراء المصريين السابقين التابعين للانجليز) وقد نشرت هذه الشخصية مثل هذه الاخبار واضافت اليها معلومات اخرى وقد كانت هذه الشائعات تهدف بالاساس الى ما يلى :

وجه الانجليز الى الامام انذارا نهائيا ، يطالبون بحل مشكلة المناطق المتنازع عليها (المحتلة من قبل الامام) وبمجموعة من التنازلات الاخرى ، بما فى ذلك اعطاء حكم ذاتى لتهامة ، وانه خلال الايام القادمه ستلقى الطائرات الانجليزية قنابلها على كل المدن اليمنية بما فيها العاصمة ، والاسطول الانجليزى سيمسح الحديدة من على وجه الارض ، ستنتفض القبائل ضد الامام وستنتقل السلطه الى يد شخصية اكثر مقبولية لدى الانجليز ، وما دام هناك متسع من الوقت ، يجب التنازل ، واقناع الامام بتقديم تنازلات ، وطلب المسامحة من الانجليز .

فى هذه الايام ، ظهرت بارجة انجليزية على سواحل الحديدة ، وكأنها صدفة ، وقد كررت هذه الشخصية بالحاح تشير باصابعها عن يمين ويسار باتجاه البحر :

– اترون ، انهم قد اتوا ، اذا لم يكن اليوم فغدا سيبدأون القصف .

وحين اصبح واضحاً ، ان الحكومة رفضت مطالب الانجليز بالتنازل ، اكدت هذه الشخصية بجزع :

انتهى اليمن ، ليس له من خلاص .

وفى نفس الوقت حاولت هذه الشخصية ، اقناع الوجوه المؤثرة فى الحديدة بالاقدام " من اجل المصالحة الوطنيه " على استبدال الامام يحيى بشخصية ما اخرى ، ولو حتى على نطاق تهامة ، لقد كانت التربة غير ملائمة لتجار الحديدة ، فرغم انهم قد ارتبطوا بالشركات الاجنبية ويتأوهون تحت التأثير المتعاظم للسلطة المركزية ، التى تبتلع الى ارباحهم التجارية ، الا انهم لم يتجرأوا على الدخول فى صراع مكشوف مع صنعاء ، لان علاقتهم بالسوق الداخليه وخوفهم من التنكيل غلبوا على انفسهم واستسلموا استسلام الكمبرادور المتذبذب ، وبالمناسبة ظهرت هذه الشخصية " امام رفاقنا الذين بقوا فى الحديدة ، محاولة اقناعهم باخطارنا تلغرافيا عن

الموت الذي يهددنا في صنعاء ، ونعمل كل شيء من اجل عودتنا من الطريق باسرع ما يمكن .

وهكذا ، انه اجزاء متفرقة ، من انطباعات متقطعة كانها محض صدفة ، وقليلا قليلاً تتضح الصورة المعقدة للشبكة العنكبوتية من الدسائس والاستفزازات ، التي ينسجها بمهارة رؤساء عدن المجربون ، وقد تاتي لنا لاحقا ان نصطدم بنتائج وظواهر هذا العمل في صنعاء .

اليوم قبل الاخير من رحلتنا ، صعود طويل وشاق ، نعبر المنطقه ، التي اشتهرت بانها المعقل الرئيسي لنشاط الثوار اليمنيين في عهد الاحتلال التركي ، نرى هنا وهناك على قمم التلال ، ابراج المراقبة التي بناها الاتراك ، نتوقف في الظهيرة في قرية صغيرة اسمها سوق الخميس ، هنا تبدأ منطقة مزارع البن مرة اخرى ، وسهل الحيمة المشهور غير بعيد من هنا ، هذا الوادي الذي سمي باسمه صنف من اصناف البن اليمني ، اتى الينا تجار البن يقترحون علينا عقد صفقات مباشرة هنا للتخلص من وسطاء الميناء ، كما ياتي الحكام المحليون ، بدأ احدهم حديثا مفتوحا مع قائد حرسنا حول المثل السياسية " للاعضاء النشطاء " من المجموعة العسكرية اليمنية ، يثبت لنا بان اليمن مؤهلة لتوحيد شبه جزيرة العرب تحت سلطتها ، بل وحتى توحيد الهند ومصر ، حيث يوجد اتباع ومريدون للامام ، نرى ان هذا هو برنامج الحد الاقصى ، الموجود فقط ارفع همة فئه نشطه واسعة ، ثم عرفنا فيما بعد واقتنعنا بانه لا يوجد لدى الاوساط اليمنيه الحاكمة مثل هذه الاوهام ، وانها تفكر بطريقة اكثر واقعية ، تطمح لان يتعزز استقلال اليمن في حدوده الداهنه ، لانها في قوتها الانتاجية بهذا القدر ، اما طموحها في التوسع فلا يتمثل الا بشكل الحاق بعض المقاطعات في الشرق والجنوب الشرقي (مارب وحضرموت) .

الى الامام قدما ، نمشي اعلى فاعلى ، لقد اصبحنا على ارتفاع اكثر من ثلاثة الاف متر فوق سطح البحر ، وعلى طريق واسع مقوس الشكل ، تتمرج حول منخفض سحيق ، مغطى بطبقات كثيفة تتالف من مدرجات البن ، ندور حول وادي الحيمة ، الذي تتصاعد من قرارته سحب مظفرة ، وبعد ان نخلف بمجموعة هضاب صخرية ، نهبط الى نهير صغير ، حيث تبدأ طريق معبدة صالحة بما فيه الكفاية لعبور السيارات ، وقرب الجسر وعبر النهرين صف من المباني الحجرية ، هذا هو سوق الخميس، حيث يشتغل السوق يوما في الاسبوع (يوم الخميس) لكل المنطقة ، لكن السوق الان خالي ، لا يرى احد في المباني الحجرية ، نتابع سيرنا في الطريق المعبد الواسع ، الذي لم نتوقعه ، نتحسر على عدم وجود سيارة يمكن ان نبلغ بها صنعاء خلال ساعتين او ثلاثة .

تتعرج الطريق على هضبة سهلية مارة بالمضائق الجبلية القليلة الانحدار ، بين الاراضي الخضراء الشبيهة برقعة الشطرنج ، تخضر مزارع الذرة والقمح ، وتصادف قرى ليست من الاكواخ البسطة وانما من مباني ضخمة تتالف من ثلاث او اربع طوابق ، يقال انها بنيت قبل الف سنة ، كلها قصور قروسطية بكوات وابراج مراقبة ، تقع على المرتفعات تلتصق بمرتفعات الجبال ، لا يمكن الوصول اليها في حالات الهجوم الا من جهة واحدة فقط ، نشاهد خزانات المياه الحجريه الواسعة التي بناها الاتراك على طول الطريق المعبدة الرائعة ، لقد ارهقنا ، تعد الساعات المتبقية للوصول الى منتة مكان المبيت الاخير .

فجاة ينتعش مرافقونا ، يتبادلون النظرات بهلع ، يشيرون الى سحابة غبراء بعيدة .

الجراد والاعلام الحمراء

- الجراد ، الجراد - نسمع الاصوات المتقطعة .

نحملق في السحابه الغبراء ، نرى كيف تتسع متحولة الى سديم كثيف ، تغطي الافق الذي كان صافيا قبل برهة قصيرة ، نمضي نصف ساعة واذا بنا ندخل في عمق هذه السحابه من اسراب الجراد المنتشرة .

تضربنا الحشرات بأجنحتها ، تصيب اذاننا ، كما تصيب البغال وترتمي اكداسا على الطريق تشكل غطاءا كثيفا تخطو حيواناتنا عليه وكانها تخطو على بساط .

ومن حولنا - ارض ... مزدهرة ، زرع اخضر يتحرك بالكاد من البرودة الطرية للهضاب الممطرة ، لقد طوقتها الجموع الشرهة بكثافة .

نضال ؟ ... لكن ايمكن ان نسمي هذا نضالا ؟ ... ففي بعض الاماكن المنفردة التي تقطعها السواقي يركض اناس منفردون ، غالبيتهم من النساء والاطفال يلوحون بمراوح كبيرة مخشخشة ، ان طرد الجراد من الحقول بهذه الطريقة تشابه تقريبا طرد سحابة ممطرة بطلقة بندقية ، فقط في بعض الحالات وحين يكون الريح ملائما يستطيع بعض المحظوظين الفرادى جعل اسراب الجراد المتدفقة على قطع ارضهم تنتقل الى قطعة مجاورة قبل ان تلتهم الاخضر واليابس ، لكنه بشكل عام ، يبدو الانسان ضعيفا عاجزا وكائنا حقيرا امام جحافل الحشرات النهمة التي لا تقهر ، تلتهم الجراد بالدور كل الاراضي ، مستغله العادة الذاتية لمالك الارض ، الذي يسعى للمحافظة على ارضه فقط ، ولا يهتم بجاره قليلا ، ولو نهضت كل القرية وتعاونت

على طول الخط في مكافحة الهجوم بقوة موحدة ، لكان من المحتمل تحقيق نتائج ما معينة ، غير انه لا ذكر للنضال المشترك . تلويحات ، خشخشات بهيجان شديد ، تركض النساء والصبيان بهستيرية بمراوح كبيرة ، لكن بالكاد يستطيع واحد بالمائة طرد العدو الجاثم .

... وفيما بعد ، بعد شهر ونحن في طريق العودة ، نشاهد قطع الارض السوداء المحروثة من جديد، بدلا من الزرع الاخضر والاغصان الناضجة ، لقد اكلت الكتلة الجسيمة النهمة الزرع ، وتابعت هجومها قدما ، في اعماق البلاد حتى وصلت الى الصحارى فيما وراء الجبال النائية .

تذكرت كيف لاحظنا اسراب الجراد في جدة ايضا ، القادمة من الصحارى الى سواحل البحار ، التي تناثرت حتى على سطح سفينتنا ، غير ان الحجازيين في تلك الارض القاحلة ، لم يلحتوا هذه الكارثة بتاتا ، وانما كانوا يجرفون اسراب الحشرات في اكياس ويعدون منها غذاء ، يمتصون الجراد بشراهة بعد ان يرموا باجنحتها القاسية ، لا شيء في صحارى الحجاز يمكن ان تلتهمه الجراد ، بل على العكس فان افواه البشر الجائعة هي التي تلتهمها .

الصورة النسبية عن الخير والشر مفهومة ، فالجراد في الحجاز هو نعيم هبة السماء ، اليس الجراد هو الذي تغذى به اليهود المذكورين في الانجيل بدلا من " السميد " ؟ ... بينما يعتبر الجراد شرا رئيسيا ، مأساة ، يقضي على ثمار عمل الانسان الدؤب في " اليمن السعيد " .

لا يمكن الحديث عن تنظيم الدولة لمكافحة الجراد . فالمكافحة تتم بالمراوح والخشخشة فقط ، واحيانا بالاعلام الحمراء التي كتبت عليها الدولة " لا اله الا الله " باحرف بيضاء من اجل ان يكون النجاح حليف مطاردي الجراد ، لقد كان غريبا بالنسبة لنا ان نرى هياكل نصف عارية خلف الاراضي المغمورة بالجراد ، وهي تلوح بالاعلام الحمراء كانت هذه الهياكل تركض من طرف الى اخر ، وكانهم ثوار يحملون يافطات الدعاية ، هنا وهناك ترفرف ، لكنهم يلوحون بها ليس من اجل الانتفاضة وانما نوبة عجز ، يحاولون صد الهوام الحقيرة الضعيفة التي تحولت بقوة جموعها الى جيش عارم لا يقهر .

نقترب حتى نصل الى مكان خالي (وكل السكان في الاراضي التي طالتها الجراد) ، فسيكون مبيتنا الاخير فيه .

يسمى هذا المكان في الخرائط التركية سنان باشا ، باسم الجنرال التركي الذي احتل اليمن في وقت عصيب ما ، يصدم هذا الاسم الاذان اليمنية ، ويسمون هذا المكان بكلمة قصيرة

" متنة " التي تعني " مدينة " صغيرة بكل بساطة .

وهذه المدينة الصغيرة " تقطعها طولا وعرضا خلال خمس عشرة او عشرين دقيقة فيها بضعة منازل قديمة ضخمه ، وخزان مياه واسع تشكل مركزها ، وبجانب الخزان مبنى تشغله الحامية والسلطات ، نسكن في احدى البيوت ، في الطابق الثالث ، نشاهد من اعلى السقف الاملس المزارع المحيطة الخضراء ، والجبال القريبة والبعيدة ، وقطيع من الجمال السارحة التي تأخذ مكانها بين جدران القناء الحجرية القريبة من دارنا .

الجو بارد ، الريح تصفر ، تنتابنا رعشة ، الارتفاع هنا اكثر من ثلاثة الاف متر ، يكون الجو باردا في الليل حتى في الصيف .

يقدمون لنا الدجاجة المغلية التي لا تتغير ، المسلوخة الجلد والدهن ، يجيبوننا ب " مافيش " المستمر حين نسأل عن وجود اي طعام اخر ، لقد كانت كلمة " مافيش " تتخلل كل رحلتنا من الحديدة بثبات .

والخمسة والثلاثون صنف من العنب التي حكى لنا الشائب عنها في الباخرة ، كل هذه الاصناف توجد على بعد عشرين او ثلاثين كيلومترا من هنا ، اما هنا فلا توجد سوى البدائية والشحه نفسها ، تلك الشحة التي صادفتنا على طول الطريق من الحديدة.

المنجم

يقطع تاملنا ظهور منجم ، عجوز طويل نصف عاري وفي يده مسبحة ، ياخذ يقرأ المستقبل ، نوافق ببعض الابتسامه .

يقدم لنا سبحات الكهرمان ، يطلب منا دلكها بالبشرة ، يجعلنا هذا ناسف على الموافقه التي اعطيناها له ، غير ان تراجعنا صار متاخرا ، يبدأ المنجم بالتحديق في المسبحة يهمهم بشيء ما ، يخيب املنا ، فبدلا من ان يتنبأ بالمستقبل او يعطينا تنبوء حول الحاضر ، الذي يمكن أن يكون شيقا لمعرفة نفسيته ، تسمعه يعدد امراضا فينا ليست موجودة في الواقع ويقترح علينا معالجتها ، هذه الامراض غير موجوده فينا ، نرفض طلبه ، ونشكر خدماته ، ثم نطرح على العجوز سؤالا مباشرا ماذا يفكر عن رحلتنا ونتائجها المحتملة . ؟

لا يخلو جوابه من خبث :

– اهدافكم القريبة ستبلغونها اما البعيدة فلا .

الجواب غير مرغوب فيه كثيرا .

نسأله ايضا :

ماذا تفكر عن الحرب : هل تتوقع الحرب ، وبماذا ستنتهي ؟

هنا يستسلم العجوز ، انه مستعد للتنبوء بمستقبلنا ، لكنه لا يرى مستقبل بلاده .

– اجاب عن هذا ، الله وحده يعلم – يقولها بصراحة ، وفجأة يتوجه الينا ينتقل الى الهجوم المضاد .

– قل ماذا تفكر انت عن الحرب ؟ هل من المؤكد ان الانجليز سيطيرون ويدمرون قرانا ؟

ينتقل دور التنجيم الي ، رغم عدم وجود مسبحة عندي ، لقد حرمتني من امكانية الانتقام من محدثي الذي اجبرني على ان المس الوسخ المتراكم في قرون المسبحة .

اجبته بلهجة اقل صوفية او ابهام :

– ان يطيروا او يرموا القنابل ، هذا امر كبير الاحتمال ، اما ان يدمروا القرى والمدن فهذا قليل الاحتمال ، لانهم لا يستطيعوا ان يلحقوا بها اذى كبيراً .

نتائج الرحلة

تخالصنا ، هو ايضا غير راضي عن اجابتي المراوغة ، يقترح مرة اخرى اشفائنا من جميع الامراض الوهمية نتوادع ، اعطيناه بقشيشا ، ثم يذهب .

يحل الظلام ، اخرج الى السقف المستوي ، تهب ريح حادة باردة ، وبقايا المزارع التي التهمها الجراد مخضرة بشكل باهت ، استحضر في فكري المراحل التي قطعناها من الرحلة ، تهامة الغبراء المضنية ، اشجار الاثل الخضراء في سفوح الجبال ، الحيود الصخرية في مضائق الجبال ، اشجار البن المتواضعة ، الصبار الشوكي الخبيث ، الخطو العنيد للبغال اللطيفه التي لا تتعثر ، الابراج التركيه العديمة النفع ، قصور المشايخ ، الجمال البليدة ، الحمير الذكية الحثيثة ، البغال الصبورة الواثقة من نفسها ، الببغاوات ، القرود في الاحراج والجرادين في المنعطفات الصخرية .

البشر السود ، بدو تهامة الذين تخرهم القيظ والغبار ، سكان الجبال الرشيقون ذوى اللحى السوداء العسكر المعممون واشرطة الذخيرة فى اجسادهم النصف عارية ، واقدامهم التى حولتها قيظ الطرقات الى نعال جلدية .

المساحة الشاسعة الخالية قصور المشايخ التى تحيط باسوار منيعة ، الفلاحون الذين ينضحون عرقا فى المزارع والحقول ، الاعلام الحمراء ضد اسراب الجراد ، المشايخ النقيو الدم على صهوات الجياد الاصيلة ، الجمالة ذوى الوجنات الناحلة ، القوافل المربوطة بسلاسل طويلة ... صفائح الكروسين وصناديق الذخيرة على ظهور الجمال والحمير ، قطعان الضأن والماعز التى تقضم الحشائش الشحيحة من اجراف الصخور ... رمال ، خضرة ، صخور ، مضائق جبلية ، سهول – وها هى الرياح الباردة الحادة الان ، وامامنا اخر سلسلة جبلية تحجز العاصمة .

أعود الى غرفتى ، وهى مليئة بالذباب ، رائحة الدخان الحادة تتسلل من المطبخ ، يغلق رفيقى النافذة ، وعواصف الرياح حادة عنيفة ، ننام لاول مرة منذ عبورنا قناة السويس والنوافذ مغلقة ، امتطى على السرير المتنقل الذى يئن وانام اخر نومة فى الطريق الى صنعاء .



الباب الحادي عشر

* " الإمام مستاء "
* في عهد الأتراك أم الآن ؟
* الطبقات الاجتماعية في اليمن
* وادي صنعاء الخيمه البيضاء في صنعاء
* النسور في القاذورات

" الامام مستاء "

انهضوا بسرعة ، لقد اشرقت الشمس ...

يصرخ العسكري بالحاح ، يقرع باب غرفتنا بلا كلل ، لسنا ضد ان نواصل النوم ايضا ، الطريق قد اخذت حقها ، لكن لا وقت للراحة .

انهضوا سريعا ، الامام مستاء .

نعلم ان القضية ليست في الامام ولا في استيائه ، فالامس ، اليوم الثالث من الرحلة ، حين استعجلنا مسرعين ، نسعى لكسب يوم زائد ، وحين حثينا البغال ، حاول العسكر انفسهم اعاقة حميتنا بنفس هذه الحجة .

– لا يجب الاسراع ، هذا صعب على البغال ، سيكون الامام مستاء .

حساباتهم مفهومة : سابقا ارادوا السير ببطء ، غير مكترثين ، يحصلون على طعام جيد من " الاجانب الوجهاء " ، اما اليوم – فانهم بهذه الطريقة او تلك – فهو يوم الوصول الى العاصمه ، وهم يرغبون بالوصول اليهم باكرا ، كي يدركون الغداء والراحة حتى المساء ، – وها هو الامام – مرة اخرى حجة وسبب للاسراع هذه المرة .

نتذكر ، ان كل الموظفين ، جميع سائقي الجمال والحمير ، والتجار على طول الطريق كانوا يرجعون جميع الذرائع والاعذار الى الامام ، وما عدا الامام ، الله هو الحجة الوحيدة لتبرير اي شيء كان الذي يتحمل الامام باستكانة وبقدر اقل من الصحة ، كل المسؤولية عن مختلف ظواهر التقصير والتهاون والمماطلة وقد تحتم علينا ، فيما بعد ، في صنعاء الدخول في مماحكة مع عمال التلغراف ، الذين كانوا غالبا وبعتاد ما يؤخرون مراسلاتنا مع الحديدة ، يعللون ذلك تعطيل الخط بمشيئة " الله " : لقد كانوا يردون على محاولاتنا الساذجة المستعجلة حين نستفسر متى سيتم اصلاح الاعمدة التي اسقطتها العاصفة يردون دائما بجواب واحد مفحم ببساطته المقنعة :

– عندما يشاء الله (ان شاء الله بكره) .

ان " كلمة " الله في شبه جزيرة العرب ، تشبه قانون رياضي ، تعني كل ما هو غير مرني

ومجهول ، وجملة " ان شاء الله " هي واحدة من اكثر العبارات العربية الكثيرة الانتشار ، تلتصق هذه العبارة في حقيقة الامر بكل عظة او حكمة ، تدل على الاستمالة الدائمة للتنبؤ الدقيق في ظروف العفوية البدائية ، واذا الصقت " ان شاء الله " باي عبارة تتعلق بالمستقبل ، فانها تضفي عليها علامة التقريب .

– متى سنصل الى صنعاء ؟ – نسأل مرافقينا بفارغ صبر .

– خلال ثلاث ساعات إن شاء الله – يجيبون علينا

وهكذا سنصل صنعاء اليوم " ان شاء الله " ، نستنشق الهواء البارد العليل بشراهة ، نحدق في اخر سلسلة جبلية تفصلنا عن وادي صنعاء يرفرف الهواء بعيداً بهدوء ، نشاهد سنابل الذرة والقمح مخضرة وبانتظام في الحقول التي لم تمسها الجراد التي تزحف جانبا في مكان ما .

نشاهد القصور المتعددة الطوابق على الجوانب ، والبيوت الطينية الملحقة بها ، القرية تتكون من مباني متكدسة ذات قالب واحد ، تحيط بها اسوار حجرية ضخمة وبوابات وحيدة تغلق ليلا ، تتعرج الطريق في السهل ، تغوص احيانا منحدرة ، واحيانا تزحف متسلقة الى الهضبة المرتفعة ، نمر على صخرة ضخمة ، بحجم ناقوس القيصر محفور بداخلها وبها فتحة كأنه باب ، انها ملجأ لا يمكن ان تخترقه الامطار والرياح فقط ، بل والرعد والبرق والرصاص والقذائف ، لا يعلم احد منذ متى هذه الصخرة هنا ، مثلما لا يعرف احد تاريخ ظهور صنعاء ، وتاريخ بناء القصور والقلاع التي مررنا عليها في الطريق ، والاستفسار غير مجدي ولا ينفع ، اذ ان الجواب واحد هو : يعلم الله وحده متى بنيت ، نمر بقرب مباني مبهمة مليئة باسرار التاريخ القديم ، قرى ، منشآت ، ابراج ، نحملق فيها بنهم ، وكل الاجوبة على اسئلتنا هي اجوبة هادئة وقصيرة باستمرار :

– لا ندري ... الله يعلم هذا ...

في عهد الأتراك أم الآن ؟

نسأل عن موضوع اخر ، حول الحياة الفلاحية ، هل كان الوضع افضل في عهد الاتراك ام الان ... يؤكدون ان الوضع صار افضل ، كانت السلطة سابقا في المناطق تخضع للمشايخ بدون رقابة ، كان الشيخ يعطي الارض للفلاحين ، وربما يقرضهم البذور ، ويأخذ مقابل كل ذلك

ريعا على شكل نصف المحصول ، ويدفع قسطا صغيرا من قيمته النقدية للخزينة التركية ، وكان الفلاحون يخضعون خضوعا كاملا للمشايخ بدون حدود .

وحين خرج الاتراك وتعززت سلطة الامام في صنعاء ، ضعفت له سلطة المشايخ في المناطق ، وبرز موظفوا الامام المرسلين من العاصمة ، يجمع هؤلاء الموظفون العشر بانفسهم حيث استغنوا عن وساطة المشايخ ويسلمون الضرائب لخزينة الدولة ، لم يختفي العسف والغبن عند الجباية بطبيعة الحال ، لكنه ضعف مع ذلك ، يبدو كما لو ان تحصيل العشر وضرائب المشايخ لم تطبق ، المشايخ مستاءون ايضا لان الفلاحين اصبحوا يقومون بتادية الطاعه العسكريه في الجيش الامام متخطين بذلك المشايخ ، وبدأت تظهر المدارس في القرى ، وتقوم الحكومة بتنظيمها ، كما تقلص تاثير رجال الدين المحليين ، غير ان بوادر التحسن هذه ليست كبيرة ، لكن مجرد حادثة ضعف سلطة المشايخ في المناطق ، الخضوع لسلطة حكومية موحدة عامة ، امر يشجع السكان ، الذين يرون في السلطة المركزيه ممثلة بشخص الامام ، ضمانه من نوع ما ضد العسف الجائر الذي ساد سابقاً .

يتضح لاحقا ان الضرائب لم توزع بالتساوي : ففي الوقت الذي يدفع فيه الفلاحون عشر المحصول على اقل تقدير ، يتملص اصحاب المدن من دفع قسط الى الخزينة يقدر باثنين ونصف في المائة من محصول ايجار بيوتهم ، كما يحدد هذا القسط بمقاييس ما قبل الطوفان ، حسبما قال لنا احد الملاك " كلمة شرف " ، ويضغط غياب القروض على الفلاحين بقسوة ، والبنوك لا ذكر لها (لقد حرمها القرآن) ، ومن اجل الحصول على القرض يجب التوجه الى الشيخ ، والشيخ لا يعطي الا التاجر فقط ، رافضا بمرارة اخذ الربح (الى حرمه القرآن) ، لكنه بدلا من ذلك ياخذ حصة الاسد من الربح الذي سيحصل عليه التاجر بفضل هذا القرض فيما بعد ، وتصل هذه الحصة الى ثلث ربح التاجر ، يظل الضمير ساكنا (فالقرآن لم يحرم ذلك ورسول الله لم يخدع) ورأس المال يتضاعف

الطبقات الاجتماعية في اليمن

اما الشيخ فيعطي الفلاحين سلفة لفلاحة الارض المؤجرة منه احيانا ، ثم يسترد هذه السلفة بربح عيني زائد بالاضافة الى نصف المحصول الذي يحسب على شكل ريع للارض .

والتجار لا يدفعون الضرائب كما يعفى مالكوا المواصلات منها ، وذلك لانه يقرض العشر

على البقر والماعز وما شابه ، لكنه لا يفرض على دواب النقل والمطايا ، هذا مربح التجار بدرجة اولى من جديد وذلك انه يجعل نقل البضائع من الموانىء الى عمق البلاد والعكس رخيصا ، يتكسب من هذا الملاك الميسورون في الريف ايضا ، الذين يمتلكون مجاميع من دواب النقل ، التي يستخدمونها لنقل البضائع وعلى هذا الشكل يتكون سلم اجتماعي فريد ، يقف في اعلى السلم المشايخ الاقطاعيون الذين يمتلكون سلطة سياسية حقيقية ، وامكانية استغلال الفلاحين ، ونوعا من الضغط على التجار ، ويمتلك الاخيرون بدورهم سلاحًا قويا في التأثير على المشايخ ، ويستحوذون على قسم من ارباحهم لانفسهم ، يلعبون دور الوسيط ، يشترون البن والحبوب وبضائع اخرى من المشايخ في محلاتهم مباشرة ، وحين تصل هذه الى الميناء تباع البضائع من جديد يدفع التجار ضرائب قليلة ، ولا يزاحمه احد في حرية التكسب

ويكون الاخير على حساب المشايخ جزئيا ، وعلى حساب الفلاحين بالدرجة الاولى ، لانه يشتري البن منهم بثمن ارخص ، ويبيع البضائع الاجنبية عليهم بربح خمسين في المائة – او مائة في المائة .

وفي الاخير يجبر الفلاح على العمل لحساب الجميع : للخزينة التي يدفع العشر لها والقيام بالخدمة العسكرية ، والشيخ ، الذي يدفع له نصف الغلة ، كما يقوم الفلاحون بتادية عدة اعمال حسب نظام " السخرة " ، التاجر الذي يقدم له امكانية الكسب بالتبادل البضاعي ، ان كل مجموعة من هذه المجموعات الاساسية الثلاث تنقسم بدورها الى مجموعات من الفئات المختلفة :

تتميز فئتان اساسيتان من الاقطاعيين – المشايخ ، الفئة الاولى من ابناء الارستقراطية القديمة المالكه للارض ، انها تتالف من الملاك القدماء الذين ورثوا الارض ومزارع واسعة ، والفئة الثانية الاكثر تاثيرا بينهم هم السادة الذين يدعون انحدارهم من سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء هم حملة التقاليد القديمه الاكليركية رجعية في اليمن ، وهم من الناحية الاقتصادية سلالة متجمدة آفلة ، غير قادرة عضويا على التكيف الظروف المتغيرة في شبه جزيرة العرب الهامده ، التي بدأت تهتز في السنين الاخيره فقط ، مصادر دخلهم الاساسيه هو ريع الارض ، الذي يستلمونه على شكل بضائع مجبية وفقا لنظام المناصفة ، تتراكم في مخازنهم احتياطات الحبوب ، الصوف ، الجلود ، التي تحفظ في صناديق جامدة بدون حركة ، واكداس الفضة والذهب والاحجار الكريمة ، الاقمشة ، السجاد ، الاواني والاسلحة ، انهم يحتقرون التجارة ، ولا يفكرون بالصناعة ، ويعطون البضائع المكدسة للتجار من حين الى

اخر لاعادة بيعها ، بينما هم يقعدون بلا حراك على السجاجيد ، يدخنون النارجيلة ، يمضغون القات يتصفحون الكتب الصفراء او يتنعمون فى مخادع نسائهم الكثيرات اربع زوجات شرعيات ، بالاضافه الى عدد غير محدد من الجوارى ، يمتعون حتى التفكير باى نزعة جديدة كانت ، يفكرون بشكل مقدس ظل ثابتا لم يتغير منذ عهد نوح ، وملكة سبأ ، وسيظل هكذا ثابتا لا يتغير الى ابد الابدين ، مستعدون بشراسة مقاومة كل محاولة لتصنيع البلاد ، واقامة علاقات مع الخارج ، يخيفهم منظر السيارة ، يعدون الوقوف امام عدسة التصوير عيبا ، ويعتبر بالنسبة لهم حتى الامتناع عن القات تدنيسا للمقدسات ، مثلهم العليا هى شبه جزيرة العرب المتحجرة الثابته مثل القصور التى لها الاف السنين والتى يعيشون فيها ، العمل فى الارض نصيب سواد الفلاحين ، التجارة والحرف - يمارسها " اليهود الكلاب " المحتقرون ، اما هم فانهم حملة تقاليد الماضى التليد ، وملزمون بالحفاظ عليه وعلى عفونته فى الصراع ضد الكفرة الاجانب .

- هؤلاء - البلداء ، الذين يرون الكفر وعدم الاستقرار فى كل مكان ، حتى انه لم يسلم الامام وابناؤه من نقدهم اللاذع المتعنت .

بدأت هذه الفئه تقلص ، تتضاءل ، قليلا قليلا ، تصبح جزءا من الماضى تضمحل حتى فى اوساط المشايخ الاقطاعيين ، نسمع اصوات اقطاعيين محدودين جدد ، لا يقبلون الموت احياء فى العفن العظيم ، وانما يسرعون فى السير قدما ، من اجل ان يغالبوا الرياح الجديدة ، يمتلك هؤلاء الاقطاعيون اراضى مزروعة واسعة ، لكنهم لا يمتلكون وراء ظهورهم حملا ثقيلا من النسب الرفيع ، لا يتقززون من التجارة والحرف ، ولا يبالون ابدا بترك الارباح للتجار الهنود واليهود ويتفاخرون بالصمت وملاعبة مسابحهم ، يسعون بانفسهم ، عن طريق العمل الماجور او السخرة ، فى تصفية البن ودبغ الجلود ونقلها الى الميناء ، يسعون لبيع بضائعهم فى الخارج مباشرة او عن طريق متعهدين مؤجرين ، ولا يأنفون من شراء البضائع الاجنبية فى الميناء - الكروسين ، الدقيق ، ونقله الى داخل البلاد من اجل اعادة نقلها ، لقد عرفوا سخف مراكمة الثروات غير المثمرة ، يسرعون الى الاندفاع فى البحر العارم بالمضاربة التجارية التى يجهلونها جهلا بسيطا ، كى لا يتركوا لليهود والاجانب الاثراء على حسابهم المشايخ ، هم هذه الفئة الاقطاعية ، التى تطورت الى فئة من التجار - الصناعيين ، التى تعززت فى فترة الحرب حين سقط دور التجار الاتراك واليونانيين - تزايدت هذه الفئة بفضل انحدارها من الاسر الثرية للملاك الزراعيين ، ظهر مشايخ جدد اتوا من المناطق النائية فى البلاد ، هؤلاء المشايخ من

الملاك الاثرياء ، والسماسرة صاروا يجمعون في ايديهم اراضي وعقارات الاسر الارستقراطية المفلسة مشيعة الامبراطورية العثمانية " التي صفيت كطبقة " ، لقد تزعزعت اركان الاقطاعيه القديمة ، والقسم العنيد من الارستقراطية القديمة فسر القرآن بما يلائم العصر بعد ان اغمض عن عينه تقاليد الاسلاف ومد يده لملاقاة الناشئين الجدد ، وبدأت تتشكل وتتعزز طبقة جديدة من الاقطاعيين ، الذين اتخذوا شكلا تجاريا – صناعيا اكثر قرب الى العصر ، لا يستنكفون المضاربة المالية والتجارة المكشوفه ، يركبون السيارة بكل ارتياح ، وبزهو واضح يعرضون انفسهم بمختلف الاوضاع امام الات التصوير .

يشربون النبيذ الذي يشترونه من اليهود ، دون ان يتركوا القات ، لا يخافون من العلاقة من الخارج ، بل على العكس ، انهم يسعون بعجلة على نزع احتكار الارباح من التجارة الخارجية من ايدي الهنود واليهود ، ولا يمتنعون عن امتلاك متاعا اوروبيا في بيوتهم ، يلبسون الاحذية الاوروبية بل وحتى يلبسون احيانا ارضاءا للموضة ، نظارات لا حاجة لها ، على عيونهم السليمة الصقرية ، يحلمون بجلب المكائن الزراعية وبناء معامل النسيج ، لم يعد " التدين " بالنسبة لهم عقيدة جامدة ثابتة لا تقبل الجدل ، يميلون للسخرية من اخوانهم في الطبقة الاكثر تخلفا ، كما انهم يقرأون الصحف المصرية ، هؤلاء هم القسم الاكثر تقدما من الاقطاعيين ، الذين يعدون كوادر البرجوازية التجارية – الصناعية المستقبلية في اليمن وهذا القسم هو اكثر قاعدة اجتماعية قربا من الحكومة في البلاد .

التجارة ، البرجوازية ، يمكن تمييز فئتين اساسيتين منها شأنها شأن البرجوازية في بلدان الشرق ، الفئة الاولى – هي النموذج التجاري الكمبرادوري ، تجار الجملة ، الذين يرتبطون بالسوق الاجنبية مباشرة وممثلي الشركات الاجنبية في اليمن : لقد كانت التجارة الكبيرة والعلاقات الخارجية قبل الحرب تقع كلها في ايدي العناصر غير العربية : الاتراك ، الهنود ، اليهود ، اليونانيين والفرس ، لم يعد الاتراك الان موجودين ، لكن الهنود في الحديدة واليهود في صنعاء والمناطق الجبلية الاخرى ، ما يزالون يحتلون وضعا مهيمنا في التجارة الخارجية للبلاد ، اما الاماكن التي خلت بعد خروج الاتراك واحتلتها العناصر العربية ، فانها لم تزل قليلة بعد ، هذه الكوادر الكمبرادورية هي القاعدة الاساسية للمجموعات المتأثرة بالانجليز ، وصنيعا المعارضة ضد السلطه المركزية ، والحديدة هي عشهم .

الفئة التجاريه الاخرى هي من التجار الصغار والمتوسطين ، ملاك الجمال وقوافل الحمير ، الذين يتاجرون داخل البلاد ، يوزعون البضائع ويشترون المواد الخام من كل زوايا اليمن في الجبال والسهول .

تتألف هذه الفئة من الملاك في القرى ، واصحاب الحوانيت الصغيرة ، والحرفيين والصناع الصغار ، انهم عماد سياسة الامام ، وهم ما يمكن تسميته بالجناح اليسارى لجماعة السلطة ، هؤلاء هم الفئة الاكثر روح وطنية من قسم البرجوازية - الاقطاعيه في اليمن ، انهم يمقتون الكمبرادوريين ، الذين احتلوا اكثر المواقع الاقتصادية ، ربما يحلمون بانتزاع حصتهم من الفطيرة على حساب الامبرياليين والعملاء الكمبرادوريين ، يستعدون بنشاط لتأييد الصناعات الزراعيه للحكومة ، شق الطريق الجديد ، امتلاك اسطول بحرى ، وذلك لان هذه المشاريع تعد بتوسيع حجم السوق الداخلية ، وتقلص تأثير الكمبرادورية والامبريالية وتطور الصناعة الداخلية ، معطية امكانية تشغيل رؤوس الاموال المتراكمة ، يؤيدون النزوع الى السيطرة على سواحل المحيط الهندى ، الى عدن وموانىء حضر موت ، نمت هذه الفئة وتعززت خلال فترة الحرب وتزحف الى مواقع الكمبرادورية ، مزيحة التجار اليهود والهنود من اعشاشهم .

يبدو ان كل هذه الفئات والشرائح ، لا تشمل الا وسطا اجتماعيا صغيرا نسبيا في اليمن (عشرة - عشرين بالمائة) ، اما ملايين الجماهير من الفلاحين فهي بعيدة عن تلك الاوساط المشتركة بهذا الشكل او ذاك في السلطة ، وهذه الجماهير الفلاحية التي تدب حولنا نحن الرحالة بعيدة عنا والاقتراب منها ليس بتلك السهولة ، او التحدث معها ومعرفة حياتها المعيشية ، ومعرفة احتياجاتها ونفسيتها ، يراقبنا مرافقونا العسكر بيقظة ، ثم كانوا فيما بعد في صنعاء يراقبون كل من يدخل منزلنا ايضا ، كان الفلاحون الذين نتحدث معهم يتهربون عادة من الاحاديث الصريحة ، او يجيبون على كل الاسئلة بحضور العسكرى المرافق بأجابات تقليدية يغلب عليها " لانعرف " " الله يعلم " " الحمد الله " " كما يشاء الله " ، وحين نستفسر عن مساحة الارض وكمية المحصول وما شابه ذلك ، كنا نصطدم بكثرة من مقاييس الوزن والمساحة المجهولة لنا ، نتحير في ترجمتها الى مفاهيم معروفة لنا .

من غير الممكن اطلاقا تحديد نوعية الارض ، حيث تختلف بشكل حاد :

رمال تهامة ، التربة الاكثر خصوبة في سفوح الجبال ، المدرجات الجبلية ، التي تتطلب مع ذلك مجهود ضخم ، التربة الخصبة في السهول الجبلية ، مقدار الماء فيها ، عدد مرات الحصاد في السنة (مرة ، مرتين او ثلاث مرات حسب خصب المنطقة) نوعية المحصول في هذه المنطقة او تلك (البن ، الذرة ، القمح ، البساتين ، الحدائق) - كل هذه المعطيات متفاوتة اطلاقا ، ومن الصعب توحيد كل هذا في مقام واحد .

وما يلفت النظر بحدة ، الفئة العليا من الفلاحين ، الملاك ، القاعدة الاجتماعيه للكوادر

البرجوازية الحديثة ، ملاك الحوانيت الريفية ، اصحاب الحانات ، ملاك المنازل والمقاهي ، ملاك البساتين ومزارع القات ، اصحاب الجمال ، او اعداد كثيرة من البغال والحمير – وسائل المواصلات ، الصرافون الريفيون ، تمتلك هذه العناصر اراضي كثيرة ولديها اجراء يكون من الاطفال وقصار السن في الغالب .

الجماهير المتوسطة الواسعة ، تمتلك كوخا من الطين او من الاحجار المرصوصه على جناح السرعة ، قطعة ارض ، محراث ، بقرة حدباء وحمار ، بضعة دجاجات – هذه هي ملكية الفلاح المتوسط ، الذي يمشي باقدام حافية ، لا تشعر بحر احجار الطرق الساخنة ، تلبس بلوزات وفوط مصبوغة بالنيلة ، عمامة وعكاز (في الجبال) ، اجساد مسودة نصف عارية (في تهامة) ، ارغفة الذرة ، عصيدة الدخن ، قليلا من اللبن – هذا هو الغذاء الرئيسي ، حزمة من اوراق القات الغليظة – هي المتعة الوحيدة ، العمل الدؤوب في الارض ، نقل الحطب الى البيت ، رعي الماشية ... ترعاة الزوجة – واحدة ونادراً زوجتان (وثلاث او اربع زوجات لدى التجار ، وزوجتان او ثلاث لدى الملاك) .

الفقراء ... في ثياب رثة ، يعيشون في اكواخ نصف مهدمة ، لا يملكون لا ثور ولا جمل ، حمار بائس فقط ومحراث يدوي لفلاحة الارض ... للعمل عند الشيخ او الميسورين بالنخاسة ، ياكل حفنة من حبوب الدخن بدلا من الغذاء ، وورقتين مصفرتين من القات في وقت الراحة احيانا ، جسم مجروح اكلته القروح ، اقدام حافية ، وراس مكشوف ، وتبعية وديون لا تنتهي ، اطفال ببطون بارزة بوجه مقرح – هذا هو النصف الاكثر من الريف اليمني .

وكوادر البروليتاريا الريفية : الى جانب الفقراء هناك العبيد الذين جلبوا من افريقيا عن طريق القوة والاستدراج ، اناس وصلوا الى هنا على القوارب من وراء البحر في محاولة للتجارة من غائلة الجوع والاوبئة ، فاصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، يغيرون نوعا من العبودية بنوع اخر ، وهناك صنف اخر من العبيد هم الاسرى من القبائل المعادية ، ويختلف عنهم قليلا انصاف العبيد ، الفلاحون الذين ادقعهم الفقر ، وفقدوا الامل حتى في حقهم بالمحافظة على كوخهم ، يستبدلون السخرية المستمرة بالعبودية الدائمة تقريبا ، يكتفون بما يتفضل الشيخ والمالك من الطعام ، وبامرة يعملون من مطلع الشمس حتى غروبها ، وللمالك حق معاقبتهم الجسدية ، وهو مخير في ان يتخلى عنهم ، او يرسلهم الى شيخ اخر ببساطه ، قتلهم محرم فقط ، يبدو ان هذا هو القيد الشكلي الوحيد للعسف الاقطاعي .

ومن فقراء الريف تتشكل الكوادر في معامل البن ، والورش الحرفية ، العتالون والرعاة ،

والجمالة ، ان كل تهيرات تصف البروليتاريا ستصب مستقبلا في المجرى الوحيد للبروليتاريا الصناعية والزراعية .

والاسمنت ، الذى يمسك وينظم هذه البنيه الاجتماعية ، هو الجيش ، الضباط العرب الجدد ، الجهاز الوظيفي – العسكرى ، هذه هى القوة الحقيقية ، التى تسعى الفئات العليا فى اليمن ، والاقطاعيون بواسطتها تعزيز سلطتها وجبروتها ، وازاحة فئة الوجهاء الاقطاعيين والكمبرادوريين الى الدرجة الثانية عن طريق الحلول الوسطية من جهة ، ولجم استياء الجماهير من الفئات الوسطى والفقيرة من جهة اخرى ولا ينبغى ان ننفى طموحهم لتقليص نفوذ الامبرالية وايجاد دولة مستقلة فى ذلك الجزء البعيد المقطوع والمعزول فى شبه جزيرة العرب ، يبلغ تعداد الجيش ما يقارب خمسة عشر الفا ، ويمكن ان يتضاعف بسهولة حتى يصل الى ثلاثين الف جندي ، لان نظام واساليب الجيش هو حسب النموذج التركى .

ومن اجل ان نختتم هذا العرض المختصر للطبقات الاجتماعية في اليمن ، يجب ان نتحدث عن رجال الديـن .

خلال الرحلة الى صنعاء وفيما بعد ، اثناء تواجدنا فى صنعاء ، لم نلاحظ دورا خاصا لفئة رجال الدين كمجموعة اجتماعية ، لا يتميز ائمة المساجد وعلماء المناطق الصغيره فى الريف اليمنى بشىء كثير عن بقية الفئات الاجتماعيه ، بذلك التميز الذى يعيشون فيه فى الحجاز وبقية البلدان الاسلامية الاخرى ، انهم هنا يندمجون مع جماهير السكان الاخرين ولا يتميزون عنهم ، ينبغى اعادة ذلك ، فى اغلب الظن الى ان الدين والدولة قد نميا معا ، الى درجة ان الدين اصبح محتكراً للخاصة الارستقراطية الاقطاعية العليا ، ابتداءا بالامام – الملك – رجل الدين الاول ، ثم اغلبية المشايخ ورؤساء الجيش ، ان كل هؤلاء لهم نفوذ فى الجانب الدينى فى نفس الوقت ، وان كانوا قد تركوا لرجال الدين المتخصصين الوظائف الدينية البحته فقط ، حيث ان فئة رجال الدين مجسدة فى الطبقة الاقطاعية ، الامر الذى يعطيها صيغة اكليركية تتشبع بها كل اجراءات الدولة ، ولو كانت البخور تستخدم فى مناسك العبادات الاسلامية ، لقلنا بان رائحة البخور ستذوب بذاتها فى العصير الاقطاعى ويفقد وجهه الخاص المنفرد .

لهذا السبب او ذاك ، ومما يلفت النظر ان التدين الخارجى للجماهير الشعبية ، هو هنا اقل بكثير مما هو عليه فى الحجاز ، بل وحتى فى بلدان الشرق الروسى حتى الاعوام الاخيـرة ، لم نلاحظ فى اليمن التضرعات والصلوات الحاشدة عند الفجر وقبل غروب الشـمـس ، ولا الصلوات التى تفوح خلالها الروائح العطرة ، انهم يصلون هنا بعد الوضوء بقليل

من الماء ، وإذا لم يوجد الاخير يكتفون بقبضة من الرمل حتى ولو كانت من ارض غير طاهرة يتيممون بها ، ولم يكن يراعي فروض الصلاة بورع سوى الشاويش من بين المقربين الذين رافقونا ، في حين كان بقية العسكر (واغلب الظن انهم من " المتدينين " بما فيه الكفاية) لا يعبأون بالصلاة ، حيث كانوا يؤثرون الراحة يغنون بكسل قدب شعلة النار .

انني ارتب هنا على عجل وتشوش نتائج انطباعات الطريق (حينها كانت هذه الانطباعات اقل وضوح) ، حين كنا نتارجح على ظهور البغال ، ننتظر بفارغ الصبر رؤية الرسوم المجهولة لصنعاء الفاتنة .

لكن صنعاء لا تزال بعيدة ، ولا نرى حولنا سوى الاراضي الخضراء او سلاسل الجبال الغبراء ، تصبح الطريق متعرجة وغير مستوية ، واكوام الحصاء والحجارة تخل بسير البغال المنتظم ، ها لم نعد نشاهد لا قرى ولا حتى اكواخا منفردة لا من قريب ولا من بعيد ، لقد خلفنا وراءنا بعيدا طريق " الثلاث ساعات " التي وعدنا العسكر بها ، والتي بانتهائها سنكون " ان شاء الله " قد وصلنا الى المدينة المنشودة كما يفترض .

وادي صنعاء الخيمة البيضاء في صنعاء

البغال تسير، والوقت يمضي ، وصنعاء لا ترى ، والطريق لا تدل على ان المدينة قريبة ، لقد اصبحنا نشاهد حمير الركوب ليس الا ، نصادف مرتين مشايخ لابسين ثيابا فاخرة من قمصان حريرية يمتطون جياد عربية اصيلة في طريق العاصمة .

اصبحت الطرق اكثر وعورة ، اختفت الخضرة ، ولا توجد سوى الصخور والمساحات الشاسعة المفروشة بالاحجار ، تصعد البغال بخطو منتظم على المرتفع الخفيف الانحدار ، وعلى اليمين ترتفع ذورة صخرية شاهقة ، نصعد في مضيق جبلي نرى ... سهلا لا متناهيا اخضر ، مغطى بلثام هوائي متموج ، ينبسط بعيدا ، في العمق الاسفل تحت اقدام بغالنا ، انبهرنا من الوهلة الاولى ، لم يكن بمقدورنا تفحص التفاصيل ، ولا نرى سوى بحيرة من الخضرة لا شواطيء لها وفي وسطها نرى المدينة مقضقضة كخيمة بيضاء ، وفي الافق تتناثر الحيود الضخمة الجبال الوحيدة المقطوعة من جهات متفرقه ، وقليلا قليلا تتضح الرؤية ونبدأ تميز التفاصيل ، تبدو امامنا كتلة المدينة الناصعة البياض في وسط رقعة الشطرنج الخضراء للأراض المزدهرة وقد تميزت المدينة بشكل واضح ومقسم : مآذن المساجد ، السقوف

المسطحة ، بضمة سلاسل من المنال العالية ، والمرتفعة في مختلف اطراف المدينة ، يتعرج سور قلعة مسنن بخط متكسر ، وبابراج في زواياه ، كبقع خضراء محاطة بحواش بيضاء داكنة ، تتناثر فيها ضياع المشايخ ، كما تتناثر في الضواحي مثل بقع صغيرة غبراء اكواخ الفلاحين ، بعيدا من المدينة ، على بعد خمسة او ستة فراسخ ، تعشعش مجاميع صخرية من القرى المجاورة من كل الجهات ، من على السهل الاخضر تبرز جبال مسننة منفردة ككتل خرقاء ، وبعيدا في الافق ، الى الجنوب ، والشمال - الشرقي تحصر هذه الجبال السهل ، وتبتعد كشريط ضيق الى هناك - الى شواطيء المحيط الهندي والرمال المجدبة لصحراء الربع الخالي ، ومن جهة الشرق المقابلة لنا يشمخ جبل نقم الضخم ، وكانه فوق المدينة مباشرة ، وعلى قمته تستقر مراكز الحراسة .

ومن منحنى الجبل الاسود ، الذي كنا بجانبه ، تنحدر طريق معبدة الى الاسفل بشكل متعرج تصل حتى سهل بقرب قرية صغيرة غارقة في المزارع - اعتاب صنعاء - تنطلق قدما ، محددة باعمدة التلغراف ، تخترق بوابة قاع اليهود مباشرة وهو الحي الذي يشكل الجزء الغربي من العاصمة .

تسير البغال الثابتة الرصينة ببطء ، وكم تبدو تلك المسافة من الطريق طويلة ، والتي يجب قطعها من اجل الوصول الى صنعاء ! نترجل من على البغال ، نعطيها للمرافق ، ليقودها بدون عجل عبر المتعرجات اللانهائية للمنحنى الجبلي ، في حين نتدحرج راسا على عقب الى السفح عبر ممر ضيق عمودي تقريبا ، تلك المتعرجات التي لا يكون من اليسير السير عليها الا للانسان والحمير .

في كوخ طيني صغير عند السفح يستقبلنا كهل رث الثياب بسلة من التين الطازج ، هذه هي اوائل ثمار " اليمن السعيد " ، التي سالنا عنها باستمرار خلال الطريق دون نتيجة ، وكان الجواب علينا بكلمة " مافيش " التي لا تتغير .

تلهث البغال تحرك آذانها ، تتبعنا بنظراتها الحائرة ، لم ننتظرها ، نقترب من قرية صغيرة ، تتالف من منزلين او ثلاثة ، وعنبر للقوافل، وخزان مياه واسع وحديقة خضراء ، هذا هو المخفر الامامي لصنعاء ، جزء من قرية عصر ، المتخفية جانبا وراء السور الحجري المرتفع ، وهنا ، يقربون لنا كوزا من ماء صنعاء ، تلك المياه التي يحلم بها سكان الحديدة بيأس ، ان افضل هديه هي قارورة صغيرة من الماء ، من ينتقيه ليوصلها الى السواحل البحرية الحادة ، يقدمون لنا ليمونا اصفرا فاتحا ، نقشره ثم نأكله ، انه حلو المذاق كثيرا ، اكثر حلاوه

من البرتقال ، اراد عساكرنا اعداد الطعام لنا ، دون ان يخافوا من غضب الامام ، لانهم ليسوا ضد ان يتغذوا ، وقد استخدموا معنا حتى الخداع ، يؤكدون ان المدينة المنبسطة امامنا ليست صنعاء ، وانما هي اليهود ، اما صنعاء فانها بعيدة وراء الجبال ، لكننا نصير هذه المرة قساة نرفض التوقف ، لاى نوع من الغذاء نقول للعسكر " الامام سيستاء غضبا - تضرب العسكر بنفس سلاحهم بدون رحمة ، - الامام سيستاء اذا علم اننا تباطئنا عند دخول العاصمة ، هيا بسرعة " .

النسور فى القاذورات

استاء العسكر ، وخاب املهم ، لقد كان فى حسبانهم انهم سيتغذون حتى التخمة فى نهاية الامر ، وقبل ان يعودوا الى الحراسة في الحامية ، يتحركون يدمدمون يشتمون ، نلف عبر الطريق الدائرى حول سور المدينة ، ثم نقترب من باب السياج البوابة الرئيسية بصنعاء .

القيظ على اشده ، سحابة من الغبار تلف المدينة ، تنظر النسور الينا بثبات ، اينما استقر سربهم وفى جانب البوابة تنبش في ركام النفايات التي جلبت من المدينة ، وهكذا استقبلنا البجع البيض في مرفأ الحديدة ، وعششت الخفافيش فوق رؤوسنا في باجل ، وهنا تنبش النسور في اكوام القاذورات على بعد عشر أو خمس عشرة خطوة من الطريق .

اليس هذا رمز ؟ ، تفقد النسور هنا عظمة رحلتها الكوكبية المصطنعة ، دون ان ترغب في التحليق فوق السحاب ، تفضل النبش في اكوام نفايات المدينة ، على كل حال لماذا نتسائل ، اذا كان حتى ملوك ارض العرب ، الذين انسلخوا عن عظمتهم الغابرة ، يتحولون تدريجيا الى مهنة اكثر تواضعا ، وان كانت اكثر انتاجية ، الا وهى المشاغل الادارية والاقتصادية ، وصولا حتى الى حل المخاصمات والمقاضاة الصغيرة عند عقد الصفقات التجاريه ! .

لكن يوجد لدينا وقت للفلسفة - تتقدم البغال بخطو ثقيل متعب ، تحت الاعمدة الضخمة للبوابة ، الحارس المناوب ، الذى لم يشعر بقدومنا مسبقا ، يتفحصنا بحيرة ، يستمع الى توضيح مرافقينا بعجلة ، نحن فى الساحة : في احدى الجهات يمتد شارع طويل فيه دكاكين صغيرة للخضروات والبقول واللحوم ، يعج بالقبائل اللابسين معاطف زرقاء وجنبية فـي الوسـط ، يجول الصبية ذهابا وايابا باكشاكهم يصرخون باسماء البضائع والاطعمة ، تشق الحمير والبغال طريقها عبر حشود الناس غير المنتظمين ينتصب امامنا سور نرى خلفه مبنا

حسنا من اربعة طوابق ، انه قصر الامام ، وهناك ايضا تحت اشجار الاثل المترامية مبنى من طابقين ، هي الصيدلية ، نشاهد قبة خزان مياه صغيرة الى اليسار مبنى على شكل حائط ، يقود بابه الى ساحة اخرى ، هنا توجد ادارة صنعاء ، وعلى الساحة الصغيرة يطل برج مراقبة ، على طول الحائط المحيط بالمقر الملكي مباشرة ، تمتد الطريق الواسعة ، يسير فيها عساكر مشاه والخيالة ، تؤدى الطريق الى المدخل الرئيسي لقصر الامام ، ثم تمتد قدما الى الشمال عبر البوابة المواجهة لباب الروضة ، ان هذه الطريق هي جزء من الطريق العظيم الممتد من عدن الى سوريا ، وخلال قرون كثيرة كانت هذه الطريق الشريان الاقتصادى فى شبه جزيرة العرب ، تسمح بالمرور لارتال القوافل وعشرات الالاف من التجار والحجاج القادمين من سواحل المحيط الهندى وحتى اسوار مكة والمدينة وقدما الى سلسلة جبال لبنان ، هذه الطريق التى اقفرت الان وفرغت ، ولا يوجد هنا الا بوابتان فى الطرفين المتقابلين لصنعاء يذكران بعظمتها الغابرة ، التى تبخرت مع دخان الآلات البخاريه ، التى تنقل الحجاج والبضائع الان .

نحن فى صنعاء .

الباب الثانى عشر

* الانطباعات الأولى عن صنعاء
* شقشقة الآبار
* " ابن الإمام "
* القاضى راغب
* الدعاية الإيطالية
* فى انتظار الغارات الإنجليزية
* الاستقبال الرسمى للإمام

الانطباعات الأولى عن صنعاء

بعد ان انتظرنا قليلا من الوقت في الساحة ، بين الحشود المحيطة بنا من التجار ، والعسكر ،الجمالة ومجموعة لا تحصى من الصبية ، تمر عبر بوابة الادارة الى ساحة كبيرة ومن ثم عبر شوارع ضيقة مليئة بالاسوار الطينية نصل الى البيت المخصص لان نعيش فيه ، العسكري النعسان المتمنطق بجنبيه في خصرة بالضرورة ، يفتح البوابة التي تصر ثم باب البيت يقودنا عبر سلم نصف مظلم الى غرفة مفروشة بالقطائف ، عبر الفسيفاء المتعدده الالوان لزجاج النوافذ ، نشاهد بساطا اخضرا من الحشائش في حديقة هادئة فواحة ، وبعد ان خلعت ملابس الطريق التي اسأمتني ارتمي بارتياح على الفراش الموضوع هناك على القطائف مباشرة ، انظر عبر النافذة ، محاولا ان املىء نفسي بالانطباعات الاولى للعاصمة " الخالدة " صنعاء في عراقتها التي لا تبلغها عين المؤرخ هي ايضا مدينة " خالدة " مثلها مثل القاهرة اثينا وروما .

الهواء مشبع بقيظ صيفي ، زجاج النوافذ المتعدد الالوان يتلألأ باشكال مختلفة (مثلثات ، دوائر ، لوالب ، واشكال هندسية مختلفة) ، وبكل الوان قوس قزح ، في الجدران تبدو كتابات جذابة منمقة ، مقاطع من اشعار الشعراء العرب القدماء ، نشاهد عبر ستائر النافذة بعيدا اوراق الصبار العريضة ، اشجار السرو ، والملامح الاسطوانية والمترامية من اشجار المشمش ، ان كل المنطقة التي وراء النافذة هي حديقة خضراء كثيفة ، تقطعها في بعض الاماكن اسوار طينية ، تفصل ملكية مالك عن اخر ، وبعيدا ، وراء الحدائق ، تتناثر مقابر المآذن والمنازل الطينية المتفرقه التي يضيق اعلاها ، المكونه من ثلاثة – اربعة طوابق ، المحاطة بالحدائق ، بسقوف مسطحة ونوافذ رباعية الاركان الشبابيك .

هذا الحي خارج المدينة ، لا يوجد هنا التجار المتجولون في الشوارع ، ولا اصحاب القوافل العابرة ، ولا تسمع هنا اصوات الناس والمواشي ، الا انه لسبب ما فان الهواء تخترقه موجة من الاصوات التي لا تهدأ ، تلك الاصوات تشبه اصوات سرب من الديوك الرومية في فترة الصيف ، كان هذا الرنين الذي لا يهدأ لا يسترعي انتباهنا خاصة في البداية ، لقد تعودنا على الوضع العام الى حد بعيد ، ندرك في ساعات ما بعد الغداء فقط ، حين يهدأ فجأة ثم يعود مرة اخرى عند المساء .

شقشقة الآبار

هذه الترنيمة " زغرودة " سمفونية صنعاء الرئيسية ، اللحن الانتاجي ، الذي تتسم حياة المدينة بطابعه ، لا تستطيع التقاط مصدرة مباشرة ، ابدأ اخمن بأن الطيور ليست هي التي تصدر هذه الزغردة ، اخرج الى السقف المستوى ، اشاهد الجبال بعيدة ، والسور الذي يحيط بالمدينة من كل الجهات ، وعلى السور مدافع صغيرة ، مرتفعة الى اعلى الطائرات المعادية ، نشاهد وراء الحدائق الخضراء في حيننا كتل المباني البيضاء في القسم الاساسي من المدينة العربية ، المزينة قليلاً بمآذن المساجد ، ابحث من اين تأتي هذه الشقيقة التي لا تهدأ ، وبعد محاولات بحث طويلة عديمة الجدوى ارى : جملا مضني يصعد على مرتفع منحدر تدريجياً بين حاجزين طينيين ، يقوده صبي حافي القدمين وعلى رأسة عمامة لا تتغير ، وحين يقترب الجمل من قمة هذا الحاجز الطيني الضخم ، يلتف عائداً ادراجه في نفس الطريق الى اسفل ، يشد الحبل بقوة ، عبر جذع شجرة مهذب يدور على قمة الحاجز ، ثم تبدو قربة من الجلد تصعد من اعماق البئر ، ينكسب منها الماء بصخب الى حوض مبنى هناك ايضا ، ومنها تسيل المياه عبر مزراب الى القناء ، تملأ البراميل ، والاحواض والقنوات التي تروى الحدائق والبساتين ، هذا هو العصب الرئيسي ، الذي يحرك اقتصاد " العربية السعيدة " حتى الان ، هذا هو اساس رخاء " المدينة الخالدة " صنعاء

في هذه المنشآت المتواضعة الخرقاء تكمن مرحلة تاريخية كاملة : ففى تهامة يغرفون الماء بالادلاء من خزانات المياه الطينية الكريهة الرائحة ، او ينشلن النساء الماء بايديهن من الآبار الوحيدة المحفورة في افضل الحالات ، ثم تنقله الجمال بالبراميل للمستخدمين ، اما هنا فيستخدم شيء ما يشبه الماكينة : بكرة صغيرة في حلقة تصر ، هنا نرى امامنا منشآت طينية ، وقوة الشد الحيوانية وشبكة من القنوات ، يشكل هذا الفرق مقسم المياه ، ويحدد نموذج التطور اللاحق في تهامة التي تعيش في مرحلة ما قبل الاقطاعيه ، والمنطقة الجبلية التي توجد فيها مبادىء الزراعة والصناعة .

ابن الامام

يكون اليوم الصيفي قصيرا في المناطق الاستوائية ، يساوي طوله طول الليل تقريبا ، يبدأ الظلام في الغرفة الساعة السابعة ، اول زيارة رسمية : يبلغونا بوصول " ابن الامام " ، ارتبكنا نتيجة لوصول مثل هذا الضيف الكبير ، يزول الارتباك سريعا حين عرفنا ان لقب " ولد الامام " يطلق على كل المقربين من الامام ، ويدخل ضمن ذلك المستشارون والخدم ، وكان الضيف القادم هو واحد من موظفي الامام ، لا يختلف مظهره الخارجي كثيرا عن القبلي الضابط العادي المتواضع الملبس " المختار " من اوساط الشعب البسط ، لحية ضيقة ، عمامة ، جنبية ، نظرة مفتوحة سمحة (اما ما يختفي وراء هذه النظرة ، فهذه قضية اخرى) ، يحيينا باسم الامام ويستفسر عما اذاكنا نحتاج لشيء ما ، هذه هي الطريقة المعتادة بما فيه الكفاية للتحية التي يستحيل الاجابة عليها دون الاعراب عن الارتياح الكامل ، والامتنان لاستقباله واهتمامه ، اعلن لنا بان الامام يعتبرنا ضيوفه ، وان الخدم التابعين لنا هم تحت تصرفنا الكامل ، بضعة عبارات اخرى ، الاستفسار عن الصحة ، تبادل المجاملات ، ثم يخرج ، يسود الظلام ، نلتهم العشاء المعد لنا تحت ضوء فانوس الكروسين بشراهة : بيض مقلي ، خضار ، وقطع من اللحم ، اخرج مرة اخرى الى السقف المستوى ، تسود الهياكل الضخمة التي تحيط بنا ، تبدو كأنها قد مالت على المدينة لتلتصق بها ، انتهى المؤذن من آذان صلاة العشاء في المسجد المجاور ، تشتعل الاضواء في نوافذ البيوت هنا وهناك ، يرتسم الهلال في الجنوب ، القريب من الافق ، تقريبا على جوانب الجبل الاسود بوضوح بارز ، الهواء جاف وبارد ، السكينة الشفافة الحادة تلف المدينة الهامدة ، اهبط الى الاسفل عبد سلم منحني دون أن ادق جبهتي بسقوف الابواب الواطئة ، افتح النوافذ الموجودة بشكل كامل (ان العرب مثل الروس : يخافون الهواء ، لهذا ينامون والنوافذ مغلقة) ، انام كحجر على المرتبة الوثيرة المرمية بين القطائف الفارسية الثمينة .

تخطر لي في الاحلام نماذج تاريخية – ادبية مختلطه غير متتابعة : التجار الاجانب ، سفراء جير بيرشتين واولياريا ، الذين تواجدوا في موسكو في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اليانكي من كونيكتيكوتا في زاوية مارك توين ، الذي وقع في مملكة ارتور في القرون الوسطى ، آلة لولس للزمن ، التي تنقل البشر مئات وآلاف السنين الى الماضي والحاضر .

افيق من النوم ، والشمس ساطعة تغشي الابصار ، والذباب يزحف اسرابا على الوجه بلا رحمة ، الهواء مفعم بشقشقة الأبار وأريج الحدائق المحيطة ، اتذكر انى فى القرن العشرين ، فى البلد الذى يريد بوسائل بدائية ان يلحق (ولا يأمل بالسبق) بالبلدان الرأسماليه فى الشمال البعيد ، يقوم بمحاولات خرقاء غير منسقة كي يخرج من مملكة الحمير الناهقه ، والآبار التي تصر الى عالم الالات الكهربائية ، والراديو ومحركات الطيران الهادرة .

القاضى راغب

يدخل العسكرى بهدوء ، ومعه مذكرة من الامام ، يحيي فيها قدومنا ويبلغنا بانه مسافرا الى منطقة الضواحى وادى ضهر ، وانه أو كل اجراء كل المباحثات حول القضايا التى تهمنا الى القاضى محمد راغب حتى عوته من الوادى ، نحتار بعض الشيء ، لقد حرضونا فى الحديدة ضد القاضى راغب ، ونصحونا بعدم فتح اى حديث معه ، لقد كانت تلك النصيحة لعبة العناصر التابعة للانجليز ، وكان الأخير مصدرها حيث اتضح فيما بعد ذلك ان تلك " الشخصية " اخافت سكان الحديدة الحساسين ، من ابعاد القصف الانجليزى ، والان يتعين علينا اعادة ترتيب خططنا ، افلا يمكن الاخذ بعين الاعتبار مذكرة الامام الخاصة لكننا لا ندرك ان نفكر بكل شيء حتى النهاية حتى نسمع ، تالية على الباب ، يبلغنا العسكرى بمجيىء القاضى راغب .

يدخل شيخ نحيل اشيب بلحية ضيقة على شكل اسفين وعيون حادة خارقة ، عليه رداء ازرق وشريط عريض من الجوخ الاخضر عبر كتفة ، وعمامة بيضاء فوق رأسه وفى قدميه حذاء اوروبى لامع ، ينحنى بلباقة ، يفتح يديه وكأنه قدذاب فى بسمة ترحيب ، ولاننا قد دهشنا ينطق ببضعة جمل فرنسية لبقة بتتابع ، يتضح ان " الداهية القصير " قد ظهر بالمظهر العربى المنمق ، واخفى المظهر التركى الحديث المعاصر لقد امتلك طرق وأساليب الصالونات الراقية فى اوروبا بما فيه الكفاية ، وبشخصة نرى ممثل تلك المجموعة من الاتراك ، الذين وصلوا الى هنا فاتحين واداريين للاحتلال ، ثم اندمجوا وتكيفوا فى هذا البلد الى ذلك الحد الذى جعلهم يبقون فيه حتى بعد سقوط السلطة التركية ، لكى يخدموا النظام الوطنى الجديد ، يخضعون لأولئك الذين اعتادوا فى الماضى على اخضاعهم ، لان تجربتهم الادارية ، وخبرتهم الثقافية ، وتعليمهم ومعرفتهم بالعلاقات الدولية ، كل هذا قد جعلهم يخدمون الطبقات الحاكمة فى البلاد ، التى كانت مضطهدة فى السابق من قبل نظام السلاطين ، الذين لم يبقى لهم الآن سوى الأرث العثمانى .

والقاضي راغب هو ابرز ممثلي هذه الفئة ، عسكري عثماني قديم ، كان في الخدمة الدبلوماسية في سفارات الامبراطورية العثمانية في بيتروبورج ، وباريس وفينًا ، عارف بكل حيل والاعيب نظام عبد الحميد ، وبعد ذلك انتقل الى الخدمة في المستعمرات وشغل منصب محافظ في بلدين عربيين (اليمن والعراق) ادركته الحرب العالمية وهو متحمل منصب عامل احد الاقضية في هذا البلد ، ظل في اليمن حتى انتهت الحرب ، اشترك مع القوات التركية والانصار العرب الذين انضموا اليهم في النضال ضد الانجليز ، وكان سير المعارك ناجحا ، وكانت عدن تحت تهديد الاحتلال التركي اكثر من مرة ، ومن اجل الدفاع عن عدن تحتم على الانجليز سحب كثير من القوات من جبهات اخرى ، وكانت المبادء بيد الاتراك طوال الوقت ، استسلموا فقط بامر من القسطنطينية نتيجة للانهيار العام للحلف الالماني - التركي ، ورحل القاضي راغب الى تركيا ، وهناك لم يدرك في ان يشارك مشاركة نشطة في الحركة الكمالية الوطنية التحريرية اذ لم يكن بمقدورة التكيف مع الوضع الجديد ، وبدلا من المكوث في المناصب الثانوية فضل العودة الى اليمن البعيدة ، كما قال ، لكي يساعد بقدر المستطاع اليمني في بناء دولة مستقلة متقدمة .

على اية حال ، فانه ليس الوحيد هنا ، لقد بقي بضعة عشرات من الضباط والمدرسين الاتراك في اليمن ، يتنقلون في خدمة الامام ، وبمشاركتهم النشطة تشكلت مختلف وحدات اسلحة الجيش اليمني (المشاة ، الخيالة ، المدفعية ، العربات ، اقسام الرشاشات) ، التي حلت محل فرق الانصار غير المنظمة ، تعتمد المدرسه الحربيه على المدرسين الاتراك بشكل مطلق تقريبا ، تلك المدرسة التي تاسست في عهد النظام العثماني ، وهي الان تعد البديل من الشباب العربي ، الذي يغذي صفوف ضباط الجيش اليمني الفتي .

هذه هي البقية من البشر في الارث العثماني ، التي استطاع بناة الدولة اليمنية الجديدة استخدامها واضافة الى هؤلاء بقي اخرون من المتذمرين المستائين والحالمين بالماضي ، الذي لن يعود ، وهؤلاء هم التجار الاتراك ، وملاك المنازل ، والحرفيون ، الذين فقدوا امتيازاتهم السابقة ، الذين فقدوا جزءا من املاكهم ، والتي اخذت مكانهم البرجوازية العربية النامية ، هذه البقية الحية القليلة العدد للامبراطورية العثمانية ، تجتمع تائهة في مقهى صغير في حي سوق صنعاء الواسع ، هناك يدخنون النارجيلة من الصباح حتى المساء ، يشربون اكواب صغيرة من القهوة التركية ، يلعبون النرد ، يتنهدون ناظرين لصورة السلطان محمد المعلقة على الجدران .

لقد استمعت الى الحديث المعسول الذي قاله راغب ، نقل لنا تحيات الامام ، وشرح

ذكرياته عن فترة تواجده في بتروجراد ، انتقى اسماء وزراء القياصرة وشرح حفلات الرقص والاستقبالات في قصر الشتاء ، وبلغه روسية مكسرة يتذكر الكلمات الاولى من اغنية غجرية عفنه ، اعتبر القاضي راغب انه ليس من قبيل الكلام الزائد التعبير عن اعجابه بالبلد الذى اتينا منه ، وكأنه لا يلاحظ ان اعجابه قد كان ببذخ بتربورج الغابر ، لا يلقى صدى عند محدثيه ، استعجلنا في امله ، حدثناه عن روسيا تلك وبيتربورج القديمة لم يعد لها اثر ، ولم يعد البذخ القديم موجود الان ايضا ، كما لا توجد الجماهير الفقيرة ، هناك منشآت العمل ، لينينجراد العمالية ، منشآت التنبير ، بيوت الراحة للعمال والفلاحين في لفيدا وغيرها من قصور ومصايف القياصرة .

قلنا هذا ، لكى توضح له بالكامل بداية علاقتنا ، وبكل تهذيب لازم تجعله يفهم بان الثناء على روسيا القديمة لا حاجة لنا به ، لا نتقبله كثناء يوجه الينا .

ومع ذلك لم يتأتى لنا هذا مباشرة ، لقد تطلب الامر ان نعيد الحديث هذا اكثر من مرة لكى يفهم راغب ، ان امامه اناس من بلد ثاني ، بعيدة الشبه ببتربورج الباهرة خالدة الذكر ، بالقصور ، حفلات الرقص الفجور ، المتهورين ، الكافيار وسمك الباليك الثمين ، وبدلا من التوبان ارتياحا عند ثنائه ، نجيب بلطف بان هذا يجب ان لا يكون الان .

نرى ان راغب كان يتأكد من نتائج سبر الغور ، وكانت مناوراته على ما يبدو ، تكمن في ان يستوضح من نحن ، هل نحن نماذج قديمة من الموظفين ، لا تزال باقية تحت الرقعة الجديدة " بالتقاليد الروسية الاصيلة " وبالتالي اتينا الى الشرق بنوايا امبريالية مثل قناصل القياصرة القدماء ، أم اننا نختلف عنهم بشيء ما .

نعرف فيما بعد ، ان واحدة من الحجج الرئيسية لأعدائنا في اليمن (وليس في اليمن فقط) كانت تستند على ان البلاشفة يأتون الى الشرق بنفس الاهداف المصلحية الاستعمارية ، شأنهم شأن الروس القدماء ، وعن طريق " الاعجاب " (الذى لا يخلو من الصدق) وضع راغب امامه هدف استيضاح نفسيتنا ونوايانا وتقديم التقرير اللازم لمسؤولي البلاد ، وعبرهم الى فئات السكان الاخرى فيها بهذا القدر او ذاك .

كان اسلوبه اخر ، ليس اقل تميز ، رغبته في معرفة درجة صدقنا ، والتأكد من اننا لا نتستر او نقلد الذوق العربي ، يوجه القاضي راغب سؤالا عن علاقتنا بالدين وبالمسيح وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

الاجابة على هذا السؤال تحمل خطرا مضاعفا ، فانت تخاطر ، اما ان تظهر نفسك كملحد – داعية ساذج ، او ان تكون منافق حرباء ، نعطى اجابة متحفظة صحيحة وهى اننا لا نؤمن بالله ، ونرى ان مفهوم " الله " يستخدمه البشر لتوضيح كل ماهو مجهول ، غير ان الدين ضرورى للحكومات للتأثير على جماهير الشعب ، فالدين عندنا فى الاتحاد السوفيتى يتلاشى ، وسينتهى المسيح عن الوجود فى القريب العاجل ، هذا اذا كان موجودا فى الحقيقة ، من المحتمل انه كان شخصية سياسية بارزة ، لكنه كان بالطبع شخصا لا يختلف عن الاخرين ، نحن لا نصدق المعجزات .

الدعاية الايطالية

نعرف فيما بعد ، ان جوابنا اصاب الهدف ، لاننا لم نخفى ما نعتقده ، لقد ضحضنا الشك باننا منافقون ، لقد اقتصرنا على صيغة متماسكة مختصرة ، واكدنا على عدم رغبتنا بالقيام " بدعاية " وبهذا لم نقدم سلاحا بايدينا للمترصدين ، وقد علمنا فيما بعد ان كل كلمة من كلماتنا وكل خطوة من خطواتنا كان الهدف ان تستخدم ضدنا ، لم ينام اعداؤنا : " فالدكتور " الايطالى ، الذى رحل من الحديدة عشية وصولنا ، والذى وصل الى صنعاء خلال ثلاثة ايام بفضل سيارته ، استغل كل هذه الفترة للعمل المحموم ، يحرض الامام نفسه ضدنا ، وكذلك اكثر مستشاريه نفوذا ، وكانت اساليب تحريضه لا تخلو من الفرادة والتميز ، فبعد ان اقتنع بسرعة بسذاجة الحجة القائلة " لا تستقبلوا البلاشفة ، فانهم يقومون بالثورات فى كل مكان ، ويطيحون بالملوك " حين اقتنع بان هذه الحجه لا تخلق الاثر المرغوب ، لجأ هذا الايطالى الى مناورة مراوغة ، يكمن جوهرة هذه الحجج فى ان البلاشفة مخادعون حين يقولون انهم يقيمون فى الشرق سياسة الصداقه مع شعوب الشرق ، وانهم يدعمون طموحها للاستقلال ، انهم فى حقيقة الامر ، يأتون الى الشرق بغرض المكاسب الاقتصادية واستغلال شعوب الشرق ، واضافة الى ذلك ، يستخدمون نجاحاتهم فى الشرق للضغط على انجلترا وتحقيق اتفاقية معها ، وما ان تعترف بهم انجلترا فانهم سيقطعون معكم جميع العلاقات ، وستصبحون بلا شيء ، والبلاشفة فى جميع جوهر الامر يتعاونون مع الانجليز يطمحون الى تحطيم الدولة اليمنيه ومن ثم القيام باستغلال ثرواتها ، لا تثقوا بهم ولا تجروا معهم اية محادثات ، لانكم بذلك ستخسرون صداقة ايطاليا فقط ، وان تكسبوا شيئا بدلا عن ذلك .

هل ياترى اثرت هذه النغمات على العقول السريعة التأثر للفئه اليمنيه الحاكمة ؟ ان مجرى الاحداث اظهر ان هذا الهمس لم يعطى اثرا حاسما .

كثيرة شفافية هذه النوايا التى اجبرت ايطاليا على الصدح او التغريد بهذه الاغنية المنفردة . لقد كان واضحا حتى للاطفال بان الفاشية الايطاليه قد كانت تتضايق بقدر ما اذا كان البلد الذى تعتبر نفسها " وصية عليه " او البلد الذى تعتبره مستعمرتها القادمة ، يقف على طريق سياسية خارجية مستقلة لتتخلص من براثن القط الفاشى التى لا تبدو أنها مخملية ، كما تعرض الايطاليون الشبهة بشكل كبير بسبب النتائج المخجله فى مدة عامين من تصرفاتهم فى اليمن ، وقد سبق ان شاهدنا فى الحديدة اصدقائنا العرب يقولون لنا عن قارب ذى محرك ساكن على الرصيف .

– لقد اتى به الايطاليون ، فما ان اخرجوه من الباخرة حتى تعطل ... هذا هو حال كل البضائع الايطالية ...

وكنا حين نسأل فى الدكاكين ، لماذا هذه البضائع او تلك سيئة ، نلقى جوابا واحدا :

– ماذا نعمل ...ايطالية ...

لقد صارت كلمة "ايطالى " تعنى " ردىء " " ، " لا تجدى فى شىء .

من الواضح ان نتائج الايطاليين لم تثر ثقة خاصة فى هذا الجانب ، ومع ذلك يبقى من الدجل شىء ما ، لقد كان اليمنيون حذرون عند قدومنا ، وكانوا " يفحصوننا " باهتمام وانتظام ينطلقون من الحجج الكاذبة التى اشاعها الدكتور الايطالى الوديع ، وكان لدى اليمنيين شكا من نوع اخر فينا الى جانب حجج الايطالى ، كانت هذه الشكوك تقوم بالاساس على اننا سنقوم بالدعاية الالحادية او ان نمط حياتنا سينهى التقاليد المعيشية والاخلاق المنافقة المتجمدة فى اوساخ رتابة القرون " فى المجتمع العربى " واننا بينقضى ضد انفسنا " الرأى العام " نخالف العشرات من كبار القوم ، من المشايخ ، ذوى اللحى البيضاء ، مثل هذا المجرى للامور لن يكون نافعا للامام ومستشاريه ، وذلك لانهم فى نهاية الأمر بهذا القدر او ذاك مسؤولون عن دعوتنا الى صنعاء ، واذا حصل لنا شىء فانه سيؤدى الى اضعاف بعض نفوذ الامام ، وسيقدم اوراقا رابحة للمعارضة الرجعية الوقحه فى تلك الفترة .

لكن لن نذهب بعيداً ، ولن نقدم محتوى احاديثنا بشكلها العملى الخالص ، لقد صار كل هذا من الماضى ، وكل هذا شىء معاش تجسد فى ورقة صغيرة من النوع السميك مرقشة

بالاحرف العربية المنمقة والممهورة بعدة توقيعات وختم الامام فى النهاية ، وكانت مهمتنا المتواضعة هي اظهارها وتصويرها على ورق سوفييتي عادى ، بمساعدة الحبر الطوبوغرافي البسيط لتلك الصور القليلة العدد المتبقية من تلك الصور الذهنية التي انطبعت بشكل اكثر قوة في الكاميرا العميقة للدماغ ، فالزمن الذى مضى قد اوهى سطوعها الاولى ، والكثير من التفاصيل امتحت بشكل كامل ، وبقت رسوم مجملة واشكال عامه ، ما العمل فهذا هو نصيب الغالبية من اولئك الذين يقمون فى بلد مجهول ، ويحدث ان تكون مغمورا بالاعمال التكنيكيه والسريعه ، في توضيح ظروف تسويق البضائع ، وحل قضايا نوعية مختلف اصناف البن ، فى وسائل توصيل الكيروسين ، فى اسعار السكر والدقيق ، وبغض النظر عن الاشياء الاخرى ، لا تستطيع تركيز كل قواك الفكرية لكي تتأمل الظواهر الخارجية ولا تدرك ان تطبعها فى مجال التقبل التعبيرى - الفني ، ولتكن هذه المقدمه القصيره بمثابة تبرير خفيف لبهوت وعدم كمال هذه الصفحات ... بعد ان اجرى مقابلته المطولة معنا ، يذهب القاضى راغب ، واعدا بان الامام سيستقبلنا بعد بضعة ايام ، حين يعود من مقره الصيفي فى وادى ضهر ، القرية الصغيرة خارج العاصمة ، الواقعة على بعد عشرة - اثنى عشر كيلو مترا منها .

في انتظار الغارات الانجليزية

لماذا خرج الامام من العاصمة ؟ نسأل انفسنا بلا ارادة ، الاحداث تتوالى ، والانجليز (وهذا لم يخفيه علينا القاضى راغب) اعلنوا قبل برهة بسيطة للامام مطالبتهم باخلاء منطقة الضالع وقعطبة ، وما يسمى بالمناطق المتنازع عليها ، التي استولى عليها اليمنيون قبل زمن قصير ، وقد قذفوا بضعة عشرات من القنابل من الطائرات على هذه المدن غير المحمية فى بداية ١٩٢٨ ، بهدف الضغط المعنوى " المعنوى " الشديد لكن اليمنيين لم يخرجوا ، وانما اكتفوا بتصح المبعوث الانجليزى جيكوب بسرعة الرحيل من صنعاء مطرودا ، فبدأ الاسد الانجليزى يغضب بشدة ، فارسل لليمنيين مطلبا رهيبا باخلاء المنطقة المتنازع عليها كشرط مسبق للمباحثات اللاحقة ، انتهت مدة الانذار النهائي - صار الجو مشحونا وفي هذا الوقت يسافر الى " المصيف ".

نعرف سبب سفره فيما بعد ، لقد كانت المنطقة الصغيرة وادى ضهر تستخدم كنقطة يلتقي فيها رؤساء القبائل والمشايخ الاكثر نفوذا من كل اطراف البلاد ، توالت الاجتماعات فى

قصر الامام أياما بلياليها ، حول اتخاذ وجهة مسيرة ركب الدولة اليمنية ، الذى لم يكتمل بناؤها بعد ، امام العاصفة الامبريالية القادمة ، امام شعاب النزاع الداخلى الذى اصبح وشيكا ، لم تكن نعرف كل تفاصيل ما يحدث فى ذلك الوقت ، وان كانت الاحداث تبدو كذلك ظاهريا .

اخرج الى السقف المستوى لبيتنا ، وبعد ان استند بمرفقى على الحاجز الطينى المرتفع ، اتطلع بنهم الى المحيط القريب والبعيد ، محاولا استشعاره ، والتشبع باشعة الشمس المنصهرة وسخونة جو الاحداث الوشيكة الوقوع ، وبينهم انقل طرف وزجاج المنظار من الجبال والقمم البعيدة الى السور المسنن للقلعة ، الى منارات المساجد وحواجز البيوت فى الضواحى .

لا شىء ! سكينة وفراغ ، سوساسل الجبال المحروقة الغبراء هامدة جرداء ، الحرس الحارس المناوب الذى يخطو على حائط القلعة بالكاد ، مدافع ميدان وحيدة ، رافعة مواسيرها بخراقة ناظرة الى السماء وكانها تترقب العدو المنتظر .

البيوت خالية ، والسقوف خالية ممطورة بالغبار .

مصارع شبابيك النوافذ مسدودة باحكام ، ولا توجد سوى هياكل الخدم تتجول فى الحدائق الخضراء يشتغلون بسقى الاشجار واحواض الزرع ، اما الملاك فلا وجود لهم ، وكان اشعة الشمس الحارقة قد طردتهم بلا حول فى الزوايا العميقة للقصور المتعددة الطوابق .

يقبل المساء ، برودة الجبال الليلية تغرى كل حى للخروج الى الهواء ، لكن الشرفات والسقوف خالية كما كانت فى النهار ، وكذلك مصارع النوافذ واجمة ، والاضواء لا تشع وراء الستائر المسدلة عليها كالسابق ومن بعيد فقط ، يصل صخب قطعان الماشية العائدة والموسيقى الغير منتظمة للفرقة الموسيقية العسكرية فى القسم التجارى من المدينة .

نعرف ان كل السكان الميسورين قد تركوا المدينة ، وانه قد بعث كل التجار والموظفين والمشايخ باهلهم الى اعماق البلاد بعيدا ، الى القرى الجبلية غير الملحوظة ، كما هربوا الى هناك هم ايضا ، ويمرون على المدينة نادرا وللاغراض العاجلة ايضا ، وكانت عشرات البغال تعبر بوابة المدينة كل يوم تحمل ممتلكات الفئات الميسورة ، حتى فرغت بيوت الاثرياء وهمدت ، ولم يبقى سوى الخدم يحرسون حدائق ومخازن الملاك الهاربين من حمى الحماس الوطنى ، وكان البيت الذى نعيش فيه ، واحداً من البيوت القليلة التى يظهر البشر فى سقوفها وفى شرفاتها نهارا ، وتتغامز الاضواء ليلاً .

فر الوجهاء والميسورون ، فروا قبل ان يروا الطيران المعادى بعد ، فروا فى ذعر حيوانى

امام احتمال اقتراب الهجوم ، ولم يبقى في المدينة سوى الشخصيات المسؤولة ، القوات العسكرية ، وبالطبع الالاف من ابناء الشعب البسيط ، بقى الحرفيون ، اصحاب الحوانيت الصغيرة والمزارعون ، الذين لم يهربوا الى اى مكان لانه لا شيء لديهم يفقدوه ولا يوجد مكان يفرون اليه .

– لو كان اليمنيين جبناء مثل سكان صنعاء ، لاستسلمنا بدون قيد او شرط امام الانجليز بعد اول غارة طيران – بصراحة تحدثت شخصيات حكومية يمنية ، تجيب على حيرتنا بالنسبة لمثل هذا الذعر الواضح ، الذى اتخذ طابع غير مشرف – ولحسن الحظ فان الشعب ليسوا هم سكان صنعاء .

– بالاصح ليسوا وجهاء صنعاء – واضفنا ، وقد خرجنا عن نطاق المجاملات الدبلوماسية .

كان هذا اكيدا ، فالشعب الفلاح والعامل الحقيقى اليمنى لم يهتز حتى عندما بدأت الغارات وسقط عشرات البشر قتلى في المناطق والقرى ، تمزقهم شظايا قنابل الطائرات .

الاستقبال الرسمى للامام

بعد بضعة ايام تتم اول مقابلة رسمية مع الامام برفقة القاضى راغب .

قصر الامام (هو مسكنه الشخصى ومقر عمله) يقع فى مسكن الوالى التركى السابق ، لا يوجد فيه اية خصوصية يمنية ، كل مقر العمل يقع بين اربعة جدران طينية ضخمة بابراج مراقبة فى الزوايا ، المدخل يمر عبر بوابات مزخرفة بنقوش منمقة ، تقدم التحية لنا فصيلة من العسكر وقفت صفا واحدا ، وبعد ان صعدنا على السلم الخارجى نمر عبر ممشى طويل الى غرفة واسعة مفروشة بالسجاد ذات اسلوب نصف اوروبى بمقاعد وكراسى ، نجلس ، يجرى حديث مع القاضى راغب ، وبعد بضعة دقائق يدخل الامام ، ننهض ونتبادل التحية على الطريقة الاوروبية ، ثم نجلس بعد ذلك جميعا .

كان اسلوب الاستقبال هذا مدروس بشكل جيد ، تكمن القضية في انه ليس من الملائم ان ينهض الامام امام " غير المؤمنين " وقررت في نفسي انه لا يرغب مستقبلا ضيوفة وهو قاعد كما يفعل الملوك الاسيويون ، ولهذا اضيفت قواعد الرسميات ، التى لا تمس بكرامة اى من الطرفين .

لابسا قميصا وعباءة ومتمنطقا بسيفة ، ومسبحة في يده يذكرنا بعهد الانجيل ، حيث الملك والكاهن الاول شخصية واحدة ، وبحركات عصبية حادة يجلس على مقعد من المساند ، ومسبحا بمسبحته يمطرنا بالاسئلة .

هو في ذلك السن الذي لا يمكن القول بانه عجوز بالكامل ، فهو متحرك ، منفعل ، مهتم ونشيط في الحديث ، يستفسرنا خلال ثلاثين او اربعين دقيقة دون توقف حول كل شيء ، عن صحتنا وكيف وصلنا وحول كل المشاكل الدوليه ، ماذا يحدث في المانيا ؟ هل تقوت بعد الحرب ؟ ما هو وضع الحكومة الحاليه في انجلترا ؟ ما هي طبيعة العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وتركيا وفارس وافغانستان ودول الشرق والغرب ؟ هل ستستطيع الهند ومصر نيل الاستقلال ؟ ماهي طبيعة الوضع في الصين ؟ من سينتصر الشماليون ام الجنوبيون ؟ .

يوجه الاسئلة واحدا بعد اخر ، والقاضي راغب واقف في ، وضع احترام ، منحني قليلا ليس دون صعوبة ، يكابد مهمته ليس ببساطه كترکي ، يترجم كلمات الامام الى اللغه الفرنسيه ، واجابتنا الى اللغه العربية ، وهذه المهمه شاقة لان الامام يوجه الاسئلة لا من اجل ان يكتفي باجابات عامه دون محتوى ، بل انه يعيد الاستفسار اكثر من مره ويدقق افكاره ، ينصت لأجابتنا باهتمام فائق ، ممعنا التفكير فيها بسرعة وفي نفس اللحظة ، ينقل ما تولده هذه الاجابات من تاثير الى هزات عصبيه سريعه للمسبحه ، ومن حين الى آخر يضحك بحدة وعصبيه ، وكانه يطمح عن طريق الضحك اكمال ما لم يرد قوله بالكلمات ، وفي هذه اللحظات تهتز قامته المكتنزه قليلا ، تنتقل عيناه بالتناوب من احد محدثيه الى اخر .

انظر الى الوجه الحيوى للامام ، رغم انتفاخه قليلا ، بلحيه متموجه وخدود منتفخه ، اتعجب من ان هذا الانسان الذى قضى كل حياته في جبال وصحاري اليمن ، والذى لم يكن ولو مرة واحده ليس خارج اليمن فقط ، بل وحتى في تهامه هذا الانسان الذى لم يرى البحر والجليد في حياته ، ولا البواخر والسكك الحديدية ، ويتضح مدى فهمه لأعقد مشكلات السياسه الدوليه الى هذا الحد او ذاك ، وابداء من وقت لآخر الشعور وكانني طالب معهد يُقدم امتحانا في مبادىء السياسه ، اتذكر حياته ، اعوام التشرد الطويله في صحاري وفجاج اليمن ، الحياه العسكريه القاسيه لزعيم ومنظم حركة المقاومه المعاديه للاتراك ، التى ادت الى نجاح نسبي في العامين او الثلاثه اعوام قبل الحرب العالميه فقط ، حين اعترف الاتراك بصلاحيات الامام الدينيه في اليمن واعطوه امكانية القعود وتثبيت نفسه في صنعاء ، وفي عام ١٩١٢ قام في اليمن شكل خاص انتقالي في ثنائية السلطة بشخص الامام والمشايخ وفرق الانصار من

القبائل من جهة ، والوالي التركي الجندرمه والقوات التركيه من جهة اخرى ، كانت هذه فترة انتقاليه فريدة ، وكان كلا الطرفين يستعد لمواصلة الصراع ، فالاتراك يشقون الطرق المعبدة ويبنون القلاع ، والامام يقوم بعمل تحريضي في اوساط القبائل ، يوحدها حوله ، وشيئا فشيئا يكون الجيش ، لقد غيرت الحرب العالميه مجرى الاحداث ، لقد وضعت الطرفين امام عدو واحدا هو انجلترا ، التي احتلت منذ عام ١٨٢٩ عدن اليمنيه ، واصبحت العدو اللدود لليمن ، وفي مجرى الصراع ضد الانجليز اقترب اليمنيون من الاتراك الى الحد الذي كانت فيه اليمن اكثر الدول العربيه مرونه مع تركيا ، وبعد ان طرح صلح لوزان العلم التركي في الارشيف فقط .

وبعد انتهاء الحرب بقي اليمنيون لوحدهم عمليا ، وبعد صلح لوزان الشكلي بقوا لوحدهم وجها لوجه ضد انجلترا ايضا ، وكان يتحتم عليهم خوض نضال طويل وعنيد ضدها ، في هذا الصراع جرب العدو كل الاساليب لضعضعة الدولة اليمنيه الفتيه ، بدأ من الاحتلال العسكري للحديدة – في الاعوام الاولى من صلح فرسال – ومرورا بتنظيم الانتفاضات الداخليه ، وتحريض الدول المجاوره (الحجاز وعسير) ضدها ، والحصار الاقتصادي ، والرشوه ، والتجس ، والقصف بالطائرات في صيف عام ١٩٢٨م مباشرة ، لقد تطلب هذا الصراع من الامام واعوانه ليس الشجاعة الشخصيه فقط بل والمهارات القتاليه والتنظيمية ، لقد كان الامام على رأس جماعات الانصار المنتفضين لضرب الفرق التركيه عديمة التنظيم والواقعة تحت قيادة باشوات السلطان الغبية والجاهلة ، ولكن مسألة النضال ضد انجلترا التي تجيد القتال بالهراوات وبالدينار ، بالطيران وبالتحريض ، فان المهاره لا تكفي ، وها هم الناس الذين لم يروا البحر قط ، والذين استشفوا كل ثقافتهم تقريبا من القرآن والسنة ، بدأوا على عجل يسلحون انفسسهم وباستخدام المخلفات البشريه والمادية للارث التركي ، واكملوا تشكيل الجيش النظامي ، الذي بدأوه في زمن الحرب ، وشرعوا في بناء الصناعة ، وشق الطرقات وامتلاك الطائرات .

اصبحت الصحف الاجنبيه ، وعلى راسها الصحف المصرية الوسيلة الاساسيه لدراسة السياسة العالمية ، وظهر الوعي بضرورة جلب التقنيه الاوروبيه ، واقامة العلاقات التجارية مع دول الغرب ، بل وحتى ادراك ضرورة اقامة العلاقات الشكليه مع البلدان الاخرى ، وهكذا كان الاتراك والايطاليون والالمان قد وصلوا لبناء البلاد بهذا القدر او ذاك ، واصبح الاجانب يتوافدون الى العاصمة ، وكانت الاحاديث التي تجرى معهم بمثابة مصدر لدراسة القضايا

الدولية الغامضة غاية الغموض ، وها هى النتيجة خليفة " النبى " ، ورأس اقدم سلالة ملكية فى العالم ، يعتبر فى تصور اتباعه انه يمثل الزعيم الروحى لعامة المسلمين قد وصل الى ادراك فائدة وضرورة عقد الاتفاقيات مع ممثلى اول بلد اشتراكى فى العالم الواقع فى طرف نصف الكرة الارضية الآخر .

تنتهى المقابلة الرسمية بعد حديث استمر ساعة ونصف ، يعطى الامام للقاضى راغب صلاحية حل جميع القضايا العملية معنا ، ينهض خارجا بعد ان عبّر عن امله بنجاح كل المحادثات ، اما نحن فنسير الى البيت بوقار .

الباب الثالث عشر

* جهاز الدولة اليمنى
* القضاة ، الديوان ، المشايخ
* الاجهزة الادارية والارشادية
* الامام
* الوزير الاول
* سيوف الاسلام
* الزرانيق المتمردة
* محتقيو اليمن

جهاز الدولة اليمنى

نعيش فى صنعاء اسبوعا اخر ، نتضايق ، فالحياة تمتد على وتيرة رتيبة واحدة ، المدينة فارغة ، والمدارس مغلقة ، لم يعد الزوار الصاخبون من ابناء الفئات الدنيا يتزاحمون امام بوابات الاستقبال والمداخل الامامية لبيوت الوجهاء .

السوق هادىء ، المساجد فارغة ايام الجمع ، لا وجود للاستعراضات العسكرية الباذخة على طريقة اسطنبول السلطانية ...

لكن فى المساء ، وفى ظلمة ما قبل الفجر الحالكة تدوى اشارات النداء من الابواق العسكرية ، وتلمع المصابيح مضيئه بالكاد اشباح مجاميع القوات المتحركة ، وعندما تضىء اشعة الضوء الاولى فوق افق المدينة ، نشاهد الفرق التى تسير تتمرن على المعارك الليلية مع العدو المنتظر تحت اسوار المدينة ، وعلى بعد ١٠ - ١٢ كيلو متر من العاصمة فى وادى ضهر تجرى مباحثات الامام المستمرة مع زعماء القبائل الذين وصلوا من مختلف انحاء البلاد على رأس قوات مجهزة على جناح السرعة ، السؤال يدور حول بقاء او فناء الوطن ، حول الحرب مع الانجليز او عدم الحرب ، لا تسير القضايا التجارية بالسرعة التى نرغب بها نحن الواصلون بوتائر الخطة الخمسية ، بدانا نفهم ان جهاز الدولة اليمنى ليس بتلك البساطة ، التى يبدو بها فى بداية الامر ، يبدو ذلك واضحا شكليا ، فرأس الدولة هو الامام ، ومع بضعة نواب (عادة خمسة) ، يحمل كل واحد منهم لقب " القاضى " (وراغب واحد من هؤلاء الخمسة) وكل واحد من هؤلاء النواب يرأس قسما خاصا فى جهاز الدولة ، وتحت امرة كل واحد منهم بضعة " مكاتب " تشبه الوزارات تقريبا ، والبلاد مقسمة الى عدة مناطق ، وعلى رأس كل قضاء " عامل " . والتقسيم الادارى بعيد عن التنظيم ، فالمناطق مختلفة من حيث اهميتها ، تكتسب احيانا اهمية مقاطعة مثل تهامة التى يوجد على رأسها الامير محم ابن الامام ، وعلى رأس المنطقة الشمالية الامير احمد الابن الاكبر للامام ، كما توجد مقاطعات صغيرة منسية يرأسها صنائع عديمة النفوذ ، كما ان مجالات تأثير " القضاة " مختلفة ، فالقاضى راغب يشرف بشكل مطلق تقريبا على السياسة الخارجية والصحافة ، ونائب اخر او مايسمى بـ " الوزير (الكبير) " ، القاضى عبداله يشرف تقريبا على القضايا العسكرية ، والصناعة والمالية ، يعتبرونه رئيس وزرائه الفريد ، فى هذا الجهاز من القاضى حتى الموظف الصغير يسمون انفسهم بتواضع " خدم " الامام ، الذين يتعامل معهم الاخير حتى فى المراسلات

الوظيفية بصيغة المفرد ، لقد حذرونا من القاضي عبدالله حين كنا في الحديدة ، انه واحد من اكثر مستشاري الامام نفوذا ، وحين قابلناه في صنعاء اندهشنا من الحس السياسي الفائق لهذا الانسان ، وفهمه للمهام السياسية للدولة اليمنية وتداخل كل هذا مع التدين البدائي والسذاجة الطفولية المباشرة ، لقد انعكس فيه طرفا نقيض بين الاقطاعية الهرمة والافكار الوطنية المتقدمة التي تمتلكها بلاد ملكة سبأ .

واذا كان القاضي راغب ، ممثلا نموذجيا للعناصر القادمة المسلحة من غير العرب ، المستعدة مساعدة اليمن قدر طاقتها في تحقيق المهام الوطنية ، وان كان في حقيقته ارفع من الناحية الثقافية من المستوى المتوسط في هذا البلد ، لهذا فانه معزول نوعا ما عن الجماعات الحاكمه ، ولا يملك فيها جذور قوية بما فيه الكفاية ، فانه يتمثل في شخص القاضي عبدالله القسم التقدمي نسبيا من الفئة العيا اليمنية الاصل والقاضي عبدالله يمني حتى نخاع العظم ، وهو الاخر لم يرى باخرة اطلاقا ، ولم يشاهد البحر والجليد ، اكتسب تجربة ما من الاتراك ، الذين كان في خدمتهم اثناء فترة احتلالهم اليمن .

شاب (عمره يقارب ٣٥ سنة) يذكر مظهره بباريس جود ونوف ، بلحية عريضة كثيفة ، اجعد النودين ، بعيون ذكية معبرة ، يجسد القوة المنظمة في اليمن ، مشغول من الصباح حتى المساء ، يتفقد نشاط الاجهزة الحكومية ، ومراقبة صحة عمل الادارة العسكرية وغيرها من المنشآت الصناعية وتمويل الجيش وتدريبه ، هو مثل الامام والقاضي راغب يعمل من الساعة السابعة - الثامنة صباحا حتى منتصف النهار ثم يخلد بعد ذلك الى ساعات القات ، ويتجدد عمله في المساء ويستمر احيانا حتى ساعة متأخرة من الليل .

ورغم ان ثقافته قليلة ، فانه واثق بجدية من ان مؤسس صنعاء هو سام ابن نوح . والقاضي عبدالله داعية متحمس لافكار التصنيع في نفس الوقت ، يحلم بانشاء صناعة النسيج على قاعدة القطن اليمني الفائق الجودة ، وعلى الاحتياطي الضخم ، كما يؤكد على وجود الفحم الذي لم يستغل بعد .

لا داعي لضرورة امتلاك فطنة خاصة لملاحظة ان القاضي عبدالله ، شأنه شأن القاضي راغب ، فضلا عن نخبة الوجهاء الاقل بروزا في العمل ، هم في جوهر الامر يمثلون السلطة التنفيذية فقط ، يعدون وينفذون ارشادات وتوجهات الامام ، يعتبرون " مستشارين " شكليا الى حد كبير وفي الجانب العملي فقط ، يخاطرون بالتدخل في التوجيهات المبدأية بقدر كبير من الحذر والتحفظ ، لا يوجد وراء ظهورهم لا انساب وجيهة ولا ملكيات واسعة ولا خبرة سياسية

طويلة ، ولا نفوذ ديني ولا علاقات واسعة ، انهم اخصائيون سياسيون في جهاز الدولة ، انهم محرومون من قاعدة اقتصادية ، وتعتمد كل قوتهم وتاثيرهم علي مواهبهم التنظيمية والسياسية بشكل مطلق وعلى المقدرة النزوية في العمل ، وهذا كما هو معلوم بعيد عن الكفاية لامتلاك صوت حقيقي حاسم في القضايا المبدئية ، ولا ياخذ الامام في مثل تلك القضايا انتباها لمثل هؤلاء المستشارين ليس شكليا فقط ، بل ولا حتى عمليا ، ومن المشكوك في انهم يدعون ذلك .

يستطيع الامام القول عن نفسه اكثر من اي ملك اوروبي " الدولة هي انا " وذلك لانه في يدة ، الجيش ، جهاز الدولة ، الخزنة ، وثروة شخصية لا تحصى بشكل احتياطي من الذهب والكنوز الموروثه عن الاسلاف ، يمتلك نفوذا دينيا لا حد له ، ويمتلك افضل الاراضي في البلاد ، وافضل البيوت والحدائق في العاصمة وما حولها ، وفي صوامعة ومخازنه تتكسب افضل محاصيل البن ، لقد آلت اليه كل ملكيات الاتراك المطرودين ، وفي يده كل اسس الصناعة المستخدمة في صنعاء مثل ، محطة الكهرباء ، المطبعة ، مصنع السلاح (اشتراه من الايطاليين) ، والة تصفية القطن وطاحونة تدار بمحرك يعمل بالبنزين – اهتماماته الشخصيه لا تنفصل عن الدولة تقريبا ، والى ذلك كالحد تشتد عرى ارتباط مفهوم ملكية الخزينة بملكية الامام الشخصية ، لهذا السبب يهتم الامام بكل شيء من تغير الوزارة في بريطانيا الى تغير البغال للمسافرين من الحديدة ، وهو يحكم ويدير بكل معنى الكلمة ؛ كل اليمنيين " خدمه " و " عبيده " ابتداء بالعبيد الحقيقيين وحتى الوزراء او بالاصح النواب .

يبدو للوهلة الاولي ملك مطلق بلا حدود ، لكنه كما ذكرت سابقا لم يكن بمقدوره الامتناع عن مضغ القات ، كما كان مضطرا الى منع ابنائه من الذهاب الى محطة الاذاعة لسماع الحفلات الموسيقية الاوروبية لان اتصال ابناء الزعيم الروحي بموسيقى غير المؤمنين ، يعتبر امرا غير مسموح به من قبل " الرأى العام " المتمثل بمجموعة من المشايخ المتنفذين وفئة السادة المذكورين ، والاكثر من ذلك ان تلك الاغاني تذاع باصوات نسائية في الغالب .

ان هؤلاء المشايخ ، الذين ينقسمون الى عدة فئات ، تربطهم خيوط كثيرة من علاقات الدم والملكية والدين مع كل فئة الوجهاء من التجار – الاقطاعيين في اليمن ، يتابعون بيقظة كي ينفذ الامام ، الملك المطلق ، ارادتهم ، ويحمي مصالحهم ، هذه المصالح التي تعتبر مطابقة لمصالح الوطن والدين ، ان اقل مبادرة اصلاحية يتجرأ الامام عليها يستقبلونها بمقاومة ضارية ، وبصعوبة بالغة يتمكن الامام ومجموعة من الوجهاء بطريقتهم الخاصة اجراء هذه – او تلك من التجديدات ، تلك البدايات مثل استخدام السيارة والدراجة البخارية ، السماح بوصول الاطباء

الاجانب (كان اوائلهم من الايطاليين) ، وبعث الطلبة الى الخارج (الى ايطاليا لدراسة الطيران) ، قد قوبلت بمقاومة عنيدة من قبل هؤلاء ، وتحققت بعد مناورات صعبة طويلة . اما ما يتعلق بتلك الافعال مثل عقد الاتفاقيات مع الدول الاجنبية (ايطاليا - الاتحاد السوفيتي فيما بعد) او قضايا الحرب والسلم ، فانه يجب ان يسبق ذلك قيام عدة اجتماعات ، مؤتمرات ، محادثات الامام وراء الكواليس مع المشايخ ... الخ .

وعلى العموم فان مجموعة صغيرة من زعماء مذهب الزيدية (مذهب اسلامي ايراني المنشأ يشغل مكان وسط بين السنة والشيعة) تعتبر وكأنها لجنة مركزية من نوع خاص لهذا المذهب ، الذي يمكن ان نسميه الحزب الحاكم في اليمن بمعنى خاص ، وفي هذا الوضع يعتبر الامام ليس اكثر من ممثل لهذا " الحزب " ، يجب أن يكون الامام منتخبا من الناحية الشكلية عن طريق مراسيم طويلة معقدة ، ومن الناحية العملية ينتخب الابن الاكبر للامام المتوفي عادة ، ومن الناحية الشكلية يجب ان توجد في الامام المنتخب اكثر من عشرة شروط " معنويه "(الشجاعة والرجولة والعدالة ... الخ) وقد صيغت في قانون خاص في المذهب الزيدي ، وينتج عن ذلك مبدأ خليط من المبدأ الوراثي والمبدأ الانتخابي ، الجمع بين السلطة المطلقة والمبادىء الدستورية الشيخية في نفس الوقت .

القضاة ، الديوان ، المشايخ

والمشايخ (الكبار والمتوسطون في اليمن يبلغ عددهم ما يقارب الفين شيخ) يعتبرون اكثر الفئات الاجتماعية نفوذا ، وكما اشرنا سابقا ، فانهم ينقسمون الى فئتين ، فئة ارستقراطية اكليركية بليدة ، وفئة اخرى من الاقطاعيين الأقل رجعية تنمو قليلا قليلا الى طبقة تجارية - صناعية ، يعتبر خط الامام محصلة لهاتين القوتين ، ويحدد تآلفها النهج السياسي الرئيسي ، تقع تحت تأثير المشايخ مجالس خاصة (كان عددها ثلاثة) ، دائمة الانعقاد لدى الامام ، يتكون كل واحد منها من اثنى عشر الى خمسة وعشرين شخصا من اكثر المشايخ نفوذا ، واكثر هذه المجالس عددا ونفوذا هو مجلس القضاء الديني ، الذي يقف على رأسه اعلى شخصية دينية - شيخ الاسلام ، وهذه المجالس تلعب دورا حاسما في القضايا الرئيسية ، ومع ذلك تعتبر هيئات غير رسمية ، ولا يتدخل المشاركون فيها ظاهريا في القضايا ، وليس بمقدور الاجانب مثلا مقابلة اعضاء مجلس العلاقات الخارجية اطلاقا ، وانما يجب بحث جميع القضايا مع المستشار " الرسمي " كما هو في هذه الحالة القاضي راغب .

الاجهزة الادارية والارشادية

وفي كل الاحوال فان شهر او شهرين من التواجد في صنعاء غير كافي لمعرفة الوضع بوضوح بكل دقائق ماكنة الدولة ، التي هي ليست بتلك البساطة ، وبكل حيل الجهاز الحكومي و " الاجتماعي " ، التي بواسطته تتجاوز الطبقة الحاكمة مؤامرات العدو الخارجي الجبار ، ومقاومة العناصر المعارضة في داخل البلاد ، وان تحل المهام الصعبة والمعقدة لاعادة بناء البلاد ، متجاوزة التناقضات الطبقية والقبلية والدينية .

الامام

ولا يزال من الصعب اعطاء وصف شخصي للامام ، ومن الصعب فهم اي من الافعال تمليها مصالح الامام الذاتية ، وتنفذ بمبادرته الخاصة ، واي منها تنفذ تحت الظروف الموضوعية ، واحيانا كثيرة تحت ضغط شيوخ " الاسلام " . يمكن باختصار فقط رفض التصور الذي ينشره عنه الصحفيون الاجانب كواحد من اكثر الملوك رجعية وبخلاً واستبداداً ، ومقارنته بالملوك العرب الاخرين ، تتكون هذه التصورات نتيجة للنضال العنيد ، رغم انها ليست واضحة دائما ، هذا النضال الذي يخوضه الامام ضد محاولات التغلغل الامبريالي في اليمن ، ونتيجة للريبة الطبيعية التي يكنها للاجانب وبضائعهم ، بعد ان اقتنع من خلال تجربته مع الايطاليين ، فانهم مستعدون لخداعه في كل خطوة وتوزيع كل بضاعة رديئة بمبالغ ضخمة ، وهكذا حلقت طائرة واحدة لبعض الوقت ، من اربع طائرات ارسلها الايطاليون ، اما بقية الطائرات فلم يكن بالمقدور حتى تشغيلها فقط ، كما ارسل الايطاليون بنادق من عهد الحرب الايطالية – الحبشية ، مقابل سعر باهظ ، وباعوا عليه سيارات قديمة غير صالحة ... الخ ، الى درجة اصبحت كلمة " بضاعة ايطالية " تعني في اليمن كل ماهو رديء ، وصارت كلمة " ايطالي " ترادف كلمة " الماني " عندنا في الماضي لكل " اجنبي " وبالقدر الذي برز فيه شعور حذر من عدم الثقه بكل ما هو مستورد من الخارج ، فقد وجد تفسيره بـ " البخل " المزعوم للامام (الذي دفع مبالغ ضخمة على استيراد بضائع غير صالحة) ، وفي الحذر الشديد اثناء دفعة للنقود ، واضعا شرط مسبق هو ان تشغل السيارة المشتراة امامه .

وما دمنا قد توقفنا عند الامام ، فلنقل بضعة كلمات عن ابنائه ، لقد قابلنا الامير محمد في الحديدة وهو الابن الثاني للامام ، ويصفه الوجهاء مع مسحة من السخرية بانه فيلسوف وشاعر وحالم ، يعيش وحيدا ، خلاف غيره من الوجهاء ، الذين يتزوجون حريما كثار ، يكتب الشعر ، ويقرأ الصحف المصرية بمثابرة ، هل ياترى اثر عليه تواجده في اوروبا (لفترة قصيرة اثناء سفره مع القاضي راغب الى ايطاليا بعد توقيع الاتفاقية) ام سعة اطلاعه ، هي التي اعطته مظهرا تقدميا ، لا يخشى من ان يعرض نفسه للتصوير ، والصعود على الطائرة ، فضلا عن سفراته الكثيرة بالسيارة ، كما ان تواجده في الحديدة ، واتصاله المستمر بالوسط التجاري الكمبرادوري ، قد جعل منه حسب رأي الاجانب ، مهادنا بالنسبة لنفسة ومشاعر هذا الوسط ، كما ان لين طباعه وسرعة تصديقه كثيرا ما يكون السبب في ان يجتمع حوله الكثير من المقامرين ، الذين لا يستطيع التجرؤ على رفضهم باستمرار .

الوزير الاول

ونقيضه اخوه الاكبر العهد احمد ، الذي يحمل لقب سيف الاسلام ، انه جبار ومقاتل شرس ، ينشر الخوف والذعر بين كل مرؤوسيه ، لقد وصفوه بانه يحتفظ عادة ودائما بثعبان وفهد الى جانبه وبهذه الطريقة يجعل الوجهاء الذين يصلون اليه يرتعدون ذعرا وحين ياتي الى صنعاء من الجبهة بين حين واخر يحيط به محاربون وقحاء ، ويرتبط وصوله بالذعر العام ، كما يقال ، انه حتى الامام يتغير صوته كثيرا حين يتحدث مع ابنه ويخاطبه بلهجة بعيدة عن الترفع .

ولكي ينتهي عرضنا للبيت الحاكم لليمن يبقى ان نضيف انه الى جانب احمد ومحمد يوجد سبعة او ثمانية اولاد للامام في عمد الطفولة والفتوه ، لا يتربون على نمط اقطاعي خاص يدرسون اللغات الاجنبية وبعضهم يقود الدراجة البخارية ، والبعض الاخر الدراجة الهوائية ، والتحديث يكشف عن نفسه .

وعلى العموم فان حياة الامام الاسرية تسير في وضع محكم الاغلاق ، اتذكر انه في احد الايام ابلغنا غير رسميا عن وفاة احدى زوجات الامام (زوجاته اربع) ، وحذرونا في نفس الوقت من التحدث بهذا الشكل او ذاك عن هذا الموضوع عند لقائنا بالامام ، وذلك لان الوفاة ، والولادة او الزفاف في القصر هي مسائل حياتية داخلية خاصة جدا ، وتعرف الاجانب عليها محرم .

لقد تحدثنا سابقا عن الطبيعة الاجتماعية للفئة الحاكمة لليمني فهي تعتمد على الجيش والاقطاعيين الذين ينمون باشكال راسمالية ، وتتحالف مع البرجوازية التجارية الداخلية وحتى مع الاوساط الميسورة في الارياف ، والقوة التي تعارضها هي فئة الارستقراطية الاكليريكية (المغلقة الدماغ) وزعماء القبائل الذين لا يحبون الخضوع للسلطة المركزية ، ان الصراع مع الزعماء القبائل العصاة يشكل جزءا رئيسيا من السياسة الداخلية لليمن ، ويعتبر القسم الجبلى من اليمن مرتبط بالدولة بقوة على وجه العموم ، وسواء شاء مشايخه ام ابوا فانهم خاضعون كليا للسلطة المركزية ، والعلامة الخارجية هي انتماء كل مشايخ القسم الجبلى لمذهب الزيدية ، وعلى عكس ذلك مشايخ وقبائل تهامة وما وراء الجبال فان اغلبيتهم ينتمون الى مذهب ، ولا يميلون ابدا للاعتراف الكامل وبشكل مطلق بنفوذ الامام الديني والحكومي ، والذي يلعب الدور الرئيسي في هذا التناقض ليس الدين بالطبع وانما الاقتصاد ، فقبائل تهامة وما وراء الجبال يقعون في درجة ادنى من التطور ، ما زال اقتصادهم يحتفظ بالنمط الرعوي في تهامة ، وحياة البداوة فيما وراء الجبال ؛ وبعد ان تعودوا على العيش على اساس وحدة اقتصادية مغلقة ، فانهم لا يميلون الي الرضوخ لجهاز الدولة فيقاومون محاولات السلطة المركزية التي تحملهم اثقال الضرائب وفرض الخدمة العسكرية . .

ويستغل تذمرهم من السلطة المركزية بمهارة من قبل الامبرياليين الاجانب الذين يقومون بدعاية حاذقة بين القبائل ، وفي اللحظة المناسبة يمدونهم بالنقود وحتى بالسلاح يدفعونهم للنضال ضد السلطة المركزيه ، واكثر القبائل عنادا في صراعها ضد الامام هي قبائل حاشد والزرانيق ؛ تسكن حاشد في شمال اليمن ، على الحدود مع الحجاز ، وتعيش قبائل الزرانيق في منطقة جنوب تهامة ، وهي منذ عهد قديم ، من عهد الاتراك مشهورة بالاصرار والعناد ضد كل محاولات التغلغل الخارجي سواء التركي او اليمني فيما بعد .

ولنقدم كلمة احد الاصدقاء العرب ، الذين وصف لنا طباع هذه القبيلة وصراعها ضد الامام بهذه العبارات :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الزرانيق هم عرب ، لكن بينهم قبائل حبشية وسودانية الاصل يعيشون على الساحل والى الشرق منه ، وموانئهم هي (الجوى) وعليفقة ، ومين الدى والطائف وعاصمتهم بيت الفقيه ، بينهم تسعة آلاف من المسلحين الشجعان ، لكنهم يشكلون مع زوجاتهم واطفالهم وشيوخهم ما يقارب ثلاثين الف ، وقراهم تقارب الثمانين قرية ، في ارضهم احراش يختبئون فيهاالوقات الخطر ، وينمو في ارضهم السمسم ، البطيخ الاحمر ، الفول ، الذرة ،

وميناء الطائف من بين موانئهم الصغيرة ، انه قرية للصيادين ، وفي اثناء الحرب مع ايطاليا (عام ١٩١٢) قام بالتجارة الرئيسية مع الخارج بدلا من الحديدة ، وبفضل هذا اثرى احد الصيادين الفقراء واسمه احمد الفتيني واصبح اكبر تاجر في الزرانيق ، لقد قام بتنظيم توصيل البضاعة الى الحديدة والى اعماق البلاد ، واخذ مقابل ذلك قسما من الارباح ، كما اقام علاقات مع عدن ومصوع ".

" والزرانيق لا يتزوجون قبل ان يبلغوا الثلاثين من العمر ، وعندما يتزوجون لا ينامون مع زوجاتهم اكثر من مرة واحدة في الشهر ، يحبون اللبن والعسل بلا حدود ، جميعهم اغبياء لكنهم شجعان في المعركة " .

عندما وصل الاتراك الى اليمن قبل ثمانين عاما ، رفض الزرانيق الخضوع لهم ، لم يدفعوا الاتاوات ، وفي عهد السلطان عبد العزيز جرت بينهم وبين الاتراك معارك كبيرة ، ثم خضع الزرانيق واجبروا على دفع ضريبة للحكومة التركية تقدر باثنين بالمائة من مجمل البضاعة المستوردة ، وثلاثة قروش على كل جمل يصل الى منطقتهم او يخرج منها ، وفي عام ١٣٠٤ هـ حدثت حرب بين الزرانيق وقبيلة فعار ، وكان الاخيرون قليلي العدد لكنهم اقوياء ، صلى شيخهم احمد مسكين يرجو من الله العون لبي الله طلبة فاصابت الكوليرا الزرانيق وتوفي عدد كبير منهم .

الزرانيق المتمردة

" وفي عام ١٣٠٩ هـ عين التراك فوزي باشا الذي وصل من سوريا قائمقام على الحديدة ، وكان هذا الشخص نبيلا ونزيها ، احبه كل اليمنيين بما فيهم الزرانيق ، ومع ذلك رفضت قبيلتها المجاملة والموازعة الخضوع للحكومة ، وحينئذ وصلت قوات تركية بقيادة الشركسي احمد بيه الى بيت الفقيه وهجمت ليلا على قريتهم ، واسر جميع مشائخهم واجبرهم علي الاعتراف بسلطته او قتلهم ، وهكذا كان الزرانيق مجبرين على الخضوع ، وتوفي احمد بيه سريعا بعد ان شرب عن طريق الخطأ شرابا روجيا من عصير التمر ، فرح جميع الزرانيق ، وبعد ان اقاموا احتفالا باذخا رفضوا الخضوع للسلطات التركية مرة اخرى " .

" لكن سعدي بيه الذي خلف احمد بيه يدخل مع الزرانيق في معركة جديدة فيجبرهم على الخضوع وحينها تفرقوا في كل الطرق الكبيرة وبداوا بنهب وقتل المسافرين او احبار التجار

على دفع اتاوة على كل جمل مقدارها بضعة ريالات ، وعندها ارسل سكان بلدة زبيد (يبدو انهم من التجار) برقية الى عظمة السلطان يرجون منه كبح وقمع هؤلاء المتوحشين ، فاصدر امرا لقائمقام الحديدة وقام الاخير بتكليف يوسف بيه واخرين بهذه المهمة ، وبعد شهرين من القتال انهزم الزرانيق واخذ المشائخ اسرى ، وحينها وصل رئيس مدينة الحديدة احمد شبراى باشا الى الزرانيق ، واطلق سراح الاسرى واصبح يدفع راتبا لكل شيخ من اجل عدم قطع الطريق " .

لقد كان نضال الزرانيق ضد الاتراك متميز لانه يعكس عملية النضال ضد العسف العثماني ، وهو النضال الذى خاضته القبائل الزيدية بقيادة الامام ايضا .

وقد انعكست فى هذا الصراع اساليب الشراء والاستمالة تلك التى مارسها الباشوات الاتراك ، بهدف تأمين انفسهم بواسطة معاضدة المشائخ المحليين والتجار فى النضال ضد السكان العصاة .

محتفيو اليمن

سرد محدثنا طويلا تلك المعارك التى خاضها الزرانيق ضد الاتراك ، ثم ضد الانجليز بعد الحرب العالمية وضد الادريس حين احتل الحديدة ، والان يستخدم هؤلاء الفوضيون " من قبل الانجليز فى الصراع ضد الامام بطريقتهم الخاصة ، يناضل الزرانيق بانتظام وعناد ضد كل محاولات التغلغل فى اراضيهم من اى قوى غريبة عنهم ، ولا يستثنون فى ذلك حتى حكام بلادهكم من اليمنيين ، والسبب فى ذلك ليس الدوافع الاقتصادية المشار اليها فقط بل وبسبب المغالاة والتطرف الفريد الذى استخدمه الجيش والادارة اليمنيه فى الصراع ضد الزرانيق ، حيث ان دعاة المركزية الاقطاعيين ، الخشنين عديموا التجربة فى صنعاء كانوا يرسلون الى منطقة القبائل العاصية والمتمردة البلداء والعساكر الغلاظ الذين لا يملكون لغة الحديث مع مرؤوسيهم فى احيان كثيرة ، بلغة اخرى ، كانت لغة القتل ونظام الرهائن ونتيجة لهذا فقد استمر الصراع طوال عامى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ بين الامام والزرانيق ، ولا نعرف هل انتهى ذلك الصراع الان ام لا .

غير ان الصراع مع الزرانيق ليس سوى اكثر الظواهر بروزا فى عملية النضال من اجل توحيد القبائل اليمنية فى جسم دولة قوى ، تخوض سلطة صنعاء هذا النضال فى ظل العمل

المضاد من قبل الامبريالية وعملائها ، يمول الانجليز والايطاليون الزرانيق بالسلاح على التوالي عبر موانيء بحرية صغيرة ، كي يكون من السهل على اولئك تهديد الامام ، حتى ينتزعون منه هذه التنازلات او تلك ، وعلى وجه العموم فان عملية التوحيد هذه لا تزال بعيدة عن نهايتها ، حيث ان مجموعة من القبائل وخصوصا الواقعة الى الشرق من صنعاء ، وما وراء الجبال ما تزال غير خاضعة لنفوذ السلطة المركزية ، والصراع ما زال قائما .

الباب الرابع عشر

* في ايام الغارات الإنجليزية
* العملاء
* اضرب واهرب
* ثلاث صيغ

فى ايام الغارات الإنجليزية

تبدو صنعاء وكأنها قد اقفرت ، البيوت الخائفة فارغة ، همد السوق وانكمش ، المدارس والاماكن الغاصة بالناس مغلقة ، المعسكرات الحربية خارج اسوار المدينة متنعشة لوحدها فقط ، وفيها تنفث دخان مدخنة مصنع الاسلحة الصغيرة محمومة ، يسمع صليل المعادن ، والمجموعات العسكرية تسير بدون توقف على السهل بالقرب من اسوار المدينة ، تلوح المدافع والرشاشات ، كما اقيمت مراكز مراقبة على الجبال المحيطة ، نقلت كل الممتلكات الحكومية من المدينة او مخبأة فى جبل نقم ، حتى الطائرة الوحيدة الصالحة للاستعمال ، والتى يقوم بخدمتها ثلاثة من المدربين الالمان ، امر الامام بتفكيكها و اخفائها خصيصا لهذا الغرض .

المدينة تنتظر الغارات الانجليزية ، وانتظارها ليس عبثا ، فالطائرات الانجليزية قد اغارت على المدن الحدودية مثل الضالع ، قعطبة ، ذمار ، بريم تعز ، وصف اخر من القرى والاماكن قد جرب ماذا تعني منجزات " الحضارة " ، الاخبار عن الغارات القارات التى بدات تصل الينا في البداية على شكل اشاعات من الاسواق قد حدثتنا بها شخصية رسمية فيما بعد ، تبدأ الطائرات تضرب المناطق الحدودية " المتنازع عليها " ، ثم تضرب العمق فيما بعد ، فتصل الى الاماكن الواقعة على منتصف الطريق بين عدن – صنعاء ، يجرى اللعب باعصاب ضيقى التفكير والفئة الحاكمة فى اليمن .

وصنعاء حابسة نفسها تنتظر الغارات ، الصباح فى صنعاء واضح وهادىء ، لا ريح ولا سحب فى السماء الزرقاء غير المتناهية ، فى هذه الساعات من الفجر تنطلق الطيور الفولاذية الكاسرة من عدن ، تحلق فوق صف من القرى والمدن ، لا تبحث عن المدن المحصنة ابدا او عن التجمعات العسكرية ، لا يتورعون عن رمى القنابل على القرى الامنة ، يهبطون حتى التلامس فوق الريفيين الهاربين فى ذعر ، واكثر القتلى من النساء والشيوخ والاطفال ، يستمر هذا الاصطياد الدنيء حتى الساعة العاشرة ، ومن هذه الساعة يبدأ الطقس يسوء فى الجبال وتهب الرياح تدفع السحب فى زرقة السماء الملساء ، وتهب اعاصير حقيقية ويتساقط المطر احيانا ، كان الطقس يحمى البلاد ، العاجزة ، ثم تعود الطائرات الى اماكنها تحت حماية طوابى عدن ، ويتنفس السكان الصعداء ، ينتظرون بهلع فجر اخر .

موجة التوتر العامه تلفنا نحن ايضا ، نحن كذلك نخرج فى اوقات الصباح الى السطح المستوى ، نوجه المنظار الى الافق البعيد ، حيث تمتد الطريق الى عدن غير الودية ، مختفية

وراء كتلتين ضخمتين من الجبال ، نرفض الاقتراح المعروض علينا بالانتقال الي الاماكن الامنة خارج المدينة ، ننتظر بفارغ الصبر نهاية الموقف المتوتر ، نشعر كما لو اننا نشارك في الاحداث الجارية مباشرة .

نسأل انفسنا ماذا سنفعل عندما تبدأ الطائرات بالقصف ؟ هل سنذهب الى اقبية المبنى ام سنبقى في السقف نوجه منظارنا الى اعلى ؟ او الافضل لنا ان نخرج الى الحديقة ، لكي لا نقتل عبثا تحت انقاض البيت المنهار ؟ اين سنذهب فيما اذا سقطت صنعاء والحديدة وتحتم على الامام التراجع امام ضغط القبائل الممولة من الاعداء ؟ انذهب الى الشرق ، نسير عبر صحارى الربع الخالي المجهولة باتجاه شواطيء الخليج الفارسي ، ام نخطو مئات الكيلو مترات الى الشمال في طريق الحجاج الى الحجاز ؟ لا نعرف ، بل ولا نمعن التفكير في هذا الموضوع بشكل خاص ، تبدأ العصبية الشرقية تتغلغل في مسام تفكيرنا ، وفي نشوة تاملية ننصت لخشخشة آلة الزمن ، التي كأنها قد تحركت من محطة القرون وانطلقت الى الامام .

الاشاعات زاحفة ، تسبق الاحداث ، وتتناقض مع مجرياتها مباشرة احيانا ، لا تعكس هذه الاشاعات ما هو موجود فقط ، بل وما كان مفترضا ان يحدث حسب تخطيط المدنيين الملهمين .

تصبح انتفاضة قبائل حاشد في الشمال والزرانيق في الجنوب الغربي معروفة ، يتحدثون عن قصف البواخر الانجليزية للحديدة يخبروننا في نفس الوقت بان هناك اشاعة منتشرة وكأنه قد حصل قصف الطيران على صنعاء وعن تدمير القصر الملكي وهروب الامام ، وفي هذه الاثناء كدنا ان نقع ضحايا استفزاز ماهر ، ظل مصدره الحقيقي غير معروف لنا ، والقصة هي بالشكل بالتالي .

العملاء

ان احد تجار صنعاء ، الذي تصله قرابة مع احد الموظفين البارزين بالحديدة ، وكان قد تعرف علينا حسب توصية الاخير هذا ، وزارنا اكثر من مرة ، ناقلا وسط الاحاديث العمليه عن بيع البن وشراء الكروسين اشاعات السوق المتسمة بالتزوير السيء المشبوه .

بدا لنا أن رده على اعقابه امر غير لائق ، وعلى كل حال هو قريب احد اصدقائنا ذوي النفوذ في الحديدة ، صبرنا على زيارته الي حين ، غير انه عزم رفيقنا في احدى المرات ، وقد

كان اكثر الحديث مع هذا التاجر حول السفر الى الحديدة ، ربما ان شخصيته هذه لم توحي لنا بالثقة اطلاقا ، شعرنا بنوع ما من اعمال السوء (فالرسالة يمكن ارسالها عبر البريد بسهولة) ، قام رفيقنا بفتح الرسالة ، لكي يقرأ رسالة ذلك التاجر المحترم ، يتضح انها مكتوبة بشكل ورقة صغيرة مجدولة او مقسمة الى قسمين ، في قسم منها تعداد كل " المعلومات " الممكنة عن الوضع في الجبهات ، في العاصمة وفي كل البلاد ، وافقت هذه المعلومات الواقع جزئيا ، وان كانت قد حملت صفة سيئة القصد بشكل واضح لليمن ، فهي تخبر عن غارات الانجليز على عدد من المدن ، وعن انتفاضة قبائل حاشد ، وعن هروب الميسورين من صنعاء ... الخ ، وكان جزءا من هذه المعلومات مخترع وقد صيغ بطريقة مثيرة للفزع بوضوح ، فقد ابلغت الرسالة عن قصف الطائرات الانجليزية لصنعاء (حيث لم يصل طيران العدو اليها حتى الان) وعن تدمير قصر الامام ، والهجوم الذي بدأته القوات الانجليزية ... الخ . كانت ورقة الرسالة مسطرة بحيث كانت في الجهة المقابلة للمعلومات ذات صيغة تقل او تكثر عن شبه الحقيقة " اسعار السكر (او الدقيق ، البن وغيره) منخفضة " ومقابل المعلومات الواضحة الهراء والكذب يكتب : " اسعار" (بضاعة ما) مرتفعة ايضا " ، هكذا تم تنظيم نقل الاشاعات المذعورة ، التي انتشرت في كل البلاد ، الهادفة الى تقويض سلطة الامام ، واثارة الانتفاضة ضده ، والتي كان يتبناها من يحلم بمجيء فئة مقبولة للانجليز الى السلطة .

كان واضحا ان اليمنيين الذين يوالون الانجليز الى استخدامنا لكم واحد للاشاعات الكاذبة ، وبهذا يجروننا الى لعبتهم ، كان يمكن ان يكون هذا نصف المصيبه ، لكن كل الوضع الذي دبره اصحاب هذا التدبير ، ولعدة اعتبارات لا تستحق الذكر ، فرض علينا الشك بان مدبري الدسائس ينوون فيما بعد فضحنا اما اعين الحكومة اليمنية ، يخبرونها بهذه الطريقة او تلك بواقعة نقل " الرسالة " الاستفزازية من قبلنا بالذات ، وقفت امامنا مهمة كيفية التخلص من هذا الوضع وقعنا فيه ، من الواضح ان ارسال الرسالة الى الجهات المعنية امر لن يكون ، وبالطبع كان المخرج البسيط هو توصيل الرسالة الى اي السلطات ، وبهذا نؤكد " ولائنا " . لكن هذا يعني عدم الثقة من قبل من اعطانا الرسالة (رغم انه عمل ذلك لاسباب استفزازية وعدم الثقه في الشرق امر لا يغتفر حتى من كان لصالحه ذلك ، ولهذا قررنا ان نبقى امناء في موقف عدم التدخل في الوضع المعقد للعلاقات الداخلية اليمنية ، وبعد عودة الرفيق اعدنا الرسالة للتاجر مع الاعتذار عن عدم قدرتنا على توصيلها الى الحديدة وذلك " لاسباب خارجة عن ارادتنا "

لو كنا اوصلنا الرسالة الي المرسل له ، فانه يمكن ان يكون الاحتمال بتطور مجرى الاحداث اللاحق وفي افضل الحالات ، لو كان " صديقنا " في الحديدة والتاجر في صنعاء عميلين نشيطين للانجليز وعدوين للامام ، فسنكون قد نفذنا دورا منحطا كأعوان في نشر الدعاية الانجليزية ،وقد يظهر " الصديق مستلم الرساله لكل من هب ودب ، كإثبات موثوق به عن صحة اشاعات الذعر المنتشرة ، وتلك الواقعة ، بان الرسالة حملها رفيقنا ، كانت ستستخدم كتاكيد اضافي على صحة معلومات الرسالة ، ولكنا قد نفذنا عملا مخزيا ومنحطا .

لكن كان هناك احتمال اكثر رعبا ايضا ، حيث يمكن ان يكون هذا التدبير مدبر من قبل رؤساء البوليس اليمني الغيورين ، الذين يبحثون عن براهين " لعدم ولائنا " للامام ، ولهذا فقد اقدموا على هذا العمل الاستفزازي ، " اذ بعد ان يستلم الصديق " في الحديده هذه الرسالة ، بمقدورة ابلاغ الحكومة بسرعة ، بانه اكتشف تعاونا نشطا " البلاشفة " مع الانجليز في قضية نشر الاشاعات الكاذبة ، وثبت الافتراء الايطالي (بان البلاشفة يتعاونون مع الانجليز ، ذلك الافتراء الذي تحدثنا عنه سابقًا ، وبهذه الطريقة يكون التاكيد امام عيني الامام نفسه ، ولكان هذا أسوأ من تجارة خاسرة أو فشل دبلوماسي . . .

لكن الامور بخاتمتها ، وهكذا لم نعرف ، هل اصبح معروفا الحكومة اليمنية هذا الحادث الصغير ، وفي كل الحالات ، لم نتباهى " بولائنا " والان لا نتباهى ايضا ، لقد سردنا هذا المقطع كصورة واحدة فقط وكلغم من الغام كثيرة اعداؤنا المتعددو الاشكال نثرها في كل خطوة امامنا ،

يمر اسبوعان او ثالثة متوترة .

يبدأ اثر الغارات يضعف ويزول بالتدريج ، نعرف ان بضعة طائرات انجليزية تحطمت فوق الاراضي اليمنية ، ولا نعلم هل كان ذلك نتيجة لرصاص البنادق التي اطلقها البدو ، او المطبات الجوية في الهواء الجبلي لليمن الذي لم يكن مدروسا من قبل الطيارين الانجليز .

وشيئا فشيئا تتعزز الثقة، بانالعدو لن يغامر بالطيران على صنعاء .

وبعد ذكريات الماضي نستخلص النتائج .

في زمن الحرب العالمية ، في صيف ١١٥ ، حين كانت اليمن شكليا ضمن الامبراطورية العثمانيه (اما من الناحية العمليه فلم يجد الاتراك مستندا او مرتكزا لهم في اليمن اطلاقا ، وقد احتفظوا فقط بمدينتين او ثلاثة مدن ، قام الاسطول الانجليزي بقصف الحديدة .

اهتزت هذه المدينة الساحلية ، التي ازدهرت بتجارتها ، تحت ضربات قذائف الاسطول الحربي ، وتناثرت البيوت ، وهرب السكان العزل مجاميعًا الى سهول تهامة الحارة ، احترق السوق واشتعلت المخازن التجارية ، رغت الجمال بجنون ونهقت الحمير بطريقة انسانية مرعوبة ، وسقط مئات القتلى بينهم الشيوخ والنساء ولاطفال ومات الهاربون بدون طعام ولا ماء في قيظ الصحراء .

لقد كان سخفا حتى من وجهة نظر المصالح العسكرية الضيقة لبريطانيا ، حيث لم يكن في الحديدة لا تحصينات ولا مخازن عسكرية ، وانما كانت هناك تجارة عربية وصناعية آمنة ، اينما يكتظ الحرفيون ، والصناع اليدويون ، العتالون ، سائقو الجمال والحمير في عشش معتمة ، والبائسون يتسكعون في السوق .

في ذلك الوقت ، كما هي الحال الان لم يخوضوا حربا ضد الانجليز ، لقد اعد اولئك السكان في اماكن اخرى انتفاضة ضد الاتراك ، ولهذا فان تدمير مدينة امنه لم يجد اى مبرر له من اى وجهة نظر كانت .

لا تزال الهياكل المحطمة من بيوت الحديدة حتى الان ، لقد تفجر كل السخط على الانجليز في عموم البلاد ، ووجدو صداه في الخارج ، ويدفع كل السكان الى تأييد الاتراك وقتل الالاف من الاسرى الانجليز ، وخلقت حالة استطاع الاتراك في ظلمها ان يوجدوا لهم مكانة في مساعدة اليمنيين وذلك بالوقوف تحت اسوار عدن حتى نهاية الحرب ، يشاغلون بذلك عشرات الالوف من القوات الانجليزية ، وذكرى هذا القصف البشع لم تمحي من ذاكرة السكان حتى لان .

لم تكن هناك ضرورة استراتيجية للقصف ، وكان عملا سخيفا سياسيا ، وقاسيا بشكل غير انساني ، لكنها كانت تلك الحرب التي قتل فيها في شمال العالم عشرات الملايين من الناس .

غير ان الحرب قد هدأت الان ، ولاح حلول السلم ، على انقاض الامبراطورية العثمانية ، واصبح اليمن مستقلا ، وبدأ الحفر بالمحافر تطرق في الطرق في الجبال ، وبدأت البواخر تنفث دخانها في الميناء ، ويدوى صفير السيارة الوحيدة في الصحارى والجبال ، بدأت الاعمال في حقل الزراعة والصناعات اليدوية الصغيرة والمواصلات ، وبدأت تتشكل شبه دولة في البحر الهائج من القبائل المتناحرة .

وها هي الان ، وبينما تتبطن اوروبا بالهراء حول نزع السلاح والسلام الابدي وما شابه ذلك ، تمتليء هضاب اليمن بدوي انفجارات القنابل من جديد تشتعل القرى ، وتتهدم جدران البيوت ، ومن جديد تسيل دماء العشرات والمئات من السكان المسالمين من الشيوخ والنساء والاطفال .

والمميز انه هذه المرة لم يأت العدو من البحر ، حيث لم يرغب بعرض شناعته بشكل واضح امام العالم الخارجي ، واذا قدم من اليابسه فقوته لا تكفي ، لهذا فضل التحليق في السماء ورمى الاف القنابل على مدن وقرى اليمن الآمنة .

اما سبب الغارات ؟ فقد اشرنا اليها ، نزاع حول بعض المناطق الحدودية ، التي يعتبرها الانجليز منطقة نفوذهم اليمنيين بالخروج منها ، وبدلا من المحادثات لجأ الانجليز الى اسلوب اكثر بساطة - الى القنابل .

هل كانت صدفة ام لا ، ان يكون النصف من القنابل المرمية لم يتفجر ، وبعضها تفجر بعد وقت بعيد اثناء التعامل غير الحذر معها ، ظل غير واضح لماذا رمى الانجليز بقنابل فاسدة ، الم يكن هذا رمز لفشل القصف ، مثلما كانت محاولات الانجليز فاشلة ايضا في اقامة انتفاضة داخلية ضد السلطة المركزية عن طريق شراء القبائل في نفس الوقت ، وعد الكثير من زعماء القبائل بمناصرة الانجليز ، واستلموا منهم نقودا ، لكنهم اشعروا الامام بذلك وبعثوا له بقسم من تلك النقود في نفس الوقت ، وقد اتضح ان قذائف الذهب التي سقطت على التربة اليمنيه هي اقل فعالية من القذائف المعبأة بالبارود ، لقد صمد اليمنيون

افصح العقيد جيكوب في احد كتبه عن التكتيك الانجليزي في المستعمرات ووضحه بحكمة هندية معناها بالشكل التالي -

اضرب اولا ثم اهرب .

وكان خطة المغامرين الانجليز هذه المرة ، كما اتضح من مجرى الاحداث بالشكل التالي :

رفعوا في البداية عدة مطالب الى الحكومة المركزية في اليمن ، وباغتوها ، بالمذكرات ، والتهديدات والنصائح ، ثم القاء القنابل على المدن والقرى الآمنة ، وخلق حالة من الذعر ، وايقاف التجارة والمواصلات وشل الحياة الاقتصادية في البلاد ، وبواسطة التحريض النشط المعزز بالهبات المالية ، و " التأثير المعنوي " على المشايخ ، يثيرون انتفاضة القبائل سواء في تهامة او في شمال الشرق من القسم ما وراء الجبال المحاذي للصحراء ، واذا لم تؤدي هذه

الانتفاضة الى تغير حاسم ، فان هذا العمل يمكن ان يقود اليمنيين الى الاستثارة والقيام بصدام مسلح الي حد ان يقوم اليمنيون بالهجوم على عدن ، وهناك يلحق الانجليز هزيمة بهم ، وبهذا يعجلوا في اسقاط تهامة ويعزلوا القسم الجبلي من اليمن عن البحر ثم يعطوا فيما بعد تهامة للادريس حاكم امارة عسير المجاورة الضعيفة والراقصة تحت المزمار الانجليزي ، او تنصيب واحد من اتباعهم على تهامة .

كانت الخطة مدروسة بتفصيل بالغ ، وقد بدأت وكأنها غير سيئة التخطيط ، لكنه يجب علينا ان نتذكر المثل القديم القائل اينما يكون الضعف يكمن الفشل

وفشلوا ...

وبعد بضع الوقت بدأ كما لو أن الحكومة اليمنية تتأرجح ، كانت تسرب اشاعات عن استعدادها للاستسلام احيانا ، وبالعكس ، عن بدء الحملة اليمنية على عدن واحتلال لحج الواقعة في منطقة الانجليز غير المتنازع عليها احيانا اخرى .

ثلاث صيغ

كل هذه او تلك كانت اشاعات فقط ، انعكست فيها وجهات النظر المختلفة ، التي تصارعت فيما بينها هذه الايام ، وكانت وجهات النظر هذه (ثلاث تؤدي الى الاتي بشكل رئيسي - واحده من وجهات النظر هذه تقف الى جانب تلبية مطالب الانجليز في كل نقاطها الرئيسية (اخلاء المناطق المتنازع عليها ، الاعتراف بعدن للانجليز الى الابد ، وليس على المبادىء المتفق عليها ، كما كانت في أيام الاتراك ... الخ ، لم تكن هذه الخطة الاستسلامية بوضوح منتشرة ، وقد دافع عنها بعض المشائخ والوجهاء المغضوب عليهم فقط ، وقد اشترشدوا بالقسم الاكثر جبنا من التجار الكمبرادوريين .

اما وجهة النظر الثانية فقد اضرمت المشاعر المضادة للانجليز ، وقد اصرت على ان يعلن الامام الحرب المقدسة على انجلترا وتحريك القوات على عدن ، وقد بدا كما لو ان هذه هي النفسية السائدة في الفترة الاولي ، ومن هنا انتشرت اشاعة عن احتلال لحج .

وليس من الصعب ملاحظة عدم ثبات ومغامرة هذا الخط رغم كل صلابته الخارجية المنمقة ، لقد كان واضحا انه رغم كل انضباط ، وتمرن ، وتنوع المقاتلين اليمنيين ، لكنهم مع ذلك ليسوا اقوياء بما فيه الكفاية لغزو منطقة عدن المحصنة حسب كل قواعد التقنية الحديثة ،

ان الاستعداد الدائم للموت ، والقدرة على اصابة الهدف بدقه من مسافة بعيده (يتقن القبلي استخدام البندقية منذ الطفولة) ، وعنده مقدرة علي الاكتفاء بحفنة من القمح ورغيف من الذرة للغذاء – كل هذا الى جانب المستوى الرفيع من التنظيم الحربي والطبيعة الجبلية للمنطقة تجعل اليمني بالغ الصلابة في القتال الدفاعي .

ولهذا فان غزو اليمن اذا تجرأ الانجليز على ذلك ، سوف يكلفهم ثمنا باهظا جدا ، ولتحولت البلاد الى مرجل يغلي ، لكنه من الواضح جدا ان القوات اليمنية الضعيفة تكنيكيا لا تستطيع في تلك الوضعية اخذ عدن بعد اصطدامهم بالانجليز على انفراد .

ظل موقف الحكومة غامضا على امتداد بضعة ايام ، وكانت تصل افواج جديدة من القبائل الى صنعاء يوميا لتعزيز وحدات الجيش النظامي ، كان التدريب العسكري يجرى ليل نهار ، وكانت اصوات الابواق العسكرية تشق عنان السماء في عتمة الليل اكثر من مرة ، تستنهض القوات المناورة .

كان حساب الاعداء بسيطا ، ويبدا كما لو انه صائب ، فلو اقدم الامام على التنازلات ، ستزول هيبته الى غير رجعة ، وكذلك السلطة معه ، واذا قرر الحرب وبعث بالقوات الى عدن فانه سيسقط نتيجة للانهيار العسكري ، وفي كلا الحالتين سيربح العدو الخارجي الماكر وانصاره في داخل البلاد .

استمرت جلسات الامام مع الشخصيات الاكثر نفوذا ومع ممثلي القبائل بضعة ايام ، ونتيجة لذلك تكونت صيغة فريدة للعمل تقول :

– لا تنازل لانجلترا ، ولا تنازل عن مطالبنا ، وبقدر الامكان عدم الانجرار للاستفزاز في نفس الوقت ، لا دخول في المعركة ، ولا ذهاب الى عدن .

بدأت هذه الصيغة في المناطق الجبلية العصية اكثر مناسبة لمشاعر البلاد ، في واقع اليمن الاقطاعي لم تهتز اعصاب اليمنيين تحت عناقيد القنابل الانجليزية ، وانتصرت اليمن في صراع الاعصاب هذا ، فهم الانجليز ، بان تفجير الوضع الداخلي في اليمن لن يتأتى لهم ، كما فهموا بان انفجارات قنابل الطيران لن تحل القضية ، فهدأوا ، تاركين الطيور الفولاذية الجارحة في اعشاش عدن .

الباب الخامس عشر .

* محاولة فاشلة للإستفزاز الدبلوماسي
* الإمام يستغيث
* النذور والرشوات
* انهيار الحسابات الإنجليزية والصفعة الامريكية .

محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسي

جرى حدث بارز اخر في هذه الايام، فقد وصل من امارة عسير الى صنعاء شخص اسمه جمال، ويحمل لقب باشا، وقد حصل على هذا من قبل ابن مسعود ملك نجد، وقد كان جمال هذا ضابطا تركيا سابقا، وخدم اثناء الحرب العالمية عند أنور، وقد شغل منصب " وزير حرب " ابن سعود ، وشارك في الحملة على جدة والاستيلاء عليها ، وجمال هذا هو واحد من صنف اولئك الاتراك مثل القاضي راغب ، انقطع عن اصله التركي، ورمى بنفسه في البحر الهائج للنزاعات العربية الداخلية ؛ لكن الفرق بين الاثنين ان القاضي راغب رابط الجأش وناضج سياسيا، في حين ان جمال طائش، متقلب ، يشبه مغامر لا مبدأ له ، مستعد في أي لحظة للركض هناك حيث يجد الفائدة أكبر، في زمن الحرب بين نجد والحجاز قام بمساعدة ملك نجد ونال لقب باشا، من هنا كانت الكنية اللاذعة " الباشا ابن السعودي " التي الصقها اليمنيون به، ومع ذلك اختلف بسرعة مع ابن سعود ، وانتقل الى خدمة الادريسي، وهناك عزز نفسه عن طريق زواج مربح ، وقد اعتبر نفسه ملك او حاكم هذه الامارة تقريبا ، رجل في منتصف العمر، متبجح ، كثير الكلام ، مغرور، وصل فجاءة الى صنعاء في هذه الايام المضطربة.

لماذا ؟

يرد الجواب نفسه، فعسير تقع تحت حماية نجد والحجاز ممثلة بشخص ملكها ابن سعود. وهذه الامارة تحاذي اليمن في نفس الوقت، وسكانها من القبائل اليمنية، واقتصادها يميل الى اقتصاد يميل وضمها يشكل حلما مكنونا للحكومة اليمنية، يتحدث اليمنيون عن ذلك بصراحة، ويؤكدون مع ذلك بانهم لا يريدون طرح هذه القضية للبحث الان، وذلك لان ضم عسير لا يمكن ان يتم بدون نزاع مع ابن سعود الذي يحميها الآن ، وكان من الواضح ان الحرب بين اليمن والحجاز هي لصالح العدو المشترك – انجلترا، وقد لوحظ سابقا ان انجلترا تحاول اثارة النزاع بين الامام يحيى وبين ابن سعود، ففي عامي ١٩٢٥ – ١٩٢٦ عرض المبعوثون الانجليز تقديم الاسلحة لابن سعود على انفراد من اجل الحرب مع اليمن ، كما وعدوا الامام يحيى بالتسليح والمساندة ضد نجد والحجاز ، وقد اكتشفت هذه اللعبة من قبل الملكين ، واصبحت مثلا يمنعهما من السماع لمثل هذه الدسائس في المستقبل ، وفهمت حكومتا البلدين بوضوح ، ان النزعات الداخلية هي لصالح الانجليز فقط ، حيث يكون بمقدور الاخير بهذا الاسلوب احتواء الطرفين ، ومن هنا وجدت النفسية المهادنة في كلا المعسكرين ، فاليمن تعترف بصمت بمصالح

نجد والحجاز في عسير وتمتنع عن القيام باى مشاكل على الشمال ، وبنفس المستوى ايضا يوجه ابن سعود كل اهتمامه ناحية الحدود الشرقية ، يطمح الى الوصول الى الخليج الفارسي، وقد اوقف التحرك نهائيا الى الجنوب نحو اليمن، وتحرك اليمنيين نحو الجنوب الى عدن، شأنه شأن انجذاب نجد نحو الشرق نحو العراق والكويت، يتوخى اهدافا مشتركة وهى شق الطريق الى شواطيء البحار المفتوحة، والخروج من مصيدة البحر الاحمر الخانقة، كان يعني هذا توجيه ضربة لانجلترا، واختراق السلسلة المحكمة الترابط للامارات المرتبطة بالانجليز والممتدة على طول السواحل البحرية، لان امراء تلك الامارات يعزلون الدولتين الداخليتين المستقلتين في شبه جزيرة العرب عن البحر المبتغى والحكم عليها بالخمول في رمال وصحارى وجبال الاختناق القاري، لقد اكتشفت اللعبة الانجليزية، لكن الانجليز لم يكن بمقدورهم الصمود امام اغراء محاولة اثارة النزاع اليمني - السعودي في أكثر اللحظات حدة، وها هو جمال التركي قد وصل الى صنعاء، لم يخف هدفه ذلك - ان يعرض على الامام وضع يده العالية على عسير ، وكأن هذه الامارة قد اصبح دورها ان تكون لعبة ، وانها تريد الدخول طوعا ضمن اليمن شرط الاحتفاظ بجزء من الاستقلالية .

كان الاغراء عظيما، فالقطعة المشتهاة قد اتت بنفسها الى يد الامام، وبدا انه لم يبقى سوى قول "نعم" ، لكن اليمنيين لم يقولوا "نعم" هذه، لقد فهموا ان وضع يدهم على عسير، يعني الدخول في نزاع مع نجد والحجاز، وبهذا يكونوا قد حققوا حسابات الانجليز، ولذلك لم يترددوا ، لم يستقبل الامام يحيى جمال هذا ، وقد مكث بضعة ايام دون جدوى ، وغادر اليمن خالي الوفاض ، واحترقت ورقة الانجليز هذه ايضا .

ومع ذلك ، لا توجد لدينا ادلة مباشرة ، بان جمال كان يحمل بوعى لصالح الانجليز، من المحتمل انه قد قادته اعتبارات مغامرة وهمية ذاتية، غير ان عمله موضوعيا كان يتفق مع مخططات الانجليز، وقد كانت عدن هي الملهمة او الموعزة بهذا القدر او ذاك من دون شك، وقد اظهر اليمنيون مستوى رفيعا من الوعي السياسي بسلوكهم في هذا الحالة، فشوشوا بذلك كل مآرب العدو .

الامام يستغيث

لمسة أخرى ايضا ، تشهد على تلك التطورات ، التي عاشتها اليمن تحت تأثير القنابل الانجليزية، لقد تحاشى الامام حتى الان، اصغر استغاثة مفتوحة بالرأى العام او بالدول

الاجنبية ، حيث هيىء له و "لمجالسه" بان خليفة النبى لا يمكن ان تواجه الا الى الله، اما استغاثته بالشعب وخصوصا غير المؤمنين فهو امر اقل من كرامته وعزته، ولهذا فقد قرر القيام بخطوة جذرية للخروج من سكونه المهيب والاستغاثة بالشعب والخارج، حتى ولو كان ذلك بشكل مقالة منمقة.

ظهرت هذه المقالة فى عدد يونيو من صحيفة " الايمان " الصنعانية، وهى صحيفة متواضعة تصدر شهريا فى اربع صفحات، وتحتوى عادة على مناقشات قضايا دينية ويضعة اوامر، وقرارات حكومية، تطبع هذه الصحيفة فى مطبعة صغيرة موروثة من الوالى التركى، وتقع وراء جدران قصر الامام، وهكذا قرر الامام تحت تأثير القنابل الانجليزية ان يجعل من هذه النشرة الرسمية سلاحا للتحريض السياسى، فكلف احد مستشاريه بصياغة ونشر موضوع الغارات الانجليزية، وطرح جوهر الخلاف الانجليزى – اليمنى امام اعين " العالم كله " ، وبالنتيجة ظهرت مقالة كبيرة ملأت الاربع صفحات من الحجم الصغير للصحيفة، تحدثت المقالة فى بدايتها عن آثام انجلترا التاريخية ضد حق الشعوب المسلمة فى مصر وسوريا والعراق وفلسطين والحجاز، ثم شرحت بالتفصيل دور الانجليز فى تاريخ اليمن ابتداء من عام ١٨٣٩ حين احتلت المراكب الانجليزية عدن تحت مبرر " الاستئجار " واصبحت فيما بعد قلعة وواحدة من القواعد الرئيسية على الطريق الى الهند، واقدمت الحكومة العثمانية المترهلة على التنازل معترفة بحق الانجليز " باستئجار " عدن، ومقابل ذلك سلم الانجليز للاتراك باحتلال اليمن، التى كانت تحتج أكثر من مرة قولا وفعلا ضد الغزو الانجليزى لعدن، وقد تعرضت " حقوق الاستئجار للتمديد فيما بعد، ومع ذلك، لم تعتبر عدن شكليا ارضا انجليزية، وكان الانجليز مستعدون " لـ التنازل " عنها للشريف حسين، الذى أطاح به ابن سعود فيما بعد، لقد اصطدمت محاولات الانجليز بالسيف والذهب لتوسيع نفوذهم خارج منطقة عدن بمقاومة اليمنيين خلال قرن كامل، واصل اليمنيون مقاومتهم، حتى بعد الحرب، عندما سيطرت انجلترا على تسع مقاطعات مجاورة، متكلفة بصرف معونات على مشايخ هذه المقاطعات، ثم تقدم المقالة وصفا للسياسة الانجليزية فى السنوات الاخيرة بالعبارات التالية :

" ... فى نهاية الحرب العالمية، قام الانجليز، باعطاء تهامه للامير الادريس، حيث استغلوا ترك الاتراك لليمن، لكى يبدأ الادريس صراعا ضد الامام، بحيث يمنع قوات الامام من الهجوم على عدن، وقد قتل الانجليز آلاف كثيرة من الجنود اليمنيين فى النزاع بين الادريس والامام، ومثل هذا بالضبط يسعى الانجليز الان لزرع الفتنة بين قبائل اليمن، ويحرضونهم على

الانتفاضة ضد الامام، لكن جميع هذه القبائل ظلت وفية للامام وستبقى محاولات الانجليز دون نتيجة .

وحين رأى الانجليز ان جميع محاولاتهم لم تؤدي الى شيء، اضطروا للاتفاق مع الامام، لكنهم ارادوا عقد اتفاقية تكون مريحة لهم، حاولوا التغلغل في اليمن، مثل بقية البلدان بمساعدة سياستهم المخادعة، لكن هذا لم يتأتى لهم .

حينئذ اصبحوا يبعثون ممثليهم الرسميين الى اليمن في الفترة الاخير ؟ من أجل توقيع اتفاقية مع الامام على اساس الاعتراف بالاحتلال الانجليزي لعدن ومحمياتها، رحبنا نحن اليمنيين بهؤلاء المبعوثين وسعينا الى الاتفاق معهم لصالح الطرفين، لكن كانت كل محاولاتنا عبثا .

انهم لا يريد من ان يفهموا اننا بشر مثلهم ايضا، فرفضوا اعطائنا ولو شبر واحد من أرضنا، وذلك لاننا لم نحتل هذه الأرض بالشراء ولا بالخداع، كما فعلت ذلك انجلترا بعدن .

نحن اليمانيين، واليمن ملكنا، وسندع انجلترا تفكر بان اليمن وعدن ولحج تدخل ضمن الامبراطورية البريطانية، لا ترغب انجلترا في ان تكون هناك دولة عربية مستقلة، ولتحقيق هذا الهدف فهي على استعداد لابادة كل مسلمي اليمن .

نريد ان يعلم كل العالم المتمدن هذا، ان بريطانيا ارسلت طائراتها الى اليمن بدون مبرر او انذار في الفترة الاخيرة، وقد قصفت هذه الطائرات، البيضاء، الحجرية، الضالع، قعطبة، دمروا القرى والمساكن، حيث كانت النساء والاطفال مجبرة على العيش في الصحراء بدون مأوى، ومثل ذلك قصف الطائرات المساكن حيث يعيش النساء والاطفال في تعز وبريم وذمار ودمت وجبله، كل هذا قام به الانجليز المتحضرون ! وسيفهم العالم كله وحشية الانجليز تجاهنا .

هذا هو النزاع بيننا وبين الانجليز، وليعلم كل العالم الاسلامي، بان انجلترا تريد ان تخضع لسلطتها كل شعوب الارض وان لا يرفض هذا حتى ولا شعب واحد .

سننتظر حكم القدر، ولن نعطي لا حد ولو شبرا واحدا من ارضنا .

لم تبقى هذه الاشارة دون نتيجة، حقيقة ان صوت اليمن لم يصل الى اوربا، او بالاصح وصل متأخراً عندما فقدت الاحداث حدتها، لكن صدى قنابل الطائرات دوى عاليا في البلدان العربية المجاورة فقد اعادت الصحف القاهرية طبع مقتطفات من المقالة ، وربما وصلت الى

الهند ، وادت نصيبها في الموجة المتعززة المعادية للامبريالية من قبل شعوب نهر النيل ونهر الكنغ ، وخفقت حدة النزاع، وبعد شهرين أو ثلاثة اشهر انتهى ظاهريا، واخلا اليمنيون قسما من المناطق المتنازع عليها، وبأت المباحثات الطويلة البطيئة، كانت المباحثات تحت وساطة الامريكيين في البداية، ثم ظهرت " كل الوجوه المعروفة " على الحلبة : كرفورد، جيكوب، وغيرها من "المتخصصين" باليمن، كانت المباحثات تتوقف، ثم تتجدد، لكنه حتى كتابة هذه السطور، فان المباحثات الانجليزية – اليمنية، وكأنها لم تكن، ان كل حيل المبعوثين الانجليز من عدن، وكل ذهبهم وتهديداتهم قد اصطدمت دائما بدرع لا يخترق من الوطنية اليمنية الناضجة ، واصبح تركيب هذا الشعب ليس بطاقة الانجليز ذلك، عفوا يأتي الى الذهن قول قديم وهو غالباً ما يجد الانجليز في الشرق خونة ، لكنهم لا يجدون اصدقاء .

اتذكر ان الموظفين المتوسطين العسكريين تباهي قائلا .

النذور والرشوات

– عرض علي جيكوب ذات عشر مرة قطع ذهبية، لكي أكون عميلا له، اخذتها، امر واضح، وبعد بضعة اشهر تقابلنا، ولم اقل له شيئا، بينما كان يجلجل بالقطع الذهبية بشدة، وكأنما يذكرني بالاتفاق ... دعه يجلجل بذهبه .

لقد اشرنا الى ان المشايخ الذين قدم لهم الذهب الانجليزي لم يرفضوه، لقد استلموه كاملا، لكنهم لم يقوموا بالانتفاضة ضد الامام، بل على العكس، فقد تقاسموا الذهب معه، ان القول القديم المأثور، القائل بان الحمار المحمل كيسا من الذهب بمقدوره تخطي اى حائط، لم يبرر نفسه، فالحيطان الطينية القديمة بصنعاء، ظلت عصية ليس على الحمار فقط، بل وعلى الطائرات الانجليزية ايضا .

نضيف الى ذلك ثلاث مسحات او ثلاثة منها جزءان من تلك الفترة، وجزء من الفترة اللاحقة.

مازال الدخان يتصاعد من انقاض البيوت في تعز وذمار، لكن الانجليز فهموا اخطاء تقديرهم، فبدأوا بتسوية التربة للمباحثات .

ارسل كرفور الى القاضي راغب من عدن رسالة مع هدية، مصباح كهربائي يدوي، هذا شيء كثير الفائدة في الليالي المظلمة، حيث لا يرى احد من مسافة خطوتين من الجدار، وهذا

المصباح مفيد للبيت ايضا، ذلك البيت العربى المتعدد الطوابق، بغرفة الكثيرة، واركانه، كانت الهدية مفيدة، لكن القاضى راغب فهمها بشكل مغاير .

- يريد كرفور ان يقول بهذه الهدية : انكم اليمنيون، اناس جهلة، نحن الانجليز نريد تنويركم ... فكرّ قليلا ثم اضاف :

- او ربما، يلمح الى ان هذا المصباح سيكون نافعا لنا، حين نختبىء فى الاقبية، نطلب النجاة من القنابل الانجليزية .

ولم يكن غريبا، ان يرفض القاضى راغب الاحتفاظ بهذه الهدية التى اثارت كل هذه المشاعر الغاضبة، وان يهديها الى احد خدامين القصر .

ولم يكن من المستبعد، فى ان كرفور قد بعث بالمصباح دون معنى خفى، غير ان ارتياب اليمنى وشكه يجعلاه يكون مستعدا فى كل خطوة وفى كل اشارة من الاجنبى، وان يرى فيها ان لم تكن مكيدة مباشرة، فانها اساءة او تلميح خفى .

ونيل الثقة فى الشرق ليس سهلا، لقد تنازل جيكوب الشائب كثيرا، لكن مذاق التصنعّ تحدث عن نفسه، فرحل حاملا كنية " الكلب الأبيض " ومع ذلك لم يكتئب، تظاهر وكأنه يعتبر البصاق مطرا، وبعد ان رحل من اليمن وبعد الغارات نشر فى احدى الصحف الانجليزية مقالات تدين عمل الموظفين الانجليز بعدن ؟ الذين كانوا يتحركون متكلين على انفسهم دون معرفة لندن، ظهرت هذه المعارضة المصطنعة بموافقة كاملة من السلطات الاستعمارية وهيئة المخابرات من دون شك، انهم يسمحون لعملائهم بكل المناورات، ويستطيع الاخيرون فقط ان يكتسبوا سمعة لانفسهم بانهم " كاصدقاء " تلك الشعوب، والحكومات التى ينبغى ان يخدعوها .

ليس من باب القول الزائد الاشارة هنا الى عدم الثقة الفريدة تلك التى يقابل بها الاجانب فى بلدان الشرق عامة، فتجارب السنين الطويلة المرة قد علمت الناس فى الشرق ان يرتابوا مسبقا بكل اجنبى يفد اليهم، وانه يحمل نوايا مغرضة تجاه بلدهم، وعدم الثقة هذه لاتزول، بل تزداد وكانها كتلة ثلج، وذلك اذا بدأ الاجنبى يؤكد على نزاهته على الفور توا، تتحول عدم الثقة الى عداء حاد، ما ان يكاد هذا الشخص الذى أكد نزاهته، فى هذه او تلك من المطامع تجاه مقدرات البلاد المادية. وكما يقول المثل التركى، ان الشرق الذى احترق باللبن الحار يبدأ النفخ على الثريد، يعتبرون كل أجنبى مقدما، شبيها بالنصاب .

ومن اجل تصوير اساليب النفاق، التي تعطي نتائجاً عكسية ، يمكن ايراد هذه الحادثة، وصل الى صنعاء (قبل عام من مجيئنا) امريكي بارز باسم من الحجم العالي، يحترق من الرغبة في كسب الشهرة وحيازة ثقة الامام، اقدم على الاسلوب التالي، يصرح بعد وصوله الى صنعاء بانه يجب ابلاغ احد الوجهاء اليمنيين بسر عظيم، يدعوه الى غرفته، ويغلق النوافذ والابواب بأحكام، كانه يؤكد من انهم لا يتصنتون، ثم يخرج القرآن من احد جيوبه الداخلية بمهابة ويهمس خافت يتفوه قائلا ·

هذا الكتاب احمله دائما معي، فانا مسلم في داخلي، لكن لا احد يشك في ذلك، لكم وحدكم ابوح بهذا السر ...

لايتحتم القول، بان هذا الاسلوب قد اثار شعور التقزز والاحتكار للامريكي هذا، بل وفاحت حوله رائحة الزيف مباشرة، ولانه لم يدرك ذلك بعد، اقدم على خطوة جديدة، صرح في الاستقبال الرسمي امام الامام :

يا صاحب الجلالة، انني اقدم لكل حكام الشرق نصيحة واحدة، يشكرونني عليها فيما بعد، اسمحوا لي ان اقدمها لكم ايضا ...

وبعد ان يتلقى السماح، يقول بتأثر وغموض ورزانة :

يا صاحب الجلالة، لاتثقوا ابداً بالأجانب، لا تعطونهم اية التزامات وامتيازات في بلدكم ...الحيرة غير الواثقة، التي استقبلت بها هذه " النصيحة " تحولت لدى الامام والمقربين منه الى شعور بالاحتقار البالغ وذلك عندما تقدم هذا الامريكي بنفسه بعد بضعة ايام الى الحكومة اليمنية بطلب امتياز مربح لاستغلال مناجم الفحم الحجري، ومنذ ذلك الوقت لا يتذكرونه الا ببسمة احتقار ساخرة .

إنهيار الحسابات الإنجليزية والصفعة الأمريكية

غير اننا لن نخرج عن الموضوع، سنستخلص، نتائج النزاع، الذي كنا شهود عيان عليه، ينبغي ان نثبت ما يلي : في هذا الجزء الصغير لكنه الهام في الجبهة الاستعمارية، منيت انجلترا بالافلاس، ذلك ان حساباتها الرئيسية – قهر اليمن وتركيعه – قد منيت بالفشل، لقد خرج اليمنيون من النزاع معمدا سياسيا، صلبا ومليئاً بالحقد على الامبريالية، واستسلم اتباع

الانجليز أو محققوا، وبالنتيجة تعزز الوضع الداخلي للحكومة، وتعادل هذه المنجزات بضع تلك الامارات التي اخلاها اليمنيون تحت ضغط قوات العدو المسلحة، وأن يتخلى اليمنيون عن حقوقهم ولا حتى الحقوق الشكلية عن عدن، التي تصادف الذكرى المئوية لا حتلالها من قبل الانجليز بضعة ايام (*) .

لم يتأتى تمزيق عقدة القضية اليمنية بواسطة السلاح من قبل الامبريالية، البريطانيين ولهذا تحتم على الاسد المتعجرف ان ينهى زئيره والتلويح بذيله من جديد على امل استدراج الجار الصغير العصى بهذه الطريقة او تلك.

لم يتأتى ذلك حتى الان، لكن الميزة ان هذه النهاية المخزية لهذا الصراع بالنسبة لا نجلترا قد ابرز الخلاف بين انجلترا والولايات المتحدة حتى في هذه البقعة النائية، اذ بعد ان وصل القنصل الامريكي لود بريرك من عدن مسرعا اخذ على عاتقه مهمة الوساطة في تسوية النزاع، وبعد ان مكث بعض الوقت في صنعاء، " يدرس القضية في موقعها " كما يقال، غادرها واعدا اليمنيين باتخاذ كل الأجراءات لمنع الغارات اللاحقة، وليس معروفا،ما عمل في هذه الاتجاه، لكن المعروف فقط، انه بعد وصوله الى الحديدة في طريق العودة ارسل برقية الى حكومته في واشنطن، ارسل هذه البرقية " برموز واضحة، وليس على نمط الشيفرة المشوشة للرسائل الدبلوماسية العادية " وقد بلغ حسب استنتاجه، بان اليمنين سلكوا سلوكا لا لوم فيه مطلقا من وجهة نظر القانون الدولي، وان الغارات الانجليزية لم تكن تستدعيها ضرورة موضوعية اطلاقا .

ولكي يؤكد ادانته للغارات وجه نسخة من هذه الرسائل الدبلوماسية الى حاكم عدن، الملهم المباشر لهذه الغارات .

وهكذا وجهت صفعة للامبريالية الانجليزية من العم الامريكي امام اعين اليمنيين، لم يتبع الجواب على هذه الصفعة، والمعروف فقط، انه منذ ذلك الحين هدأ الاسد البريطاني، ومن جديد يحاول بدون زمجرة او زئير استعادة المواقع المفقودة على طريق الهدير والهبات الرخيصة .

(*) – يرجع المؤلف احتلال عدن من قبل الانجليز الى عام ١٨٣٠ ولهذا فانه يشير الى الذكرى المئوية للاحتلال بعد بضعة ايام، حيث كتب هذا الكتاب في عام ١٩٣٠، بينما في الواقع كان احتلال الانجليز لعدن عام ١٨٣٩

لكن كان ذلك متأخرا ، فالقنابل التي رمى بها العدو وعشرات البيوت التي دمرت، قد مزقت اخر الاوهام التي كانت ما تزال تعشعش في اذهان الطبقات الحاكمة في اليمن، بالنسبة لخطط التعايش السلمي مع المردة الامبرياليين، الذين يحاولون وضع مخالبهم على الشعب الجبلي العصي .

الباب السادس عشر

* الأيام الأخيرة في صنعاء
* احجار على الطحلب ونساء حجرية
* اليهود
* رحلة خطرة .

الأيام الأخيرة فى صنعاء

انتهت الغارات، وانتهى انتظارها المتوتر، تنتعش البيوت التى فرغت شيئا فشيئا وتغلى حياة السوق، وتمتلىء الشوارع والازقة بالضجيج المعتاد والغوغاء .

وتنتهى مدة اقامتنا فى صنعاء،قبل سفرنا بمدة قصيرة، ينقلونا الى منزل اكثر ثراء، كدليل على الاهتمام الخاص، حديقة واسعة مزهرة، حوض مع النافورة، امام البيت مباشرة، تسمع رنات البئر الايقاعية امام النوافذ، خطوات الجمل الرالرتيبه، وصخب الماء السائل المنتظم، الذى يتدفق بانتظام عبر القنوات، التى تملأ الحوض وزوايا الاشجار .

غير انه لايوجد وقت لدى الامام لا ستنشاق اريج الازهار والتطلع الى ظلال الشمس فى مرآة الحوض والارتياح تحت اوراق الشجر الظليلة، يأتى لزيارتنا تجار عرب، ويهود، وفرس يحملون رسائل توصيات من شخصيات ذات نفوذ، موضوع الاحاديث السكر، الكروسين، الدقيق، الاقمشة، البن اليمنى، حازت بضائعنا على رضى المستهلك اليمنى، وذلك لانها النقيض المباشر للبضائع الرديئة المعتادة، التى يصرفها الامبرياليون فى اسواق المستعمرات، وكانت الشكوى الوحيدة فقط هى قلة البضائع، وكان المفترض ان تكون البضائع اكثر بكثير، وإتدخل بواخر سوفيتية اكثر الى موانىء اليمن، كان الامبرياليون ومايزالون يلغون عمدا، وبخسارة فى الغالب الصفقات قرب الموانىء اليمنية بهدف الحاق مصاعب اقتصادية اكبر لهذا الشعب الابى.

نعلم انه من المستبعد تلبية كل توقعات وتقديرات اليمنيين، كما نعلم ان بواخرنا قليلة، وان هناك نقص فى البضائع، وما نزال لا نعرف الى اى ستزيد بضاعتنا، نحن لم نتكيف بعد مع فكرة انه بينما نحن نقوم بالمباحثات فى صنعاء البعيدة،فان وراء جدران الكرملين والمكاتب المتعددة الطوابق للمجلس الاقتصادى الوطنى وهيئة التخطيط الحكومية تنشأ وتصاغ قوالب الخطة الخمسية، التى تستقدم بالكامل جميع ما هو ضرورى لتلبية احتياجات هذا البلد الصغير فقط، بل لم نعلم بعد، بانه فى احواض سفن سفستوبل، نيكاريفسك والبطليق تجهز هياكل عشرات السفن الجديدة، التى ستمخر قريبا كل البحار والمحيطات

لم نعرف بانه قد حددت الخطط الجبارة لجعل الزراعة تعاونية، وهذا سيغطى احتياجاتنا من القمح ونقله الى هذا البلد، لم نعرف بعد ان الخطة الخمسية، التى يشك اليمين الانتهازى بضراوة بامكانية تحقيقها، وتنفيذها فى بحر خمسة اعوام، بل وفى اربعة، وفى مجموعة من

القطاعات، التي يعتمد على تمويلها هذا البلد (الكروسين) في ثلاثة اعوام، وفي عامين ونصف، وما يزال يرن في الآذان نعيق الاعداء الخبيث ودمدمة قليلي الثقة " الى اين تزحفون، ابقوا في البيت " ، " عسى ان لايحصل شيء " ...

اما الان ، وبعد ان انتظرت هذه السطور دورها في المطبعة لتخرج الى النور، مرّت اعوام، فقد اثبتت بالكامل اكثر التقديرات جرأة وتحطمت كل الشكوك اللجوجة، فقد ارسلت البضائع الى اليمن (وليس الى اليمن فقط) وتضاعف سيلها كل عام، تقوم البواخر السوفيتية برحلات منتظمة عبر البحر الاحمر والمحيط الهندي حتى الى اقصى زوايا الخليج الفارسي، وحتى مشارف انهار الرافدين العظيمة ... لكننا حين كنا معزولين عن الارض السوفيتية، شعرنا اكثر من مرة بشعور القلق المرعب -- هل نستطيع تلبية التوقعات المتواضعة لهذا البلد، الذي رأى لاول مرة في اشخاصنا قطعة صغيرة من الاتحاد السوفيتي .

وعلى كل حال، نستطيع التحدث عن هذا " البلد " نسبيا فقط، كان الاقتراب من الشعب صعبا، فمنزلنا، شأنه شأن منازل كل الاجانب في اليمن، يحرس بيقظة من قبل حراس مناوبين، ويتعرض كل قادم لتحر " دقيق، وتجرى النزهات في المدينة بمرافقة الخدم ايضا، الذين بدونهم يمكن ان يتهددنا سوء من قبل المتعصبين، او هكذا افهمونا على اقل تقدير، ولايسمح بدخول منزلنا، ما عدا الوجهاء الا " الخدم الامام "، والتجار الذين بايديهم توصيات من السلطات للمباحثات في الصفقات التجارية، او لبعض التجار (من اليهود في الغالب) الذين يحملون لنا الحلى المحلية، التي تشتريها من صنعاء للذكرى .

احجار على الطحلب ونساء حجرية

ومن بين سقط المتاع المتعدد، الذي يتسابق عليه الاجانب الذين يزورون اليمن لاقتنائه يأتي في المقام الاول -- كل انواع الاحجار الملونة، التي من المفترض انها ترمز الى الثروات الموجودة في باطن ارض اليمن، وان كانت في حقيقة الامر ليست سوى قطع مضلعة لا معة، ذات الوان بنية داكنة، برتقالية، وزرقاء فاتحة، كما يوجد بينها الوان فاتحة مبهمة، واحجار شفافة يرتسم تحت سطحها اللامع شيء ما يشبه اغصان الطحلب، وكانما هذه القطعة الطحلبية تمت عضويا في سطح الحجر اللامع، الذي صقلته يد حجرية، تبدو لي هذه الاحجار رمزا لليمن، البلد الذي صقلته موجات الاعصار العالمي، والقذائف الانجليزية، محتفظا مع ذلك ببقايا واضحة من القديم المتجذر بقوة .

هناك ايضا شيء اخر، التماثيل الحجرية القديمة، هي تماثيل تصور ما يشبه تماثيل النساء الحجرية المتناثرة في جنوب الاتحاد السوفيتي، ينتصب احد تلك التماثيل حتى الان على طاولتين، يحملق بثبات الى بعيد بعيون وحشية بائسة، هذا التمثال النسائي منحوت من قطعة حجرية واحدة بلون البشرة مبقعة بعروق مائلة للأحمرار، وهذه المرأة جالسة القرفصاء تضغط بقبضتها وازمة شفتيها، تبرز حدبتان صغيرتان بدلا من النهدين في الاسفل على دعامة الملتحمة بالتمثال، وكتابة مبهمة منقوشة، شيئا ما يشبه حرفي " X " و " Q " بالروسية، بالاضافة الى الشكلين او ثلاثة اشكال هندسية غير متناسقة، ان هذه التماثيل تصور الآلهة الحميرية القديمة، صنعت قبل آلاف السنين، انها بقايا التاريخ القديم، التي سلمت في كهوف صعبة الوصول اليها حتى على اليمنيين من مأرب، حيث تصل من هناك الى صنعاء لأعادة بيعها على التجارالواصلين من الخارج، لا اعلم هل تمثالي هذا أصيل ام لا، اذ من المعروف ان تقليد او تصنيع الآثار القديمة المزيفة مثل التماثيل، النقود الأواني، الادوات التي يزعم انها من بقايا الحمريين القدماء، قد شغلت مكانا قويا في عدد من المجالات المربحه في اليمن، تؤكد الا لسنة الخبيثة ان مئات الحرفيين من يهود صنعاء يعيشون على الدخل من تصنيع مثل هذه الاشياء المزيفة

غير ان التمثال الذي امتلكه، حتى ولو كان مزيفاً، فانه يعطي تصورا عن الاصل بدون شك، وينبه الى انه قد كان في الأماكن الصعبة المنال في اليمن، ويختفي حتى على العلماء الاوروبيين الكثير من المادة التاريخية الاصيلة التي لم تكتشف بعد، والتي بامكانها القاء الضوء الساطع على العصر الضارب في القدم .

اليهود

وبالمناسبة وما يتعلق باليهود في صنعاء فقد وجدنا انفسنا حرفياً عند منابع معاداة السامية، نقول عند المنابع، لان العلاقات بين السكان اليهود والمسلمين قد احتفظت بالملامح القديمة للعهد القديم، هذه العلاقات التي لم تمر على ضوء الفوارق القومية او الفتوحات او الاخضاع او تحطيم الانماط الاقتصادية، فيهود وعرب صنعاء هما فئتان من شعب واحد، يتحدثون لغة عربية واحدة اكثر قرب من لغة القرآن الفصحية، يتشابهون بالشكل الخارجي، يختلف اليهودي اليمني كثيرا عن مثيله الاوربي، فهو مثل العربي بنفس الملامح، ملامحة حادة مستقيمة، جبهة واسعة مثل العربي، ولا يوجد اثر لتلك العلامات، كالأنف المقوس،

تفاحة آدم البارزة، التي من المعتاد تصوير هيئته بها في اوروبا، ولو خلعت الثياب من العربي المسلم واليهودي لشوهد اناس من عرق واحد بشكل مطلق، لا يختلف بعضهم عن بعض في شيء، وصولا الى اقل اجزاء الجسم صغرا، خصلة من الشعر الاجعد على الصدغ فقط تمتد حتى الكفين، او ربما نظرةالجزع العميقة، تعطي امكانية اختلاف اليهودي عن العربي وما عدا ذلك فلا وجود للفارق بينهما .

كل اليمنيين الذين تمكنا من التحدث معهم يؤكدون بان اليهود والعرب هم شعب ليس من الجنس السامي الواحد فقط، وانما يمثلون قومية واحدة متكاملة عموما، وانه لا يوجد اي فرق بينهما، ان آخذ على عاتقي تأكيد هذا الراي كاملا، لكني اعرف انه اسهل بكثير، تميز الكوري عن الياباني، من تميز اليهودي الصنعاني عن المسلم، خصلة الشعر والثياب فقط هما بالذات يوضحان هذا الفرق

لا يحمل اليهودي خنجرا، فهذا محرم عليه، ولا توجد عمامة على رأسه، وانما قبعة صغيرة مشدودة على غرار تلك التي يلبسها الاوزبيك عندنا، يلبس اليهودي ثيابا بيضاء وعباءة غامقة من الاعلى، ويسرن النساء بوجوه مكشوفة، وعلى الراس خمار بحواش بيضاء فضية مزركشة بالدنتيلا والمعينات، هذا اللباس بعيد الشبه عن رداء النساء المسلمات الواسع، والذي يغطي هيكل المرأة من الراس حتى القدم ويغطي الوجه باحكام، ويحجب شكلها، اما الفتحتان في مكان العينين فتعطي المرأة العربية هيئة غول يجري من الاساطير القديمة .

وقد يسأل المرء البسيط . لماذا تلفظ كلمة " يهودي " من فم المسلم بذلك الاحتقار ؟ لماذا يعيش اليهود في حي قاع اليهود الخاص الموجود على مشارف المدينة ؟ ولماذا لايملكون الحق في حمل السلاح ، الاشتغال في الزراعة ، والعمل في الوظائف الحكومية ويحرمون من كل الحقوق السياسية ؟، " نكرر " ان اليهود هنا في صنعاء وكذلك في بقية المدن لا يختلفون عن العرب لا باللغة ، ولا بالقومية، وتوضيح كل شيء بناءا على الفوراق القومية، كما يفصل المعادون للسامية في اوروبا، امر مضحك هنا، ولا يلعب هنا ايضا دور " صلب المسيح " المزعومة، ذلك لان المسلمين لايكترثون بهذه الحكاية اطلاقاً في افضل الحالات، اما ما يتعلق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فانه لا ينبغي غض النظر عن النزاعات الضارية بين المسلمين واليهود في عهد دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لقد وجه الرسول جل نشاطه التحريضي ضد الوثنيين بالدرجة الاولى، ثم ضد اليهود بالدرجة الثانية، وضد المسحيين بالدرجة الثالثة، وقد كان يقترب منهم احيانا، لكن ذلك كان تكتيكاً سياسيا، وعلى

العموم، اخذ الاسلام كاملا من يهودية العهد القديم (*) ومجوعة من الطقوس والعادات (الختان تحريم اكل الخنزير وغير ذلك)، التي توجد تعليلاتها جزئيا في الخصائص المناخية والمعيشية في شبه جزيرة العرب، يوجد الاختلاف حقا، بنوع المهنة ؟ فاليهود لا يمارسون الزراعة، واغلبهم حرفيون وتجار صغار، واكثرهم يسر الصيارفه، والمرابون والوسطاء بين الشركات الاجنبية والسوق الداخلية، قسم من هذه الاعمال (الصفقات المالية) يستنكفها المسلمون ولا ينصح بها اتباع الرسول (مثل الربا والعمليات المالية عموما) وتجعل علاقات اليهود مع الشركات الاجنبية في صلات متناقضة مع زملائهم العرب الذين ابعدوا عن السوق الخارجي، وهذا يثير حسد الآخرين، كما تعتبر تجارة بعض البضائع (الخضار مثلا) عملا مهنياً، ليس لليهود فقط ، بل وحتى من يمارسها من المسلمين حيث ينتمي تجار هذه الطائفة من البضائع الى السكان المحرومين من الحقوق (مثل الجزارين والدباغين وغيرهم)، وهنا اتذكر مصادفة غريبة، يعتبر الاشتغال بالقطاعات المرتبطة بذبح الماشية (الجزاره الدباغة، وما شابه ذلك) حتى في اليابان البعيدة من نصيب طائفة سوى خيه سيا، التي محرمة من الحقوق الى وقت قريب ومحتقرة حتى الان، تخلق تجارة الخضار تناقضا بين اصحاب الحوانيت اليهود وبين الفلاحين، ويصطدم التجار الاغنياء اليهود الذين يقومون بالعمليات المالية والتجارية بالاقطاعيين المسلمين، ويصحب هذا الصدام التطاحنات المميزة بصدامات القرون الوسطى الغابرة وذلك حين يقع الفريسان الفقراء (والنبلاء) تحت التبعية المالية للصيارفة ومحتكري الخامات الزراعية اليهود، كما يمكن ان يوجد سبب التعليل المشهور للتناحر، الذي يكنه الاقطاعيون والتجار المسلمون لليهود، حين يرون قسما من الارباح يذهب الى ايدي الوسطاء اليهود، غير ان التوقف عند هذا التعليل امر غير صحيح. فمن الواضح ان السكان اليهود يتعاملون بهذه الاشغال " المحتقرة " المشار اليها (والتي لا يستنكفها المسلمون في الفرصة الملائمة) وهذا يحدث بفعل الطرق التي تؤدي الى القيام بالاعمال الاخرى الزراعة، (الرعي، الخدمة العسكرية والحكومية) محجوزة ولا نصيب فيها للسكان اليهود، وبالتالي فان التناقض الاقتصــادي الذي ينشأ بين الفئات المعروفة من اليهود والمسلمين، ليس سببا، وانما هـو

(*) – تكاد تكون وجهة النظر هذه سائدة في الاستشراق الاوروبي، بينما الواقع بخلاف ذلك، اذ ان الاسلام لم يؤخذ من يهودية العهد القديم وانما اتي كديانة جديدة، علي ان بعض التشابه في بعض المناسك الدينية او الروايات التاريخية التي وردت في الكتب المقدسة لا تعني الاخذ بالكامل باي ديانة سابقة . – (المترجمان) .

بالاحرى نتيجة لهضم الحقوق السياسية والمعيشية لليهود .

لا داعي للاسهاب، بان الطبقات الحاكمة تؤجج التناحرات بين السكان المسلمين واليهود، وتتبع بعمد سياسة اضطهاد اليهود، موجهة بذلك حقد الجماهير الشعبية باتجاه اتباع الديانة اليهودية، وهذا لا يمنع بالطبع الوجهاء العرب ، من اقامة علاقات حميمة في الخفاء مع الاثرياء والمرابين اليهود، وان يلجأون لهم " للمساندة " في اللحظة الحرجة .

واذا تحدثنا عن وضع الفئة العليا من اليهود عموما، فان التحسر والتأسف على نصيبها، الذي يقوله ويفعله نقافا الصهاينة لا حاجة له، حيث لا يتعرض التجار اليهود والمسلمون لا بتزازات كثيرة في الاموال، وان كان اليهود يضطروا لا عطاء رشوات اكثر للشرطة والموظفين، اذا قارناهم بالتجار المسلمين، لكن الفرق هذا ليس كبير الى ذلك الحد: لقد اعفى اليهود من العشر ومن الخدمة العسكرية، اما الحقوق السياسية في اليمن ذات الحكم المطلق فهي عموما امر قليل الاهمية، حتى العرب، فان المشايخ وكبار التجار فقط هم الذين يستخدمون هذه الحقوق عمليا، ولهذا فان ثقل عدم المساواة السياسية والمعيشية على الاخص تقع بالكامل على عاتق فقراء اليهود وجموع صغار التجار والحرفيين الذي شدد الضغط عليهم كاملا بين قبضتي العسف الاداري – البوليس في ظل العداء بين السكان، الذي يثار اصطناعيا .

متى، وفي عصر ولماذا طردت فئة كاملة من السكان من قومية واحدة تقريبا الى جيتو "مغلق " (حي اليهود) ، وتعرضت للهضم في الحقوق والاشتغال بمجالات العمل، التي تعتبر اكثرها مهانة ؟ تتطلب الاجابة على هذا السؤال اعواما من البحث التاريخي الدقيق .

لكنك اذا تجولت بين جدران بيوت حي اليهود البيضاء الناصعة، وتطلعت الى البيوت بأفنيتها المرصوفة، وخرجت الى الشرفات البيضاء المجمدة بالبلاب الشجري، ترى وكأن عصر الانجيل قد انتعش، تاخذك الرغبة في نسيان تلك الموجة من التناحر الوحشي، الذي بحكم منطق الاضطهاد الطبقي يسم حياة عشرات الآلاف من الناس .

تبدأ ترتسم صورة، الماضي البعيد قبل اكثر من الف سنة، الحركة المحتشدة الجبارة، التي شملت كل البلدان العربية والمجاورة تحت راية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، لقد اثارت حدة الصراع الطبقي وادت الى تطورات اقتصادية جذرية، والى تغير شامل للتركيب الاجتماعي لتلك الشعوب، لن نخرج عن الموضوع، نتعمق في تحليل القوى الاجتماعية لهذه الحركة، بيد انه من الصعب الابتعاد عن الانطباع بانه نتيجة لانتصار فئات معينة على اخرى، اصبح المغلوبون في اسفل السلم الاجتماعي، فلم يحصلوا على نصيب في حقوقهم السياسية

التي هضمت، وحرموا من الوصول الى صف المجالات الاقتصادية، ونتج عن ذلك حرمانهم من نوع خاص لذلك العصر،فنبتوا في احياء خاصة وتحجروا في حياة قديمة .

ومضت الاعوام والقرون في سبيلها، زالت انماط اجتماعية، وتغيرت العلاقات، والطبقات التي لعبت دورا تقدميا بدأت تنتكس تاركة المكان لطبقات اخرى، والدين الاسلامي الذي كان راية للتجارة في البداية وللبرجوازية البدائية والاثرياء من البدو، الذين اندفعوا الى البحر الى الاسواق الخارجية والفتوحات، صار سلاحا بيد طغمة من الاقطاعيين الصغار، الملوك العرب،ومن ثم السلاطين الاتراك، وبفقدت قوة الاسلام التحريضية، واخرج العرب من اسبانيا وفارس وتركيا، واندحر الاتراك فيما بعد من فينا واوروبا، وحسم مصير الطبقات التي اعلنت الاسلام واعتلت موجته ليس في صحاري الحجاز ولا في جبال اليمن فقط، بل وعلى نهر الدنواب وجفاد لكفير، وبقيت جزيرة العرب التي اعطت الدفعة لهذا الزلزال العظيم جانبا، وبقيت اليمن بعيدة كل البعد، اكثر المناطق عزلة في شبة جزيرة العرب، حتى الموجات الاولى للحركة الاسلامية وصلت الى هنا على شكل رشاش متناقض متلاشي، توقف اليمن بدون حراك بعد اولى تطورات العهد الاسلامي المبكر .

وفي العاصمة الجبلية المغلقة، كما في الكهوف الوهمية لا طلنطيدا، بقت سلالة تلك الطبقات التي خسرت في الماضي البعيد المعركة على السلطة، وظلت معزولة، معزولة السلاح تحت رحمة المنتصرين الجبابرة في غابر الزمان، الذين انهكوا وافقروا الان .

لقد حكمت عزلة القرون عن العالم المحيط على المغلوبين بدائرة من المهن شديدة الضيق، واعطتهم مجموعة من الخصائص المعيشية الخاصة، فتكونت تلك الجافة، التي تستطيع انهائها بالكامل شعلة الثورة الاشتراكية فقط، والتي ستحول كل التناقضات الزهيدة الى رماد، تلك التناقضات المتراكمة، التي ستذهب بجذورها في اعماق آلاف السنين.

وفي مثل كل صراع عظيم يترافق معه، تشتت الشعوب المغلوبة والقبائل ، والطبقات والفئات في جميع انحاء العالم، تشتت على وجه الارض بقايا القبائل السامية المهزومة في هذا الصراع وفي معارك قديمة اكثر، من اسبانيا وحتى الصين، وبقت فقط اعشاش صغيرة في " فلسطين واليمن لم تستطع الابتعاد عن المنتصرين، وحتى الان يجب عليهم اختراق طوق حرمان الحقوق ، يستخدمون في ذلك العلاقات الواسعة مع يهود البلدان الاخرى، الذين احتفظوا بنمط سلوكهم الديني والمعيشي كامتياز وحيد، كما احتفظوا بالشعور الديني والوحدة في ظل اكثر اغتراب في شعوب ليست اقل عداءهم واذا كانت قد انمحت السمات القومية والدينية (رغم

انها بعيدة عن الانتهاء) في بوتقة الرأسماليه، تاركة محلها للتناحر الضاري بين طبقات جديدة لم يعرفها الماضي، فانها هنا في ظل نفسية العصور القديمة الثابتة المتجمدة، قد حافظت على التناحر القديم، الذي بقي بشكله البدائي، عاكسا للتناقضات الاجتماعية القديمة – المدهشة بعبثيتها المرعبة تحت ضوء الشموس التاريخية الجديدة.

علينا ان نشير الى ان هذا ليس تحليلا عمليا، ربما يجد علماء التاريخ والاتنوجرافيا جملة من الاعتراضات والتصحيحات لكل ما قلناه اعلاه، لن اجادل واعترف مسبقا بكل الاخطاء والهفوات، لكن هكذا كانت الحالة التي تولدت عند رؤية فئتين متشابهتين اطلاقا والتي وضعت قوة الشذوذ التاريخي بينهم حاجزا صارما يصعب تجاوزه.

اما استنتاجنا العملي فقد كان بالشكل التالي : اذا اردتم تجنب مكروه غير لازم، فلا تكثروا من زيارة حي اليهود، نعرف ان سمعة جيكوب قد ساءت كثيرا في اعين اليمنيين، نتيجة لسوء استغلاله للنزهات في قاع اليهود، الى درجة انه اثار الارتياب فيما يتعلق باصله، وبالاضافة الى ذلك، فان اسم جيكوب، اي يعقوب، لم يكن بعيدا من تلك الكنية التي نالها هنا "كلب يهودي" . والتي اسرع المحرضون الذين لا يكلون والخالون من المسؤولية ممثلة باشخاص صبية صنعاء يطلقونها على المبعوث البريطاني .

رحلة خطرة

لقد شعر احد رفاقنا الذي ينتمي الى الديانة اليهودية بالسوء في نفسه، شأنه شأن خمسة آلاف من افراد ديانته المضطهدين في صنعاء، لا تحرر الاستعمارات في اليمن، ولم يكن يطمح بالطبع الاعلان عن انتمائه اليهودي، لكنه بدلا من ذلك تحتم عليه الانصات بصبر (وكان اكمالا للمصيبة يفهم ويتكلم اللغة العربية)، وكان محدثوه العرب، لا يرون سببا للتحفظ امامه، ولو لم يكن العرب انفسهم ساميين لقلنا " عن نفسيتهم المعادية للسامية " وقد كان المشهد التالي طريفا على وجه الخصوص : بينما كان رفيقنا ممتطيا بغلا الى الحديدة، وظل البغل يصرخ بدون توقف يطلق على البغل المنهك عبارة " يهودي ابن يهودي " وهي بالاضافة الى النبرات وتعابير الوجه، التي تبدو واكثر حدة بكثير، ورغم ان هذه العبارة كانت موجهة الى البغل بالكامل، الا ان رفيقنا وبعد ساعات من الطريق لم يستطع ان يصبر، فحاول الايحاء للسائق بان يقول صيغة اخرى ومن اجل ان يفرغ ما بقلبه التفريغ عن مشاعره، سأل السائق .

لماذا تسمي البغل طوال الوقت يهوديا سميه مسيحيا حتى ولو مرة واحدة ...

- لا استطيع، -اجاب السائق بشهامة - فانى سأسيء اليك انت المسيحى .

وبحكم هذه المعاملة اللطيفة الاقل مناسبة، وجب على رفيقنا الاستماع الى الشتم الذى لا ينتهى المعادى لليهودية، الموجه الى البغل البارد المزاج خلال ثلاثة ايام بلياليها فى الطريق.

ولكي يكون المرء عادلا، تجب الاشارة الى ان السلطات اليمنية، لم تظهر خلال الاحاديث معنا والعلاقة بنا اى شيء معادى لليهود، وقد حظى رفيقنا الذى ينتمى لليهودية بعلاقات لطيفة وحذرة من قبل الشخصيات الرسمية، مثلة مثل الآخرين، كما تجب الاشارة الى انه كان امام السلطات معروفا بانتمائه اليهودى تجنبا لسوء الفهم والاستفزاز لم نجعل من قضية ديانته سراكما كان الحال لكل واحد منا، ولم نتأسف ولو حتى مرة واحدة على مثل هذه الصراحة.

دفع الدين جميل، لقد حذرنا اصدقائنا الرسميون (املك اساسا للقول بانهم كانوا اصدقاء ليس بحكم الخدمة فقط) اكثر من مرة من تلك " الخطوات الخاطئة " من قبلنا، والتى يمكن ان تسيء لنا، وتغذى تحذير الرجعيين وملهميهم من الاجانب .

لم ينم الاخيرون، لقد تابعوا بيقظه كل خطوة من خطواتنا، يسعون لاستغلال كل صغيرة لاغراضهم، وقد بقت فى الذاكرة ...

فى ساعات ما قبل المساء، حين تنتعش الافنية الخالية جزئيا، والحدائق المجاورة للبيوت نرى فيها اشباح العائدين من العمل او الخدمة، كنا نحب التطلع ولو لوقت قصير بمساعدة عدسة المنظارحيث كنا نلاحظ فى الحدائق البعيدة، ايماءات رؤوس المواطنين المتاثرين باهتمام، لكن احيانا ...

ذات مرة وقبيل المساء اقبل القاضى راغب قلقا، وبحق الصداقة القديمة اخبرنا عن الخطر الذى يتهدد احد رفاقنا الذى تجاوز حدود هذه الشغله، اخبرنا بان احد الضباط القدماء غاضب لان عيون الاجنبى تتغلغل فى فناء داره، وتنظر الى نسائه واطفاله (والزوجات على الاخص)، وان غضب الله سينزل على رؤوس الكافرين، لقد ركض الى البيت لاخذ البندقية، بقصد اصابة عدسة المنظار الغادرة برصاصة صائبة مباشرة.

ومن حسن الحظ، انه بينما كان يركض من اجل البندقية ادرك رفيقنا لان ينهى " الاستعراض المسائى " وان نزل من السقف، امكن تلافى المأساة، لكننا نصحنا بان نكون حذرين فى المستقبل، وذلك ان العناصر المحافظة ترغب فى استغلال مثل هذه الحوادث لفتح معركة مع الحكومة واقناعها بضرورة طردنا من البلاد، لقد حتم علينا هذا ايقاف " الاستعراضات المسائية " .

الباب السابع عشر

* سيمفونية العاصمة "الابدية "
* وتائر العوالم الاخرى
* طريق العودة
* وحى صحيفة الحائط
* " رائحة الوطن " فى اسطنبول
* الفنار الاوديسى .

سيمفونية العاصمة " الابدية "

اعيش اخر الايام بصنعاء، تصلنا برقية من الحديدة تخبرنا بان " توبولسك " في طريق عودتها من البصرة، ينتظر ان تصل في الايام القليلة الى عدن، والطريق من عدن الى الحدية يوم وليلة فقط ، ويجب الاسراع ، لان تاخر السفينة غير ممكن .

نزور الامام زيارة الوداع ، يستقبلنا الامام هذه المرة في مخدعه الداخلي، المفروش على النمط العربي وليس النمط الاوربي، يحيط به عشرة - اثنا عشر من ابنائه الجالسين على الوسائد - ارتدى قميصا روسيا من الحرير الموشى، هذا ثوبي الوطني، لي الحق في لبسه

بديلا لبدلة الزيارات السخيفة التي لا تطاق في حر الصيف الاستوائي .

اخلع الحذاء امام مدخل المخدع ، اسلم عليهم، يجلسونني على الوسائد .

يتحدث الامام عن افضل مشاعره نحو البلد السوفيتي، كما يتحدث عن معرفة كل العالم الاسلامي للمهمة العظيمة للاتحاد السوفيتي، الذي اعطى الحرية عمليا للشعوب المضطهدة ايام القيصرية، كما انه يعرف كذلك المغزى الذي تقدمه الصداقة مع الاتحاد السوفيتي لتركيا، التي تناضل من أجل استقلالها، انشاء الله ستتحقق الغايات الوطنية لليمن ايضا .

لقد شعرت ان هذه الكلمات ليست كلماته فقط، لقد ادركت الشعور اثناء اقامتنا القصيرة في صنعاء انه اذا كانت الجماهير العريضة من الشعب اليمني الا القليل من التغيرات الاجتماعية التي حدثت في بلادنا، واذا كانت انباء الانكسار العظيم والبناء الاشتراكي قد وصلت الى الجماهير على شكل اصداء غامضة ونائية في افضل الحالات، فان سياسة الاتحاد السوفيتي تجاه الشرق ومساواة الشعوب السوفيتية في الحقوق، والدعم المعنوي للنضال الوطني التحرري لتركيا وافغانستان والصين - كل هذا قد تغلغل بقوة في اذهان جماهير واسعة، وتمنيات الامام الوداعية في هذه الحالة ، ولهذا فقد كان الوداع الاخير عزيز علينا - عزيزة علامات الاهتمام والعناية، التي رافقت رحلتنا تلك .

اليوم الأخير، احاول ان احفر في ذكرياتي السمفونية الاساسية غير المعقدة لحياة العاصمة " الابدية " تكررت هذه السمفونية يوما بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت الذي انتهى فيه خطر الغارات ، لم يعكر صفو وتائرها المنتظمةسوى الاستعراضات المهيبة للقوات والمرشات في أيام الجمع، انني اتذكر الحانها الرئيسية .

حين يختفي الصليب الجنوبي وراء اشباح الجبال، تبدأ النجوم تنطفيء، ويعلن صياح الديكة وراء المدينة قبل الجميع عن قدوم النهار، كما هي الحال في القرية الروسية، تدوي صرخة الحارس الطويلة من مركز الحراسة على جبل نقم، ينتفخ البوق العسكري معلنا عن الفجر، ومن على الشرفة الرقيقة لمنارة المسجد " المزركشة " بكل الالوان الممكنة للخطوط المستوية والمتكسرة المختلفة الالوان، يبدو شكل المؤذن مثل نقطة مسودة، وصوته يتهدج يعلن عن عظمة الله يدعو الناس الى الصلاة.

من المكواة ومن وراء الشبابيك ونوافذ البيوت تلاحظ الحركة، تتفتح الابواب، تظهر الاشباح المغبرة في الافنية، يبدأ الناعسون في ايقاد المواقد وغلي القهوة ، تسمع رغاء الجمال المموه في المظائر، ونهيق الحمير والبغال، وتنفتح بوابات الاحواش في اطراف المدينة تفتح الابواب السبعة للمدينة بمصارعيها الضخمة .

ما يزال الظلام على الارض، غير ان الشمس لم تبزغ من وراء الساتر الجبلي بعد، تضيء باشعتها قبة السماء، ومن على منحدرات الابار تبدو ملامح الجمال البغال والاثوار المنهكة، تجر الحبال ، ويتنامى صرير حرير القرب الدواره في صوتية شديدة تملأ المدينة بصريرلايهداء ، تفتح الحوانيت في السوق الذي يحتل نصف المدينة تقريبا، يظهر الباعه المتجولون وباعة الخضار والفواكه، وتخرج ارتال الحمير المستعجلة، والبغال الهادئة والجمال الواجمة بغباء من بوابات حظائر القوافل الكبيرة واماكن المبيت الصغير ، تتوجه الجموع الصاخبة من المسافرين من مختلف الاجناس الى بوابات المدينة، اينما توزع القوافل الى مختلف الجهات، الى البحر والى اعماق البلاد، يسوق الجزارون قطيع الماعز الى خارج اسوار المدينة، وعلى ساحة قريبة من باب اليمن (اكبر ابواب صنعاء) يبدأ الجزارون بالذبح ثم يسلخون الجثة المعلقة على حامل ذي ثلاثة قوائم، ويبدأ السوق بالغليان : تمتليء الحوانيت، المقاهي، الورش، المطاعم، الشوارع والازقة جميعها بسيل من البشر، عازفا في جوقة من الاصوات المتنافرة، في خوار وثغاء الحيوانات، تحت ضربات المطارق، وصرير المناشر والمثاقب في الورش الدخاخة، يصقل الحرفيون ويصنعون من الفضة مجامر النرجيلة، ويطلون اغماد الخناجر بقشرة ذهبية يزخرفونها ويشحذون نصالها، في أقبية رطبه مظلمة تحت مباني عالية، تدور الجمال المعصوبة العيون حول رحى معصرة الزيت من السمسم، ويلعب الفتيان على الاوتار القليلة للمنازل البسيطة في ورشات النسيج؛ يرتفع دخان مصنع السلاح الصغير وراء عرضي الجيش المعزول عن المدينة، يصل مدرب الطيران الالماني راكبا البغل الى المطار الواقع خارج المدينة، يراقب

المحرك ويبدأ بتوبيخ تلاميذه العرب على كسلهم وعدم الاهتمام وسرقة البنزين، هؤلاء التلاميذ لا يفهمون كلمة واحدة باللغة الالمانية، ومع ذلك يستمعون باهتمام يعيدون بتاثر " آخ " " زو " في ساحة الضاحية، وتظهر الكتائب العسكرية المارة، تجر اسلحة البطاريات، يتمخطر الفرسان على طول سور المدينة.

وبجانب قصر الامام، على ابواب منزل القاضي راغب، وقرب الدوائر الاخرى تظهر جماعات الزوار المساكين والقادمون من اقصى اطراف البلاد احيانا، تصخب الحياة غير عابئة بقرص الشمس الملتهب وموجات الغبار العكر.

تقبل الظهيرة وقت الغذاء – يخفف صخب المدينة شيئاً فشيئا، ساعة اخرى، ويأتي وقت القات وكان " اكلوك قات " (ساعات القات)، كما سماه احد الاجانب الخبثاء، تهمد التجارة في ساعات القات، وكل السكان الرجال من الصبي الى العجوز الهرم، من الفقراء الذين لا يملكون ولو قرش الى ابناء الامام وشيخ الاسلام يمضغون القات حتى يقعون في خدر سعيد، يبدو انه حتى ولو ظهر العدو في هذه الساعة تحت اسوار المدينة، فلما يصق حينها الحارس المناوب على البرج بالاوراق الخضراء.

وبعد ساعتين او ثلاث من " اكلوك قات " تبدأ المدينة تعيش حياتها كما كانت في الصباح، وان كانت بوتائر ضعيفة خافتة، تندفع في بوابات المدينة ارتال القوافل المحملة، التي تنقل بضائع ما وراء البحار من الموانيء ورزم الخامات النباتية، الصوف والجلود، تنقطع تمرينات الجنود في ساحة المدينة، وبعد ان يقوم الامام بنزهة خارج المدينة على عربة خيل فاخرة واسعة، يرافقة عشرون او ثلاثين فارس من حاشيته، ثم يعود الى القصر، يواصل الفلاحون في حقول الضواحي ذرى الدخن والذره، يفلحون الارض بمحرات يجره جمل، الاشغال الزراعية المختلفة لا تورع هنا طبقا للمواسم ، فالطقس المعتدل طول السنة تقريبا يمحي الفوراق بين مواسم الفلاحة والبذر والحصاد، تنحدر الشمس الى الغروب، ومن جديد يؤذن المؤذن من على المنارة المظلمة مشيرا الى انتهاء يوم العمل.

يتفرق الجميع الى منازلهم، يخيم الهدوء الذي لا يخرقه سوى نباح الكلاب البعيد، او الحان الفرق الموسيقية العسكرية المتنافرة، تفرغ الشوارع والأزقة، ولا يشق ظلمتها الفاغرة سوى ضوء مصباح يدوي نادر يتسرج به ماشي متأخر، تنطفيء الاضواء في البيوت، وراء جدار القصر الملكي فقط تلمع مصابيح محطة كهربائية صغيرة طوال اليل، تضيء القصر، ودار سك النقود، المطبعة ومقر التلجراف، ابواب المدينة السبعة كلها موصدة ولا يوجد سوى الحراس

الذين ينابون في الابراج يراقبون ملامح الطرق التي تكاد تلحظ بالكاد تلك الطرق المؤدية الى عدن المعادية، والى الحديدة الحارة، ومأرب الغامضة المرتابة عاصمة مملكة سبأ البعيدة المنال حتى الان، يشعر المرء تحت ستار الليل كيف تنمو وتتعزز القوة الجديدة، التي استيقظت من نوم الف سنة، تشق الطريق الواسع لوجودها الوطني المستقل، الذى يغلي بالعمل الخلاق والجماعي (مستقبلا)، يتهيأ للمرء كما لو ان الاسوار الطينيه المدينة والبيوت ذات النمط الموريتاني تنهار كانقاض تاريخية لا داعي لها، وكما لو انه تنفث مداخن المعامل دخانها في السهل خارج المدينة، وتندفع خامات ثروات البلاد المجهولة الان على خط سكك الحديد من كل الجهات، وعبريلعوم بوابات المصانع التي لا تشبع، وتبقى اسماء " البوابات التي تم ازالتها في بعض الساحات .

وثائر العوالم الأخرى

وجبل نقم الثابت الى الابد، كل هذا سيذكر بالماضي فقط ، الماضي الغابر، حين كان يهدد صنعاء النير الاستعماري، حيث ساد الاضطهاد الاقطاعي والجمود البدائي، في عام ١٣٤٧ هـ ، ١٩٢٨ ميلادية، والعام الثاني عشر من العهد الاشتراكي يصل الى صنعاء اناس من ذلك البلد المكون من أربع كلمات لا سعة هي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

الوثائر، الوثائر... وثائرنا البلشفية ... ايمكن الحلم بها يا ترى هنا، في هذا البلد المنتعش، لكنه مع ذلك نصف نائم، هرم، مليئ ببقايا القدم وركام الانقاض ؟ القصور، الاحواض، النافورات، التماثيل – البشر انصاف العراة الذين يلبسون الاسمال، وسكان المنازل التي كانت فاخرة في يوم ما ، وكانها روما القديمة العهد، المشبعة بالثقافة التي قد شاخت وهرمت وذبلت، ها قد اتت شعوب جديدة وناس جدد احتلوا مملكة المصريين القدماء، واغتصبوها، انجبوا جنسا جديدا، لكنه ليس من جنس البرابرة والقوطيين والهرنيين، ان هذا الجنس الجديد لم يدمر القلاع والقصور القديمة، وانما سكانها، واصبحت المباني الفاخرة مأوى لأناس عراة، جياع، انصاف متوحشين .

خمل هؤلاء البشر على انقاض الثقافة القديمة مئات بل وآلاف السنين ... لم يبقى من ذكر المصريين القدماء سوى نقوش تنمحي على الصخور، أو تماثيل النساء الحجرية باجفان عابسة وقبضات مضمومة باحكام .

تعرض القادمون الجدد لفتوحات جديدة، ونما شعب جديد، خليط من الاشوريين، والفرس، والساميين، والاحباش، والمصريين، بل وربما من القبائل القوقازية، ثم تبلور هذا الخليط ونضجت اليمن جامدة تم صياغتها على شكل القرون الاولى للعصر الاسلامي .

انتقل التاريخ الى الشمال، الى هناك تحت اسوار فيينا، والقسطنطينية، الى موانىء جنوى، وانفرس وامستردام، والى ورش منشستر، وبرمنجهام، وشيفلد، وتعرجات نهر الراين، والالب ، واوبيرا، والى شوارع باريس، وبولتافا، وليزج، وبروبين، ووترلو، بدأ يتشكل عالم الراسمالية الجديد، وتلاشت الحواجز القديمة، واقيمت حواجز وحدود وتخوم جديدة، وشمل البخار، والكهرباء، والراديو، والاسهم، والفوائد كل العالم .

اما هنا في الزاوية المعزولة والمنسية والعصية من شبه جزيرة العرب، في البلد الذي ساد فيه الجحيم حسب تصورات الجغرافيين القدماء، والذي كانت بوابته البحر الأحمر، هنا هجع ملايين البشر كمومياءات محنطة، في حالة سبات عميق لعشرات القرون، يتوارون بين سلاسل الجبال، تحيط بهم صحراء شاسعة، ويحتمون بستار كثيف من اشعة الشمس العمودية، تابع سلالة الحمريين القدماء ركوبهم على البغال والحمير، يمضغون القات يرتشفون الماء بايديهم، يشربون قهوة قشر البن، يحافظون على الصلاة ليحرس الله البلد ثابتا لا يتغير، كي ينعم الشيوخ بنومهم المطمئن على السجاجيد الفارسية، وكي يحني العبيد والفلاحون ظهورهم من الشروق حتى غروب الشمس في مدرجات البن ومزارع الدخن والذرة .

قلبت حرب السلاطين العثمانيين العش العطن، ووصلت قعقعة السلاح من تاريا وفيستول والدردنيل، وموجة الشرق التحررية، بالشحنة التي دفعتها ثورة اكتوبر – كل هذا ايقظ غريزة البقاء، والارادة في الحياة والازهار .

فرخت الشجرة القديمة عسالج فتية، وطمحت الى الاستقلال والتصنيع وضمانته، وظهر اليانكي في مملكة الملك ارتور من كونيكتكوتا على هيئة اطباء ومهندسين ايطاليين، وطيارين المان، وضباط اتراك، وهم الان " التجار الحمر " السوفييت، والناس الذين لم يشاهدوا البحر قعدوا في غرفة قيادة طائرة " يونكرس " وراء قيادة السيارة، ان النزوع الى الجديد ما زال يظهر بشكل طفولي غير حازم في الغالب، يملاؤهم التهيب والتوجس، من الخطأ والارتباك، غير ان الرياح تهب طريه، وتتالف مع اصداء العاصفة الثورية في الشمال البعيد، تزكي تلك الشعلة، التي بدأت تنطلق شرارتها من تحت رماد الانقاض القديمة ومن تحت رمادتراكم القرون .

لكن الوتائر، الوتائر ...كم من الصعب هنا ان تشعر بنفسك في تبعية كاملة لوتائر اخرى،

ومحيط آخر، تشعر بان كل حركاتك قد اصبحت اكثر ثقلا وبطأ، وكان رجليك قد امتلاءتا بالرصاص، من الصعب ان تحسب وتمعن التفكير في كل تغير، كل اشارة وكل خطوة، كأنها قد وقعت في كوكب آخر ، محكومة بقوانين جاذبيه اخرى .

طريق العودة

الى الطريق ؟ وليكن الانفراج حتى ولو في الطريق، ولو بالحركة – تحت ذريعة وصول السريع في رفع الوتيرة التي يمكن الحلم بها حين نجلس جلوسا بطيئا مضجرا على سقف الشرفة المستوى

السيارة، البغل، الممرات المختصرة، المبيت القصير حيثما اتفق في اقل الاماكن ملائمة، تعبر جزء من الطريق سيراً على الاقدام (لكي لا تنهك البغال)، تقطع الطريق مباشرة بدلا من المحنيات المتعرجة، صعودا، وهبوط ، ها نحن نرى بوعن، سوق الخميس، مفحق، مخافة، مجيلة، قطعنا الطريق في سبع ليلي سابقا، وها هي تنخفض الان الى ليلتين تحت ضغط الضرورة والارادة في الاسراع تستقبلنا السيارة قرب نحيل وقد ارسلت لا ستقبالنا من الحديدة، بضعة ساعات عبر قيظ وغبار تهامة، وفي اليوم الثالث من السفر نرى حيطان الحديدة البيضاء مرة اخرى وطرطشة الامواج الفوسفورية الهادية.

نستلم برقية من صنعاء مع التهنئة بمناسبة قطعنا الطريق بشكل قياسي، لكن وا أسفاه فالسرعة القياسية لم تبرر نفسها : " توبولسك " غير موجودة في الميناء انها تضطرب في صراع غير متكافيء مع الرياح الموسميه بين امواج المحيط الهندي، على بعد مائة ميل .

عشرة ايام من التسكع والحر الخانق في الحديدة، معمل البن التجاري الذي يملكه الشيخ عمر المزجاجي حيث يقوم عشرات العمال ومئات العاملات بقشر البن من القشارة، ويفرزونه في المناخل، ينثرونه في اكياس من القش، لتهيئة نقله الى مختلف انحاء العالم البعيد، والى اوديسا السوفيتية لاول مرة في تاريخ اليمن، تصل مجموعة من الهنود من بقاع الهند النائية، تسير في طريقها الى الجبال، انهم اتباع المذهب الاسماعيلي، الذين يزورون اخوانهم في المذاهب كل عام في منطقة قرب مناخه. وصل وفد ابن سعود الى صنعاء المباحثات مع الامام، يأتي ابناء الجالية المحلية الايطالية في الحديدة لزيارتنا، يشكون من مكائد الانجليز، الذين لم يسمحوا بوصول الكروسين الايطالي الى جزر كمران وفرسان ، يصادرونه بغير حياء في وضح النهار ،

ويتجاهلون مصالح الدول الاخرى، كما يشكي الايطاليون من بعضهم بعض، ويستعد ممثلو الشركات الراسمالية الايطالية المختلفة " المنظمة " لاكل بعضهم بعضا ، يتفسخون فى قيظ الحديدة الشديد، وعلى الساحل المقابل للبحر الاحمر فى عكيك سواحل مصوع وحتى فى جبال ارتيريا الباردة .

كل عقد التناقضات بين الامبرياليات الانجليزية والامريكية والايطالية وبين كل واحدة منها على حدة تجد ان انعكاساتها هنا ايضا، مثل شمس منعكسة فى قطرة صغيرة من الماء، فى هذه الزواية الشديدة القيظ من البحر الاحمر .

وحى صحيفة الحائط

هنا فى الحديدة، وعن طريق الصحف الالمانية الواصلة بالصدفة، تعلم عن النمو الكبير فى الاصوات التى حصل عليها الشيوعيون فى انتخابات الريخستاغ، كما نعلم ان بواخرنا الكاسحة الجليد (بعثة نابليون) (*) تنفذ مهامها فى الجليد القطبى البعيد، يتحدث عن ذلك طبيب ايطالي بصوت منخفض، وبتعبير حذر عن الامتنان، بينما نحن نغبط بحارة " كراسين " و " ماليجين " على الجليد الذى يحيط بهم، هذا الجليد المجهول فى شبه جزيزة العرب.

كان كل هذا بالنسبة لنا كانها انباء من كوكب بعيد، حيث فقدنا الامل فى العودة اليه ، لقد مضى ما يقارب ثلاثة اشهر على رحيلنا من اوديسا، ولم نستلم ولا مرة واحدة اخبار من الوطن السوفييتى، اذا لم تحسب تلك البرقيات الرسمية، التى تخبرنا بأن البرقيات التى ارسلناها غير مفهومة، نصمت ونطبق على الاسنان بشدة، ننتظر " توبولسك " مرة اخرى يجب الصبر ايوب .

يشتدالحر، اغسطس – اكثر الشهور قيظ – يبدو قيظ البحر الاحمر فى شهر يونو باردا خفيفا اذا ما قارناه بقيظ اغسطس، انتهى احتياطى الماء المعدنى ، نشرب الماء ذات الطعم المالح، نرتشفها بالايدى، ولذلك يبدو وكانه مشبعا برائحة جثة (ها هى بقايا الخرافات القديمة) !

اذا كان النوم ثقيلا فى صنعاء، فى جفاف الهواء الجبلى، الذى لا يطاق، واذا كانت الماء المصبوبة فى الصحن مساءا تتبخر فى الصباح، وتتشنج الحنجرة بالم حاد نتيجة جفاف العروق، واذا كان هناك فى المرتفع الجبلى الحار، يخفق القلب بدون توقف، يبدأ الاحساس

(*) – بعثة مشهورة بقيادة نابليون النمساوي، مهمتها اكتشاف القطب المتجمد الشمالي سقط فيها المنطاد الذي كان يقلهم، فانقذهم البحارة السوفييت .

بالأنهاك بعد ساعتين او ثلاث ساعات من العمل وبعد نصف ساعة من السير، فاننا هنا فى الحديدة نئن تحت الرطوبة المحرقة، وانعدام الماء، فى الغبار، تحت زحف الذباب والالم الحاد لقرصات البعوض، لقد توفى احد الموظفين الايطاليين بعد ثلاث ايام من نوبات الملاريا الخبيثة، نشعر كيف يضعف ويستسلم الجسم، و " توبولسك " لا وجود لها ، تزحف الايام ببطء لا يطاق، تطول الليالى، وفى كل صباح ونوجه السؤال لانفسنا، متى فى الاخير ستأتى الباخرة ؟ نجيب على انفسنا بثبات : " انشاء الله بكره " ، وحين خدرت مشاعر الانتظار وخاب الامل (الم تبحر " توبولسك " دون ان تمر على الحديدة ؟) ، وفى صباح هادىء وخانق (ترن اجراس الجمال ، يصرخ الماملون بعصبية على الرصيف) نرى الدخان البعيد وعلى افق يرتسم شبح الباخرة العزيزة علينا بلا حدود والعلم السوفييتى الاحمر يرفرف عند مؤخرة الباخرة ...

الرياح البحرية حادة وشديدة، يقترب الصنبوق من الباخرة البعيدة بتعرضات طويلة يبدل محله عدة مرات، مرة فى نهاية شمال المدينة ومرة اخرى فى طرفها الجنوبى، وبعد ساعة ونصف وبعد ان يجوب البحر كله ويتمزق شراعه فقط، يلتحم بجنب السفينه الحديدى وعلى الباخرة اولئك الناس أنفسهم، والقوارب نفسها، وتفس اليافطات . " نطالب باطلاق سراح الرفيق بيلاكوف " (وبالمناسبة قد اطلق سراحه) ، لكنهم قد نحلوا، واصفرت وجوههم، وصدىء حديد الباخرة، وغطى جزؤها الاسفل تحت الماء بطبقة من الصدف، اتت الباخرة واجبها، فقد نقلت اول البضائع السوفيتية الى موانئ فارس الجنوبية، وشاهدت مدن بندر، بوشير، وموخامير العلم السوفييتى، وتواجدت الباخرة فى مصب شط العرب، فى البصرة، حاملة البضائع الى العراق المضطهد من قبل الامبريالية الانجليزية، وفى طريق العودة مضت الباخرة بمكائن منهكة، لقد تقاذفها الرياح الموسمية للمحيط الهندى اكثر من عشرة ايام ، انتهى احتياطى الفحم، ووصل طاقم الباخرة الى اقصى حدود الأنهاك ، فتقرر ترك المعركة اليائسة مع الاعصار الجبار، استسلم البحارة الكارثة الطبيعية والذهاب الى كراتشى، اقرب الموانىء الهندية والبقاء هناك ، ولكن الاراده الحديدية للبحارة واصرار القبطان – المرشح للحزب اخذ الغلبة، فشقت الباخرة طريقها عبر الاعاصير ، وتمكنت من الحصول على التموين من الفحم فى مسقط ، وفى سواحل شبه جزيرة العرب، واخيرا الان– الى الامام ! فاوبيسا تجذبنا من بعيد .

يبتعد اليمن ، ويختفى فى الضباب الازرق المغبر فيما بعد ، ها هى الساعات والايام – تمروكاننا فى بانورما ، تمر الباخرة على جزر بروستى، جزر الطيور ، جدة ، فنارات الصخور البحرية فى جزر يدال وجزيرة الاخوين ، والبانورما المصقولة لجبال سيناء .

استلقى على سرير شراعى اكل عليه الدهر وشرب فى شبه غيبوبة وبلا حراك ، تبدو حر ورطوبة البحر الاحمر باردة معتدلة بعد ايام الانتظار العصيبة المتعبة فى الحديدة الخانقة ، تقع تحت سلطة الباخرة بالكامل ، من الممكن ان لا تفكر فى شىء ، ربما لا تتمالك نفسك، يمكن ان ترمى جانبا ذلك الشد الحديدى من عدم ضبط النفس والتوتر، الذى تتخيله فى الوضع المجهول والمرعب فى البلدان الغربية ، حيث يفترض ان يكن مستعداً لكل شىء وبكامل الاسلحة باستمرار .

شريط الاحداث يعود الكرى ، تمر عبر فتحة قنال السويس، تشق طريقنا الى شواطىء رودوس ضد اتجاه الريح الشمالية الشرقية، وقهر الرياح مباشرة لم يكن بمقدور المكائن المضعضه لباخرتنا، نناور ونمسك بالايدى تقريبا بكل منعطف للصخور الساحلية ، نبحث عن ملجأ من الرياح المجنونة، التى تمنعنا من الوصول الى الوطن، باندهاش نشعر ان البحر غير موجود، يهب نسيم بارد عليل، نتسلل نتفرج فى متاهة الاماكن الضحلة، والجزر الصغيرة المتناثرة، نلتصق بشواطىء الاناضول، يغير القبطان خط السير، كى نتملص من غضب الرياح، تتقمص درجات مقياس الحرارة، وترتفع درجات العرض، وتختفى اليمن فى العمق البعيد الذى لا يرى، يقفز امامنا مدخل الدردنيل كفوهة مدفع هائل .

" رائحة الوطن " فى اسطنبول

تتنفس الباخرة حياة سوفيتية كاملة ، تنتعش الخلايا الحزبية ومجلس الباخرة من جديد، بعد ضغط الشهور الاستوائية، يلتقط عامل اللاسلكى اشارات نداء اوبيسا من جديد وينشر انباء اذاعة موسكو، تناقش الخلية اساليب النضال ضد التهرب فى اوساط البحارة، يقوم الداعيه (" الكاهن السوفيتى " حسبما يطلق عليه البعض ذلك بخبث) يوميا " يقرأ القداس " (تحت ساخر ايضا) يثبت امام مجموعة من المستمعين فائدة نظام التوفير والنقد الذاتى ، ويصيغ مقولات ما ، خمسة من الحجاج الاستراخانيين العائدين (فى الطريق من جدة ، كان عددهم ثمانية مات ثلاثة منهم فى رمال الحجاز) يتزكرون بكآبة وخيبة امل المرات الشائكة فى صحارى شبه جزيرة العرب، والركض حفاة فى المواقد المنصهرة بمكة وتحت نفحات الريح الباردة سكتت مكتئبة عشرات القرود الصغيرة، التى اشتراها البحارة فى الموانىء العربية، هذه

الكائنات الصغيرة هي الشيء الوحيد الذي يمكن استيراده بغض النظر عن التحريم الجمركي، انصاف الاوادم القزمية هذه، التي اطلق عليها جملة من الأسماء البشرية، مثل باشكي، مارقوتكي، جيك، تلتصق ببعضها البعض في وسط غريب جديد وقعت فيه، قرد واحد من القردة فقط اسمه جيك انه قرد زنجباري متوحش، يختلف بحدة عن انصاف الاوادم اللطاف، يجلس غاضبا دائما وحذر ومكشر لا يقترب من البشر، يتطلع بحنين الى تلك السواحل القريبة جدا والبعيدة المنال، للباخرة التي تزحف ضد التيار ببطء والتي انهكها الزمن والامواج .

والجريدة الحائطية توزع المكافأة :

" الهدايا من الرحلة الفارسية "

" يمنح الاسطول التجاري رحلة مجانية الى فارس على الباخرة " توبولسك " (وهذا كما هو واضح هو أسوأ عقاب تمكن البحارة المحتدمون غيظا التفكير به) " .

يمنح بيكوف (الداعية) خمس سنوات من العزلة الشديدة في مدينة كيسلوفودسك وبنسين لانه حمل الفحم (لقد انهك هذا الشاب الذي قام بدور " الكاهن السوفيتي " وقدم مثلا يحتذى به ليس بالكلام فقط ، بل وبالفعل ايضا، لقد قام بحمل الفحم شخصيا في اللحظات الصعبة).

يمنح وقاد والآلات البخارية عشرة طن من فحم مسقط ، وثمانين صندوقا من المكرونة من موسليني مكافأة على الاضراب عن الفحم الايطالي (حيث لم يكن الفحم الذي تم شراؤه من السفن الحربية الانجليزية صالحا لالات باخرتنا التي كانت تعمل بالكاد) .

" يمنح طاقم الآلات سميدا من الحنطة السوداء لمقاومة الاغماء " (لقد كانت حالات الاغماء كثيرة، وتلافيها امر غير ممكن في ظل تفاهة التجهيزات) .

رصيف اسطنبول، ها هي رائحة الوطن – على هيئة المكاتب السوفيتية – ليست لذيذة وطيبة دائما ! ينعس فرع الاسطول التجاري السوفيتي هادئا تحت ضجيج شوارع اسطنبول ، على الرغم من انه اشعر بقدوم " توبولسك " ولكن موظفي الفرع لم يتفرغوا لتحضير الفحم والمؤنة مسبقا وبذلك يقللون من فترة وقوف الباخرة .

يقرر قبطان الباخرة كاديتسكي مهتاجا عدم انتظار المؤنة لسبب تأخرها ، ليكن في هذه المجاعة الاستعراضية تعبيرا عن الاحتجاج ضد البيروقراطيين السوفييت المتهاونين في الخارج ، يامر برفع المرساة تحت تذمر الطاقم المنهك من الجراية الشحيحة (صحن من الشوربه وقطعة صغيرة من اللحم المعلب في اليوم) الى الامام، الى اخر مرحلة من السفن ينتبه

البيروقراطيون بعد ان يروا الباخرة تبتعد، يقومون بحمل المؤنة المطلوبة على سيارة الى بيوك دير، حيث يفترض ان تتوقف باخرتنا قبل خروجها من البسفور، وفترة التوقف عشر أو خمس عشرة دقيقة وها نحن في البحر الاسود المفتوح .

الاصوات الاولى لصرير تروس الالة التي لم تدهن تخرق ادمغتنا بتنافر، وان كانت لا تستطيع ان تحجب عظمة ومغزى تلك العمليات، التي جرت امام اعيننا وبمشاركتنا في سير تلك الرحلة المؤلمة عبر الرياح الضبابية، والشعاب ، والقيظ، وانعدام الماء، والاعاصير، والجوع، والامراض عبر تعنت الشركة ووخزات الاعداء عبر غباء وتمقول اصحابنا .

" بعد استخلاص نتائج رحلتنا، يجب الاشارة الى الكثير جدا .

- بصرف النظر عن عدم ملائمة باخرتنا لهذه الرحلة ، وسوء نوعية الفحم ، ودرجة الحرارة العالية ومختلف انواع الحرمان الأخرى، التي عانى منها طاقم الرحلة، بصرف النظر عن كل ذلك، فقد اظهر الطاقم نفسه كما يليق ببروليتاري سوفيتي واع ، اظهر الطاقم رباطة جاش كبيرة، مدافعا عن هذه القطعة الصغيرة من الدولة السوفيتية، غير آبه بأية صعوبات، فتحنا نافذة على الاسواق العربية والفارسية، ونشرنا علمنا الاحمر بكل اتساعه امام عمال فارس والدول العربية، واجبرنا البرجوازية على الارتجاف، والتي لم تكن تنتظر قدومنا، والان وعند انتهاء هذه الرحلة المسيرة، يجب ان نعبر عن تمنياتنا وامالنا بان تكون الرحلة الثانية اكثر سهولة وربح لدولتنا ، لقد وضعنا الاساس، الذي سيبنى عليه صرح العلاقات التجارية والسياسية المتبادلة والصحيحة مع اليمن وفارس بغض النظر عن مكائد البرجوازية الاجنبية " هذه السطور المتواضعة، التي كتبتها يد بروليتارية بسرعة، والمليئة بالاخطاء الاملائية والانشائية، هي اقرب الى الحقيقة بما لا يقاس من كل اللغو المتفلسف من قبل بيروقراطيينا التجاريين، ونعيق اصحاب الاعمال في الاسطول التجاري السوفيتي، اتذكر كل التصريحات الساخرة، التحسرات التنبؤات المتألمة مثل " ان نفلح في شيء " او عسى الا يحصل شيء " وحتى " عسى ان لا يصيبكم مكروه " ، " لكن اي معنى لذلك " ... " اليمن - قبائل متوحشة " ، اتذكر الصوت المتفاخر قليلا للقاضي راغب قائلا ...

- لا تدرك بعد المغزى العظيم لهذه الايام بالكامل، التي وضع فيها بداية التقارب السوفيتي - اليمني، نعلم ان الاتحاد السوفيتي عظيم جبار وعادل، وان المستقبل ليس لاعدائه، بينما اليمن صغيرة ويبدو انها ضعيفة، لكن اليمن هي الاخرى ستضع لبنتها في صرح النضال العظيم للشعوب المضطهدة ضد مستعبديها، اليمن معروقة وتنظر اليها شعوب مصر والدول

العربية، ولها مؤيدون في العراق، وفارس، والهند ... لاتغفلوا عن اليمن، فهي لم تلعب دورها بعد ، انا عجوز وهيهات ان اعيش حتى ذلك اليوم، حين يعطي التقارب الذي بدأت ثماره اليانعة، لكنني فخور بأن الابناء والاحفاد سيرون، وسيفهمون ويثمنون اعمالي.. انشاء الله " — اقول في دخيلتي، معطيا هذه الصيغة، المتعددة الجوانب معنى : " ليكن كذلك " .

" انشاء الله " ستنتصر على الامبرياليين، والاعاصير، والتقصير وحشرات الاجهزة الحكومية الضارة الحقيرة، وجبن قليلي الايمان المصدئين المنتفعين .

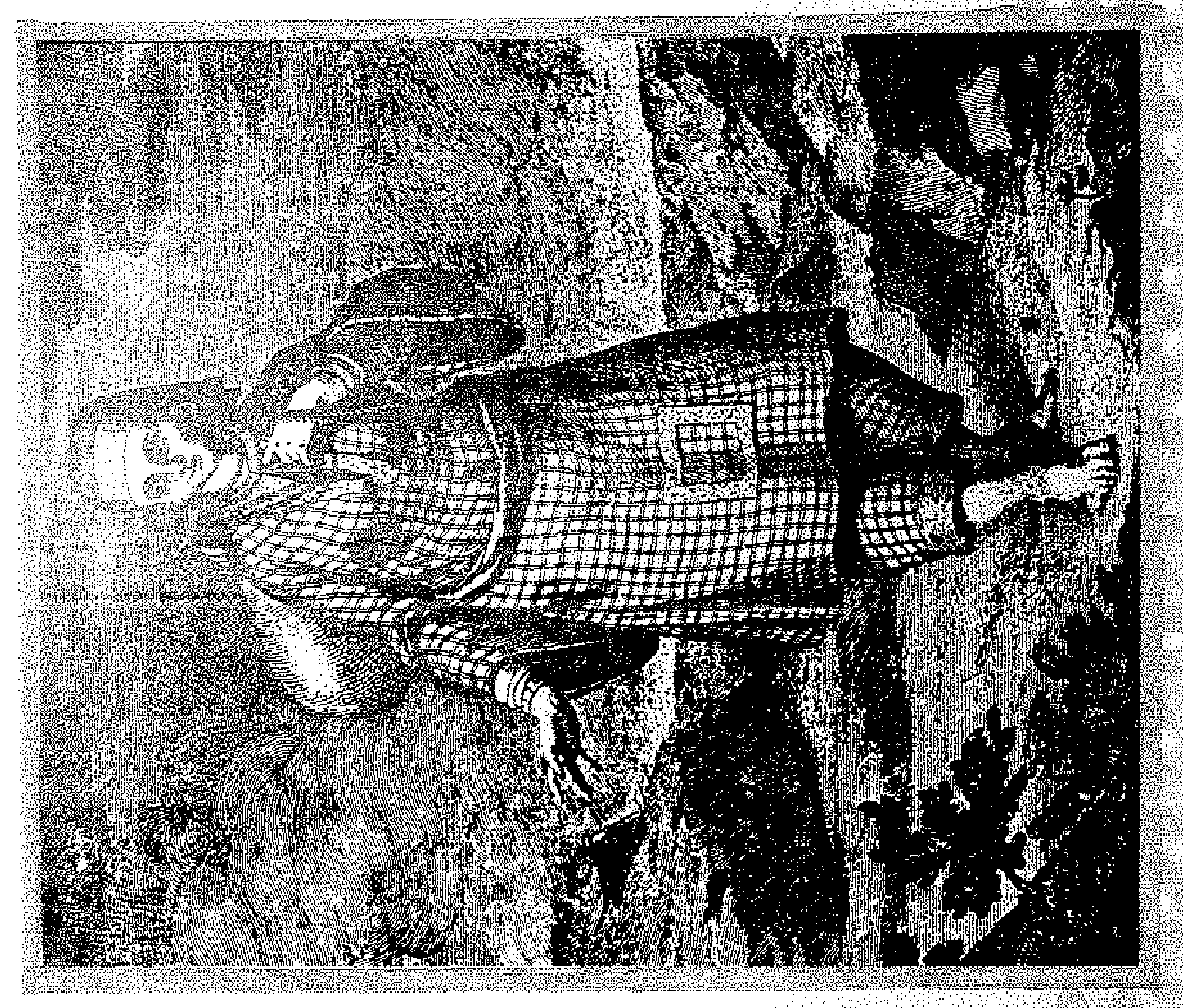
الفنار الأوديسي

وقتها، فان هذه الخيوط الدقيقه ، غير المرئية، التي امتدت آلاف الاميال من قمم جبال اليمن ذروة ابراج الكرملين ومداخن مصانع موسكو ستتحول نتيجة لرحلتنا الى حبال فولاذية جبارة توحد كل العالم لتحرير العمل والابداع الجماعي، ان الفولاذ المسكوك لا يحمل آثار الصهر وسخام جدران المصانع ولن تصل شكوانا الى اناس المستقبل من العراقيل والحرمان والاخفاق (لهذا فلنقلل من الشكاوى) ، بل ستصل تلك المشاهد القصيرة، المنفردة، التي مثل اغصان الطحلب تحت السطح الشفاف للاحجار الكريمة اليمنية، تصور نجاحات ومنجزات عصرنا، حيث يصاغ من مخلفات الماضي المتراكمة آلاف السنين مستقبل القرون القادمة سواء تحت اشعة شمس الجليد القطبي التي لا تغيب او تحت الاشعة العمودية لشمس تهامة .

وفي الافق يظهر فنار اوديسا ...

رقم الإيداع : ١٥٠٧ / ١٩٩٢

I. S. B. N. 977 - 208 - 102 - 4



لوحة الغلاف الأمامية والتصميم للفنان محمود الهندى . اللوحة الخلفية بريشة بور تنقاتيد